

المُسْتَسْرِتُونَ

وَدَعَاؤُكَ الْأَخْطَاءَ اللُّغَوِيَّةَ
فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

دراسة تطبيقية لبعض الابتكارات في المطابقة

إعداد

الدكتور آدم بيمبا



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
أسسها محمد رجاوي في بيروت
سنة 1971 بيروت - لبنان





المُسْتَشْرِفُونَ
وَدَعَاؤُ الْأَخْطَاءِ اللِّغَوِيَّةِ
فِي الْقِرَاءَةِ الْكَرِيمِ
دَاسَةُ تَطْبِيقِيَّةِ لِبَعْضِ الْإِشْكَالَاتِ فِي الطَّابِقَةِ

الكتاب : المستشرقون
ودعوى الأخطاء اللغوية
في القرآن الكريم

Title : AL-MUSTAŠRIQŪN
WA DA'WA AL-AḤTĀ' AL-LUĠAWIYYA
FĪ AL-QUR'ĀN AL-KARĪM

التصنيف : دراسات قرآنية

Classification: Quoranic studies

المؤلف : الدكتور آدم بامبا

Author : Dr. Adama Bamba

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	288	عدد الصفحات
Size	17x24 cm	قياس الصفحات
Year	2015 A.D - 1436 H.	سنة الطباعة
Printed in :	Lebanon	بلد الطباعة : لبنان
Edition :	1 st	الطبعة : الأولى

Exclusive rights by © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**
Beirut-Lebanon No part of this publication may be
translated, reproduced, distributed in any form or by any
means, or stored in a data base or retrieval system, without
the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**
Beyrouth-Liban Toute représentation, édition, traduction ou reproduction
même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation
préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à
des poursuites judiciaires.

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية
بيروت-لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب
كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

**Dar Al-Kotob
Al-ilmiyah**

Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: +961 5 804810/11/12
فاكس: +961 5 804813
ص.ب: 11-9424 بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت 11072290



المُسْتَشْفَوَاتُ
وَدَعَاؤُهَا الْأَخْطَاءُ اللُّغَوِيَّةُ
فِي الْقِرَاءَاتِ الْكِرَامِ
دراسة تطبيقية لبعض الإشكالات في المطابقة

إعداد
الدكتور آدم بسمبا



دار الكتب العلمية®

Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah

DKI

أسستها من رعايته بيروت سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، كتابًا أحكمت آياته، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، والصلاة والسلام على نبيِّه المصطفى المبعوث رحمةً للعالمين.

أما بعد؛

فإنَّ مخاصمة معارضي القرآن له لخصومة قديمة رافقت تنزُّل القرآن على نبينا محمد ﷺ؛ إذ كان القرآن بأسلوبه البديع، وبيانه الرفيع، ومثله العليا، تحدِّيًا حقيقيًّا لكلِّ من عاند وكابر. وقد سلك أولئك المخاصمون من مشركي مكَّة في مخاصمتهم طرقًا شتى من الافتراء، منها زعمهم أنَّ القرآن سحر يؤثر، وأنَّه قول البشر، وأنَّه أساطير الأولين، وأنَّه شعر، وسحبوا التُّهم والمزاعم نفسها على النبي ﷺ فقالوا إنَّه ساحر مجنون، وأنَّه شاعر... وقد نقل القرآن عنهم - بأمانة - جميع تلك المزاعم وفنَّدها واحدة تلو الأخرى، بالحجج المنطقية، والبراهين العقلية، والأدلة المادية، وزاد بتحدِّيهم أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله - ولو مفتراة - من عند أنفسهم؛ فعجزوا، وركنوا إلى وسائل أخرى كاللغو فيه وصرف النَّاس عن سماعه.

وهذا الذي انتهى إليه مشركو مكَّة من انتهاج اللغو في القرآن، وصرف النَّاس عنه، قد كان من طُرُقِه وأساليبه تتبَّع المواضع المحتملة للشُّبه في القرآن، والنَّفث من خلالها من أجل التَّلبيس على النَّاس، وتلك سنَّة المخاصمين المعاندين، في كلِّ عصرٍ ومصر، مزاعمهم لَهي هي، وطُرُقهم وأساليبهم لا يتخلَّف بعضها عن بعض وإن اختلفوا في الأسماء والألقاب، وفي الألوان والأشكال. يشير إلى ذلك ابن قتيبة (ت276هـ)، في معرض تبين

سبب تأليفه لكتابه في هذا المجال فيقول: «قد اعترض كتاب الله بالطعن مُلحدون، ولَغَوْا فيه وهجروا، واتَّبَعُوا ما تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ بأفهامٍ كَلِيلَةٍ، وأَبْصَارٍ عَلِيلَةٍ، ونَظَرَ مَدْخُولٍ، فحَرَّفُوا الكلامَ عن مواضعِهِ، وعدَلُوهُ عن سُبُلِهِ، ثم قَضَوْا عليه بالتَّناقُضِ، والاستِحالة في اللَّحْنِ، وفساد النَّظْمِ، والاختلافِ، وأدَلُّوا في ذلك بعللٍ ربما أُمالت الضَّعيفُ الغمرُ، والحدَثُ الغرُّ، واعترضت بالشُّبه في القلوب، وقدحت بالشُّكوك في الصُّدُور... فَأُحْبِبْتُ أَنْ أنْضِجَ عن كتاب الله، وأُرْمِي من ورائه بالحججِ النِّيرة، والبراهين البَيِّنَة، وأُكْشِفَ للنَّاس ما يلبسون، فأَلَفْتُ هذا الكتابَ جامعاً لتأويل مشكل القرآن»⁽¹⁾. فاللغو يبدأ بمقدمات زائفة، فتتأجج باطلة، فأهداف خبيثة.

أمَّا في عصرنا الحاضر، فإنَّ مجموعةً كبيرة من المستشرقين قد تصدَّوا للدراسات القرآنيَّة، وهم يتَّصفون بصبرٍ طويل، واستقصاءٍ دقيقٍ للمصادر؛ فأفادوا في بعض المجالات، وظلموا القرآن والإسلام في مجالاتٍ كثيرة. ولئن كان مشركو العرب قد أطلقوا في حقِّ القرآن تُهمًّا كثيرة زائفة، فإنَّ المستشرقين قد فاقوا عليهم وتجاوزوا، وجاءوا ببدعة «الأخطاء النحويَّة» في القرآن، وألفوا في ذلك دراساتٍ مستفيضة.

وفي وجه هذه الهجمة المكثَّفة على القرآن، والسَّبر الدَّقِيق لأغوار المصادر الإسلاميَّة من لدُن المستشرقين، فإنَّنا لا نكاد نجد عند العلماء المسلمين اهتماماً يُذكر بالتَّصدِّي لتَهْجُم المستشرقين على القرآن، خاصَّة في مجال اتِّهام لغة القرآن بالركاكة والخطأ والاضطراب، وإنَّ قصارى ما عند أولئك المسلمين مقالات مبتسرة يتَّهمون فيها المستشرقين بالجهل المطبق بالعربيَّة وقواعدها، وأنَّهم إنَّما يتعلَّمون العربيَّة من المعاجم والصُّحف.

على سبيل المثال، فإنَّ إحدى الدِّراسات التي تصدَّت لقضايا وشُبَّه أثارها المستشرقون عن القرآن في الموسوعة البريطانيَّة، لم توجد بها إشارة إلى ما

(1) الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم. تأويل مشكل القرآن، بتحقيق: إبراهيم شمس

يثار حول لغة القرآن من مخالفته للقواعد النحويّة، على الرّغم من تعرّض هذه الدّراسة لمباحث وثيقة الصّلة بهذا الموضوع، مثل مناقشتها لأسلوب القرآن وخصائصه، وما يثار عن صلة القرآن بأسلوب الكهّان والمنجّمين وبالشّعري الجاهلي، والأسلوب المكي والمدني⁽¹⁾. ومع اعترافنا بالقصور في هذا المجال، فإنّنا لم نجد دراسةً متخصصة تعرّضت لهذا المجال من الشّبهات المثارة حول القرآن، ونخال أنّ قاعدة «كلّ فعلٍ له ردٌّ فعلٍ مناسب...» غير صادق في هذا الظّرف، فلو كان للباحثين المسلمين اهتمامٌ مقارب للهجمة الاستشراقية على القرآن؛ لما بذلنا الجهد المضني في البحث عن تلك الأعمال والبحوث. بل لما احتجنا -إطلاقاً- إلى الخوض في هذا الميدان بعد بلاء العلماء الحسن فيه.

بناءً على ذلك، فإنّ دراستنا الحالية محاولةٌ متواضعة لبيان زيف ادّعاءات الذين يتّخذون من تهمة «الأخطاء النحويّة» ميداناً للتحريش بالقرآن الكريم، والتّشويش على المسلمين قليلي التّبصّر بالقواعد اللغويّة العامّة. ولا شكّ أنّ المسلم - بمعرفة توجيه تلك التّراكيب، وتمييز القرآن في استخدامها - سوف يزيد ذلك في ثقته بهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو بذلك يصبح قوياً متبصّراً لا ينخدع لدسائس المغرضين، ولا ينخدل أمام افتراءات المبطلين المؤسّوسين من الناس. بل يدافع عن دينه، وعن كتابه بقوة وعلمٍ وحجّة قائمة، والمؤمن القويّ خيرٌ من المؤمن الضّعيف.

إجمالاً، فإنّ هذه الدراسة وقوفٌ عند بعض تلك الصّور من التّراوح بين الأساليب العربيّة في الآيات القرآنية، وقد وقفنا فيها في الفصل الأوّل لاستعراض آراء المستشرقين حول القرآن وأسلوبه، وما أثاروا من شُبّه في هذا المجال، وبدأ هذا الاستعراض بنولدكه «أبي الاستشراق»، فبرجستراسر حتى المحدثين. بعد ذلك جاء استعراض كثيرٍ من المواضع والأساليب التي قد

(1) فضل حسن عباس. قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، (عمان: دار البشير للنشر،

1410هـ/1989م)، ص42 وما بعدها؛ وص75 وما بعدها.

تُشكل على بعض الناس في القرآن الكريم، وقد لا ينشطون إلى سؤال أهل الذكر عنها، ويبقون بين حيرة في تلك الأمور، وبين إيمانٍ قاطع بانتفاء الخطأ عن القرآن الكريم. وقد شمل ذلك مبحثين أساسيين، هما: الإشكالات في التّطابق في العدد وفي الجنس، ففي العدد وقفنا عند نماذج من: الأفراد والتّثنية والجمع، هذا في الفصل الثاني. أمّا في الفصل الثالث فقد وقفنا عند الجنس من حيث التّبادل بين التذكير والتأنيث، وفي الفصل الأخير كان وقوفٌ عند الظواهر العامّة المؤثّرة في المطابقة على المستويين المذكورين: العدد والجنس، مع إيراد أقوال العلماء والمفسّرين في تلك المواضع والمسائل، والاستشهاد بالآيات والأمثلة التّوضيحيّة، والشّواهد الشّعريّة،⁽¹⁾ ذلك مع الحرص على تبسيط المسائل، والبعد عن الخلافات النّحويّة أو الخوض فيها رغبةً في إفادة عامّة القراء من غير أصحاب الاختصاص، وقد حاولنا استنباط بعض المعاني والفوائد البلاغيّة كلما تيسّر ذلك.

أمّا من حيث العرض والتّنظيم، فقد تمّ عرض القضايا بحسب ترتيب السّور في المصحف، كذلك ترتيب الآيات تحت كلّ قسم بحسب ترتيب سّور القرآن الكريم، ووُضعت عناوين مختصرة لكلّ قضيّة؛ رغبةً في التّيسير والتّخفيف على القارئ؛ حيث يمكنه قراءة الموضوعات مفرّقةً، والاستفادة من كلّ آية على حدة.

هذا، والله نسأل أن ينفع بهذا العمل، ويجعله مفتاحاً لنا في معرفة شيءٍ من كتابه العزيز. ونسأله أن يتقبّله منا قبولاً حسناً، إنّه وليّ ذلك، وهو الملك المنان.

(1) اعتمدنا في تخريج الشواهد الشعرية على كتاب: المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية، لإميل بديع يعقوب، نشر دار الكتب العلمية، 1992م. وهو في ثلاثة مجلدات.

الفصل الأول

المستشرقون
و«الأخطاء اللغوية»
المزعومة في القرآن

المبحث الأول: المستشرقون والقول بالخطأ اللغوي في القرآن

إنَّ الزَّعم بوجود أخطاء لغويَّة في القرآن الكريم، زعمٌ منبثقٌ عن موقفٍ عامٍّ كليٍّ من لدُن المستشرقين، ألا وهو إنكار المصدر الإلهيِّ للقرآن الكريم، فهم لا يؤمنون بكون القرآن وحياً من عند الله سبحانه وتعالى، وهذا مجال إجماعٍ عند المستشرقين. غير أنَّهم ينقسمون في هذا الموقف إلى فريقين اثنين مع كثيرٍ من المواقف والرؤى الفرعيَّة بينهم، وهما:

(1) فريقٌ يرى أنَّ القرآن قد نُقل من مصادر أخرى سابقة لها، وأنَّ محمَّداً ﷺ قد نقل نصوصه ومعانيه من تلك المصادر، ثم أَلف بعضها إلى بعض، وادَّعى أنَّه يوحى إليه، ومن القائلين بهذا الرَّأي: ألوي سبنجر (Aloy Spenger، 1813-1893) ووليم ميور (Wiliam Muir، 1819-1905)، وثيودور نولدكه (Theodor Noldeke، 1836-1930)، وإجناز جولدتسيهر (Ignaz Goldziher، 1859-1921)، وج. برجستراسر (Gotthelf Bergstrasser، 1933d)، وليون كائتاني (Leon Caetani، 1869-1935)، وصمويل مرجليوث (David، Samuel Margoliouth 1858-1940)، وممَّن توسَّع في هذا الزَّعم مؤخراً في القرن العشرين الميلادي، المستشرق: ريتشارد بيل (Richard Bell، 1876-1952)، وتلميذه وليم مونتغمري (William Montgomery، 1909-2006 Watt)، وكريستوفر لوجسنبيرغ (Christopher Luxenberg)، وجيرد بوين (Gerd Puin).

(2) الفريق الآخر، يذهب إلى أنَّ القرآن إنَّما هو نتاجٌ جمعيٌّ تطوَّر على امتداد القرن الأوَّل والثَّاني الهجري، واشترك في وضع نصوصه فُرقاء كُثُر من العلماء والخلفاء والشُّعراء والأدباء وغيرهم، ومن أشهر الدَّاهيين إلى هذا الزَّعم: يهودا دي نيفو (Yehuda، 1932-1992 Nevo D.)،

وألويس سبرنجر (alloys sprenger، 1813-1993)، و ج. وانسبرغ (John Wansborough، 1928-2002)، وج. أ. بيلامي (J. A. Bellamy)، ومايكل كوك (Michael Cook، 1940 b)، وأندرو ريبين (Andrew Rippin، 1950b)، وتوسّع فيه آخرون، أمثال: كينيث (Kenneth Cragg، 1913-2012)، وباتريسيا كرون (Patricia Crone، 1945 b).

طبقاً لهذين الموقفين، تتعدّد مواقف المستشرقين في النّظر إلى ما يسمونه بالأخطاء اللّغويّة أو النّحويّة في القرآن والحكم عليها، وتحديد مصادرها، والمسؤول عنها. فالفريق الأوّل الذي يرى أنّ القرآن قد نُقل من مصادر قديمة، يحاول عامّة أصحابه النّظر في «أخطاء القرآن» من خلال علاقة اللّغة العربيّة باللّغات الشّرقية القديمة. أمّا الفريق الآخر، وهو الذي يرى عامّة أصحابه أنّ القرآن قد وضعه محمّد ﷺ ومَنْ بَعْدَهُ، فإنّ القائلين بهذا الزّعم يحملون أولئك مسؤوليّة «الأخطاء» اللّغويّة في القرآن. كما يرون أنّ طبيعة اللّغة العربيّة آنذاك، هي السّبب المباشر لبعض ما يرونه أخطاء لغويّة في القرآن.

بالإجمال، فقد لخصّ الباحث محمد مهر علي ادّعاءات كلا الفريقين في عدّة نقاط، على النّحو الآتي⁽¹⁾:

ادّعاءات الفريق الأوّل:

أ - أنّ محمّداً ﷺ كان رجلاً طموحاً، واتّخذ خطواتٍ مدروسة للدّور الذي قام به فيما بعد.

ب - أنّه كرّس نفسه لفنّ الشّعْر؛ ليستطيع نظم القرآن.

ج - أنّ القول بأنّه كان أميّاً، زعم غير مقبول. بل إنّ لفظ «أمي» لا يعني عدم القدرة على الكتابة والقراءة.

(1) مزاعم المستشرقين حول القرآن الكريم، (د.م، د. ت)، ص 278.

د - أنَّ محمّداً ﷺ قد اقتبس الأفكار والقصص من اليهودية والنصرانية وضمّنها القرآن.

هـ - أنَّ كثيراً من الأخطاء العلمية المعاصرة، خصوصاً تلك التي تتصل بالعالم والكون، معكوسة في القرآن. وأنَّ في القرآن العديد من العبارات والمصطلحات الجارية والمفردات الأجنبية، وكلُّ هذه تدلُّ على أنَّه من تأليف محمد.

و - أنَّ كلمة «الوحي» لا تعني إلقاء النص من الله. بل تعني اقتراحاً أو إشارة (suggestion)، أو حديث النفس العلمي (intellectual locution).

أمّا ادّعاءات الفريق الآخر، فهي:

أ - أنَّ المصادر التاريخية الإسلامية ليست معاصرة، ولا يمكن تصديقها.

ب - أنَّ الحفريات الأثرية في جزيرة العرب - خصوصاً تلك التي جرت في منطقة النجف - كشفت العديد من النقوش القديمة الدالة على عدم وجود القرآن في القرن الأوّل الهجري.

ج - أنَّ المخطوطات القرآنية القديمة التي عُثِر عليها مؤخراً في صنعاء تشير إلى تطوّر القرآن خلال فترة طويلة.

د - أنَّ نقد النصّ القرآني يشير إلى أخطاء في نسخ القرآن.

عليه، يحسن بنا استعراض آراء بعض أولئك المستشرقين حول القرآن، وحول ما يزعمونه أخطاءً لغويةً فيه (*) توطئة للنظر في تلك المواضع وما ذكره علماء اللغة والمفسّرون من دقائق لغوية وبلاغية في تلك المواضع في القرآن.

(*) ينظر دراسة استعراضية ونقدية لزعم المستشرقين بوجود أخطاء لغوية في القرآن في مقال للباحث: فقهي الحسين: "Survey and Critical Analysis of Orientalists' Claim About Grammatical Mistakes in Holy Qur'an", Journal Of The Iranian Association of Arabic Language And Literature Fall, 2010; 6(16):97-117.

أولاً: ثيودور نولدكه

يعدُّ المستشرق الألماني -أبو الاستشراق- نولدكه أبرز مَنْ ابتدأ الزَّعم من بين المستشرقين بوجود أخطاء في القرآن الكريم، وتابعه في ذلك سائر المستشرقين إلَّا ما ندر منهم. ونجد آراء نولدكه مبثوثة في مباحث كتابه الشَّهير «تاريخ القرآن»، وكلُّ مبحثٍ في الأجزاء الثلاثة من هذا الكتاب يعالج جانباً من الصُّورة الكلية التي كوَّنها نولدكه عن القرآن بوصفه عملاً إنسانياً وضعه محمَّد ﷺ، مستفيداً من المصادر اليهودية والمسيحية والموروثات الشعبيَّة العربيَّة التي سبقته.

وبما أنَّ استقصاء هذه القضية عند نولدكه قد يحيد بنا عن الهدف الأساس من هذا البحث؛ فيكفي هنا عرض مقتطفاتٍ من أقواله حول شخص النبي ﷺ ونبوءته، والقرآن الكريم.

بدأ نولدكه كتابه بمبحث: «في نبوءة محمد والوحي، أ - محمد نبياً، مصادر تعليمية»، في هذا المبحث أكَّد نولدكه أولاً على شِدَّة إخلاص محمَّد في تغيير مجتمعه وصدق إيمانه برسالته، وذكر أنَّه كان يتمتَّع بذكاء كبير، ولكنه كان يفتقر إلى العقل النَّظريّ.. «لهذا السَّبب اعتبر ما حرَّك نفسه أمراً موحى به، منزلاً من السَّماء، ولم يختبر اعتقاده إطلاقاً. بل اتَّبَعَ الغريزة التي كانت تدفع به تارةً إلى هناك؛ ذلك أنَّه اعتبر هذه الغريزة صوت الله الذي أتاه من السَّماء، وهذا ما ينتج الفهم الحرفيَّ الظَّاهر للوحي الذي يقوم عليه الإسلام». فالنُّبوءة عند نولدكه إنَّما هي وهْمٌ من محمد. أما عن أصل الإسلام فقد ذهب نولدكه صراحةً إلى أنَّه مقتبسٌ من اليهودية.. يقول: «إنَّ المصدر الرَّئيس للوحي الذي نُزِّلَ على النبي حرفياً، بحسب إيمان المسلمين البسيط وبحسب اعتقاد القرون الوسطى وبعض المعاصرين، هو بدون شكٍّ ما تحمله الكتابات اليهودية. وتعاليم محمد في جلِّها تنطوي في أقدم السُّور على ما يشير بلا لبسٍ إلى مصدرها. لهذا، لا لزوم للتَّحليل لنكتشف أنَّ أكثر قصص الأنبياء في القرآن، لا بل الكثير من التَّعاليم والفروض، هي ذات أصلٍ يهوديٍّ. أما تأثير الإنجيل على القرآن فهو دون ذلك بكثير». في الفقرة التالية قال: «يتعلَّق بما

سبق ذكره، أنَّ محمدًا أعلن عن سور، أعدّها بتفكيرٍ واعٍ وبواسطة استخدام قصص من مصادر غريبة مثبتة، وكأنَّها وحيٌّ حقيقيٌّ من الله».

أمَّا عن المصدر الوثني العربي للإسلام، فقد أوضحه نولدكه بقوله: «أحد أهمّ مصادر تعاليم محمد كانت الاعتقادات الدنيّة التي اعتنقها قومه. وما من مصلح يمكنه أن يتنصل تمامًا من المعتقدات التي تربّى عليها. هكذا بقي لدى مؤسّس الإسلام بعضٌ من الأساطير القديمة (مثل حول الجن) وبعض الآراء الدنيّة التي كانت سائدة في زمن الجاهليّة. والبعض الآخر منها احتفظ به عمدًا. أما الطقوس الممارسة في الكعبة والحج، فقام بتعديلها لتلائم تعليمه»⁽¹⁾.

وما دام هذا موقف نولدكه عن الوحي والقرآن والإسلام، فإنَّ نولدكه قد حكم على القرآن بأنّه عملٌ إنسانيٌّ يعتريه الخطأ والصّواب. بل إنّه قد أطلق أوصافًا سلبية كثيرة على أسلوب القرآن، منها، أنّه: «غير متناسب الأجزاء»، «أسلوب نشاز»، «أسلوب خشن»، «غير جميل». وقال: «كان على محمد أن يتأمّل طويلاً في محتوى وحيه قبل أن يبرزه للعالم. لكنه لم يعرّ اهتمامًا كبيراً لأسلوبه»⁽²⁾.

ثانيًا: برجستراسر

كان برجستراسر أوّل من فصل القول في الزعم بوجود أخطاء في القرآن الكريم وذلك في الجزء الثالث من كتاب نولدكه «تاريخ القرآن»، وهو الجزء الذي كتبه برجستراسر مكملًا لهذا الكتاب بعد وفاة نولدكه، وكرّر فيه إشاراتِهِ إلى الأخطاء؛ ففي الفصل الأوّل من الكتاب الذي عُنون له برجستراسر بقوله: «الفصل الثالث في أخطاء النصّ العثماني»، وتناول فيه رسم المصحف العثماني، صرّح برجستراسر بقوله في مستهلّ هذا الفصل: «اعترف المسلمون

(1) ينظر هذه النصوص في: ثيودور نولدكه، تاريخ القرآن، نقله إلى العربية: جورج تامر، (بيروت: مؤسسة كونراد أدناور، 2004م)، ص 5-8.

(2) Oliver, Leaman (ed). Encyclopedia of the Qur'an, (Routledge, 2005), 357.

منذ زمنٍ طويلٍ بأنَّ نصَّ القرآن الذي أصدرته اللّجنة التي عيّنها عثمان، لم يكن كاملاً على وجه الإطلاق، ويوجد بين أيدينا عددٌ من الروايات التي أخذت على هذا النصّ أخطاء مباشرة⁽¹⁾.

أمّا الرواية الأولى التي عمد إليها برجستراسر لدعم مذهبه في «اعتراف المسلمين بوجود أخطاء في القرآن»، حديث اللّحن، وفيه أنّ عثمان رضي الله عنه قال للكتاب بعد أن وجد في المصحف حروفاً من اللّحن: «لا تغيروها، فإنّ العرب ستعربها بالسنتها»، وأردف برجستراسر هذا الخبر بما روي عن عائشة من رأيها حول مواضع في القرآن الكريم، وأنها قالت: «هذا عملُ الكتاب أخطأوا في الكتاب». على ذلك، يتّضح أنّ برجستراسر يؤكّد وجود «أخطاء» في القرآن، ولكنّ تلك الأخطاء، مردّها - في الغالب - إلى الكتاب، والإشكالات ذات الصّلة بنظام الرّسم العربيّ القديم، وليس إلى أصل النّقل من النّبي ﷺ.

أمّا عن نسبة الأخطاء الموجودة في المصحف العثماني فهي ليست باليسيرة في رأي برجستراسر؛ إذ بالإضافة إلى المواضع المذكورة، توجد «مئات غيرها». كما أنّ نسبة الاستياء من هذه الأخطاء كانت تزيد كثيراً عمّا يرد في الروايات المذكورة⁽²⁾.

هذا، وقد قسّم برجستراسر «أخطاء» القرآن إلى مستويين: المآخذ اللّغويّة، والمآخذ من حيث المحتوى، فاللّغويّة ما يتعلّق بقواعد النّحو، ومآخذ المحتوى ما يتعلّق بالمفردات؛ كاستبدال كلمة بأخرى استبدالاً يؤدّي إلى تغيير في المعنى.

أيضاً، ذهب برجستراسر إلى تقسيم المواقف حيال «الأخطاء» في المصحف العثماني إلى عدّة مواقف بحسب ما أورده من رواياتٍ أكّد بها إقرار المسلمين الأوائل بتلك الأخطاء كما في حديث اللّحن عند الخليفة عثمان وأمّ

(1) نولدكه، تاريخ القرآن، 3/ 443-444.

(2) المصدر السابق، ص 445.

المؤمنين عائشة (رضي الله عنها). وتتلخص تلك المواقف في خمسة، هي⁽¹⁾:

أ - موقف يُنكر كل شك حول أصالة النص ومخالفته لأي قواعد لغوية أو في المحتوى، ويفهم النص العثماني على أنه مُعطى مُطلق، لا يمكن تغييره حتى ولو كان خطأ.

ب - موقف تبريريّ يعترف بالخطأ في القرآن الكريم، ولكنه يلقي بالمسؤولية على الكتاب، وقد وصف نولدكه هذا الموقف بـ «مسلك تبريريّ ساذج» وذلك أن نشوء تلك الروايات المضمّنة للأخطاء يمكن ردّها «على كل حال إلى وقت مبكر جدًا». أي إلى وقت سابق للكتاب.

ج - موقف أكثر تحرراً، وهو الأقدم، يميل إلى التغيير والتصحيح. (موقف عائشة مثلاً).

د - موقف وسط لا يسعى إلى إنكار ما في المصحف العثماني من مآخذ، كما لا يسعى إلى تغييرها، ولكنه يقرأ بغير ما كتب، أي أنه يقرأ بالمكتوب، ولكنه لا يقرأ به. (قراءات عليّ بن أبي طالب مثلاً)^(*). فهذا - في رأيه - موقف رافض بصمت لا يرضى بالمرسوم المخالف للقواعد اللغوية العربية في المصحف العثماني، ولكنه لا يجهر برفضه علناً؛ وإنما يترجمه عملياً بقراءته على ما تبين له أنه الأصوب في الرسم والقراءة.

هـ - موقف متأخر يتمسك بالنص العثماني رسماً وقراءة، ويجتهد في إيجاد توافق مقبول «لتوحيد النص مع مطالب اللغة والمعنى».

بعد إيراد تلك المواقف حيال النص القرآني المخالف للقواعد اللغوية،

(1) المصدر السابق، ص 445 وما بعدها.

(*) أورد القرطبي في تفسيره (208/17) أن علياً بن أبي طالب (رضي الله عنه) قرأ: «وطلع منضود» بالعين، وتلا قوله تعالى: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ وهو خلاف المصحف، وفي رواية أخرى: أنه قرأ بين يديه: ﴿وَطَلْحٍ مَنضُودٍ﴾ فقال: وما شأن الطلح؟ إنما هو «وطلع منضود»، ثم قال: ﴿لَمَّا طَلَعُ نَضِيدٌ﴾ ف قيل له: أفلا نحولها؟ فقال: لا ينبغي أن يهاج القرآن، ولا يحول. أي أنه اختار هذه القراءة؛ لأنه وجد أن الرسم المجمع عليه هو «طلح» بالحاء.

سرد برجستراسر مواضع في القرآن الكريم بوصفها خارقة للقواعد اللغوية على المستويين المذكورين آنفاً، أي من حيث القواعد النحوية، ومن حيث استعمال المفردات في غير سياقاتها.

ثالثاً: كريستوفر لوجسنبيرغ

يدّعي المستشرق كريستوفر لوجسنبيرغ أن القرآن من أصلٍ آرامي، ويذهب إلى أن مكة ما كانت إلا مستعمرة آرامية صغيرة، وأن اللغة المستعملة بها كانت لغة عربية آرامية هجينة (aramäisch - arabische mischsprache). من هنا يذهب لوجسنبيرغ إلى أن كثيراً من سور القرآن لم تكن بلغة عربية على الإطلاق، وإنما كانت بهذه اللغة الهجينة، ثم كُيف القرآن ليوافق القواعد العربية القديمة، وعلى ذلك فإنه قد أرجع المواضع المستشكلة نحويًا إلى تأثير العربية باللغة الآرامية القديمة. ولا شك أن طروحات لوجسنبيرغ امتداد لما سبقه من مزاعم من لدن بعض المسيحيين العرب في الشام خاصة، ممن زعموا أن القرآن محرف من أصلٍ مسيحي على أيدي الجيل الأول من المسلمين واليهود الذين أسلموا⁽¹⁾. من أولئك المسيحيين العرب الأب لويس شيخو (1859-1927م).

ومن الأمثلة التي أوردها لوجسنبيرغ بهذا الصدد، آية الأسباط: ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَفِيسًا﴾، وآية اللبث: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (الكهف: 25). وقوله تعالى على لسان مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ (مريم: 23) وآية: ﴿يَتَأَخَذَتِ هُنَّ مِمَّا كَانَتْ أُمَّرَأًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ (مريم: 28)،⁽²⁾ حيث ادّعى أن تلك المواضع تخرق قانون المطابقة بين الصفة والموصوف، أو المسند والمسند إليه، أو العدد والمعدود، وأن الإشكال في هذه المواضع عائد إلى تأثير اللغة العربية بالآرامية؛ لأن القواعد النحوية الآرامية الآشورية تلزم الثبات

(1) S. H. Griffith, The Quran in Arab Christian Texts: The development of an Apologetical Argument; Abu Quran in the Maglis of al-Ma'mun, Parole de l'Orient, 24, 1999, 203-233.

(2) Reynolds et Al. The Quran and Its Historical Context, 227.

وعدم المطابقة في جميع الأحوال. (status absolutus)⁽¹⁾. بناءً على ذلك، فإن القواعد اللغوية المعروفة في آية من هاتين اللغتين لا يمكن تطبيقها في المواضع المستشكلة لغوياً سواء في المستوى النحوي أم في المستوى المفرداتي.

هذا، وممن ذهب مذهب لوجسنبرغ، الباحث لولنج (Gunter Lüling, 1928)؛ حيث رأى أن القرآن عبارة عن ترانيم دينية قديمة ألفت بلهجة عربية مسيحية، ثم أخضعت فيما بعد، للقواعد النحوية الموضوعة في القرنين الميلاديين الثامن والتاسع، وسمي ذلك الأصل المزعوم بـ (über den ur Quran) أي: «قرآن بدائي»⁽²⁾. وقد تابعه في ذلك المستشرق كارل فولرس (Karl Vollers 1857-1909)، وأرجع أصل القرآن إلى لهجة عربية قديمة في جنوب الجزيرة العربية، وهي لهجة غير إعرابية، ثم حوّر؛ ليوافق العربية الكلاسيكية التي كانت لغة الشعر المشتركة⁽³⁾. وممن ذهب مذهب لولنج أيضاً في ادعاء الأصل الآشوري للقرآن، المستشرق السويدي تور أندريه (Tor Andrae 1885 - 1947)، ولكنه لم يعتمد الاشتقاقات الصرفية أو الخصائص النحوية للقول بأن القرآن منقول من نصوص آرامية أو آشورية، وإنما عمد إلى التشابه الموضوعي بين المسيحية والإسلام؛ فزعم أن كثرة تأمل محمد في البعث ويوم القيامة، والجزاء والجنة والنار والحساب... كل ذلك أفضت به إلى رؤية واضحة وصفاء روح، (anschauung). وبعد مقارنة نصوص آشورية بآيات قرآنية، زعم أن «كل ما تلقاه محمد من المسيحية، إنما تعلّمه مشافهةً عن طريق الوعاظ أو عن طريق

-
- (1) Ch. Luxenberg, Die syro-aramäische Lesart des Koran: Ein Beitrag zur Entschlüsselung der Koransprache, Berlin: Das arabische Buch, 2000 (2nd edn Berlin: Schiler, 2004) (translation: The Syro-Aramaic Reading of the Koran, Berlin: Schiler, 2007), 214-217.
- (2) Über den ur-Quran, Anatze Zur rekonstruktion der vorislamisch-Christlichen stophenlieder im Koran, 1974.
- (3) Jane Dammen Mc Auliffe, The Cambridge Companion to the Qur'an, p100. Also: The Quran and Its Historical Context, 13, 95.

التّواصل الشّخصي»، وهو بذلك يشير إلى نصارى نجران والحيرة⁽¹⁾. ومن مزاعم تورّ أن «الحدور العين» المذكورة في القرآن، مأخوذة من ترانيم آشورية من الكنيسة النستورية (Nestorian Church) للقديس إفرائيم (Ephraem the Syrian, c. 306 – 373) لكن الباحث دون إيدموند (Don Edmund Beck) قد فنّد هذا الرّأي بشدّة؛ ذاكرًا عدّة أمور، منها: أنّ النّصوص التي اعتمدها تورّ محرّفة، وأنّ ما يرمز إليه القديس في ترانيمه ليس هو الحدور العين الموجود في القرآن⁽²⁾.

بمقابل أولئك المؤيدين لطروحات لوجسنبيرغ (لولنج، وفولرس، وتور...)، يوجد منتقدون كثر له، منهم: الباحث جيرالد هاوتنغ (Gerald Hawting b. 1944)، الذي وصف رأي لوجسنبيرغ برأي غير منصف (arbitrary)، ومن منتقديه أيضًا الباحث جون وانسبرغ (John Wansbrough 2002–1928)⁽³⁾ الذي رفض طروحات لوجسنبيرغ وطروحات غيره من المستشرقين أمثال: نولدكه وبرجستراسر؛ حيث ذهب إلى أنّ العربية المعيارية إنّما تطوّرت على أيدي اللّغويين والتّحاة في القرن الثاني متزامنًا مع نسخ القرآن، وعليه ردّ مزاعم نولدكه عن «الأخطاء» في القرآن؛ لأنّ نسخ القرآن قد سبق وضع تلك القواعد، فلم تكن ثمة قواعد يمكن أن نزع أن القرآن كان عليه أن يتبعها وأنه قد خرقها. كذلك، أكّد وانسبرغ أنّه طالما قد تزامن نسخ القرآن ظهور اللّغة المعيارية أو الشّعريّة عند العرب، أو -بالأحرى- سبق نسخ القرآن وضع القواعد النّحويّة العربيّة، فلا سبيل للقول إنّ القرآن قد حوّر؛ ليوافق تلك اللّغة الجديدة⁽⁴⁾.

لكنّ وانسبرغ نفسه قد حاد عن الصّواب بإنكاره وجود قرآن تاريخي،

(1) T. Andrae. Les Origines de l'Islam et le Christianisme (trans), J. R. Oche, (Paris: Adrien-Maisonneuve, 1955), 146.

(2) Reynolds et Al. Op. Cit., 112.

(3) Quranic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation : هو صاحب كتاب (Oxford: Oxford University Press, 1977).

(4) Reynolds et Al. Op. Cit., 13.

وإسلام ظهر بمكة، فكل ذلك عنده «أساطير أموية، أو أن الروايات الإسلامية شبيهة بما يُعرف في دراسات الكتاب المقدس بـ «تاريخ النجاة» (salvation history)»، أي أنها قصص وضعت في وقت متأخر؛ لأغراض دينية ثم زعم واضعوها أنها تنتمي إلى وقت سابق. بل أرجع أصل الإسلام والقرآن إلى الكتابات التاريخية والمرويات الشعبية، والقصص والأشعار والنصوص القانونية والنحوية المكتوبة تحت الحكم العباسي، معترفاً أن معظم تلك الكتابات والنصوص هي ذات أصول قديمة بين العرب، وأن محمداً ﷺ نفسه قد شارك في وضع بعض تلك النصوص. فالقرآن في زعمه لم يكتمل تماماً إلا بعد قرن ونصف من وفاة النبي ﷺ. لكن آراء وانسبرغ قد ردّها كثير من الباحثين الغربيين، بوصفه يخلط بين ظروف تدوين الكتاب المقدس وبينها في الإسلام⁽¹⁾.

ولعل الرد على جميع أولئك وارد عند الباحث المعاصر سيدني غريفيث (Sidney Griffith)، الذي أتى بأدلة جديدة بأن الكتاب المقدس لم يكن مترجماً بالكامل إلى العربية قبل الإسلام، وأنه لا دليل -إذن- في أن القرآن قد أخذ من مصادر مسيحية، وأن ما زعمه لوجسنبرغ من أصل هجين للقرآن (aramäisch-arabische mischsprache)، لا أساس له من الصحة⁽²⁾.

إجمالاً، فإن طروحات لوجسنبرغ قد رُفضت جملة وتفصيلاً من لدن باحثين كثر، منهم بالإضافة إلى من سبق ذكره: كلود جيلوت (Claude Gilliot)، وفرنسوا دوبلوا (François de Blois)، وسيمون هوبكينز (Simon Hopkins)، وقد أطلق عليه الأخير أوصافاً ساخرة عدّة، ووصفه بأنه صاحب منهجية «متهورة... مضطربة... وفقه لغوي مضلل» (reckless methodology.. Exegetical capricious. Wayward philology)⁽³⁾. وآية ذلك أن لوجسنبرغ نفسه لم يفلح في دعم هذا الزعم بأية شواهد تاريخية أو اجتماعية لغوية

(1) Ibid.

(2) Reynolds et Al. Op. Cit., 16.

(3) See: Reynolds et Al. Op. Cit., 227.

بين الآرامية والعربية: تُرى من هم أولئك المكيُّون المسلمون قبل الإسلام الذين زعم لوجسنبيرغ أنَّهم استعملوا القرآن؟ ولماذا انقرضت تلك الكتابة الهجينة انقرضاً كاملاً؟

رابعاً: باتريشيا كرون وميكائيل كوك

وردت آراء ب. كرون وم. كوك الباحثين عن أصل القرآن في كتابهما (The Making of the Islamic World : Hagarism)،⁽¹⁾ وقد أطلقا هذا الاسم «الهاجرية: نشأة العالم الإسلامي» على الإسلام، إشارةً منهما إلى «هاجر» أم إسماعيل وزوجة إبراهيم عليه السلام، وكون النبي صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل. وعليه، زعما أنَّ مصطلح «إسلام، مسلمون» لم يكن شائعاً في أول الإسلام، وأنَّ الإسلام شكلٌ مستحدثٌ من اليهودية، وأنَّ القرآن قد بدأ جمعه وتدوينه في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، في حدود (85هـ/ 705م)⁽²⁾.

هذا، وقد وُجِّهَتْ هذه الآراء بانتقاداتٍ عدَّة من لدن الباحثين المستشرقين أنفسهم، أمثال ستيفن هومبريس (Stephen Humphreys) الذي اتَّهم الباحثين بسوء استغلال النصوص الإغريقية والسريانية التي رجعا إليها،⁽³⁾ ووصف باحثون آخرون كتاباتهما بلهجةٍ شديدة العداء للإسلام وللعرب⁽⁴⁾.

خامساً: ريتشارد بيل وويليام مونتغمري

يُعدُّ المستشرقان ر. بيل ومونتغمري من أقطاب الفكر الاستشراقي حول القرآن وعلومه في العصر الحديث. وردت أفكارهما في الكتاب الذي وضعه بيل: «مدخل إلى القرآن»، وحرَّره بعده صاحبه مونتغمري، وقد بثَّ فيه بيلُ

(1) P. Crone and M. Cook, Hagarism: The Making of the Islamic World, Cambridge: Cambridge University Press, 1977.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) Abdullah, Saeed. The Quran: An Introduction, (New York & London: Routledge, 2012), 111.

آراءه عن تاريخية القرآن، وعن شخصية النبي ﷺ. لكن أهم أعمال بيل هو كتابه الشهير «The Quran Translated with a Critical rearrangement of the Surahs»، ويكون بيل من قساوسة الكنيسة الإسكتلندية، فإنه قد كرّس جهوده لاستكشاف علاقات محتملة بين الإسلام وبين المسيحية، وعن آثار الكتب المسيحية في «تأليف» القرآن. أما إعادة ترتيبه للسور، فلم تكن جديدة كل الجدة، وإنما هو متبع فيها لمستشرقين آخرين أمثال: غوستاف فلوجل (Gustav Fugel 1870-1802)، ونولدكه. ومن أهم مواقفهم عن القرآن قوله إنه من وضع محمد، وإنه إنما أراد من «تأليف» القرآن تقديم نموذج روحي شبيه بما عند أصحاب الأديان التوحيدية الأخرى⁽¹⁾.

بالإضافة إلى إعادة ترتيب السور، فإن بيل قد عمد إلى إعادة ترتيب بعض الآيات، وإعادة صياغتها إما بحذف أجزاء منها، وإما بإقحام أجزاء إلى مواضع أخرى أو غير ذلك من صور «التصحیح» للآيات. من أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: 57، 58). يرى بيل بأن الانتقال من ذكر السحب والأمطار إلى البعث، انتقال غير منطقي، ويزعم أن الإشارة إلى البعث مقحمة على الآية، واستدل بأن العدول من ضمير الغياب (هو) إلى ضمير المتكلم الجمع (نحن)، هو علامة على هذا الإقحام. عليه، ذهب بيل إلى «تصحیح» الآية بحذف الجزء الأخير منها حتى «تستقيم» في زعمه. وتصبح الآية بعد تصحيح بيل: «هو الذي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا... يَخْرِجُ نَبَاتُ الْأَرْضِ الطَّيِّبِ بِإِذْنِ رَبِّهِ» فهذا

(1) Ibid.

الحذف يجعل من الآية في رأي بيل «جملة منطقية جداً» (perfectly intelligible statement)⁽¹⁾.

ومن منتقدي بيل: الباحث أندرو ريبين (Andrew Rippin 1950b)، الذي قال عن ترجمة بيل لمعاني القرآن بأن.. «مجرد قراءتها صعبٌ للغاية»؛ لأنَّ بيل قد أخفق في بثِّ روح النصِّ بطريقة مباشرة. أما صاحبه مونتغمري الذي يوصف بـ «آخر المستشرقين»، فقد ابتعد عنه بإيمانه بأنَّ القرآن رسالة إلهية جاءت من عند الله، ورفضه مقارنة القرآن بالكتاب المقدس؛ لأنَّ القرآن قد نزل في أقلَّ من خمس وعشرين سنة، بينما كان العهد بين موسى وبولس حوالي (300، 1) سنة. ولكنه كان يعتقد أنَّ القرآن إنما نزل لفترة زمنية محدَّدة، وليئة معينة⁽²⁾.

سادساً: جيرد بوين

يُنسب إلى جيرد بوين القول بأنَّ القرآن أو أجزاء منه يُحتمل أن تكون أقدم من ظهور الإسلام بمئات السنين «may even be a hundred years older than Islam itself!» وأنه بنى موقفه ذلك على المخطوطات القرآنية التي قيل إنها قد اكتُشفت في اليمن (عام 1970م).

أمَّا قصَّة هذه المخطوطات، فقد عُثر عليها في الدور العلوي للمسجد الجامع بصنعاء، ويرجع تاريخها إلى الربع الأخير من القرن الأول الهجري، وقد عمل بوين وزميل له على ترميم هذه المخطوطات وصيانتها بدعوة من القاضي إسماعيل الأكوع ضمن اتفاقية مع وزارة الشؤون الخارجية الألمانية. في عام (1987م)، كتب بوين مقالة ضمَّنَها وصفًا وملحوظاتٍ عن تلك المخطوطات، منها⁽³⁾:

(1) Oliver, Leaman. Encyclopedia of the Qur'an, 370, in: Bell, R. The Beginnings of Muhammad's Religious Activity, in A. Rippen (ed), The Qur'an: Style & Contents (Aldershot: Ashgate, 2001), Vol. 24, 259-284.

(2) Ibid.

(3) Gerd, R. Puin. Observation on Early Qur'an Manuscripts in San'a, in: Stefan Wilde (ed), The Qur'an as Text, E.J. Brill, Leiden, 1996, 107-111.

(1) أن الألف غير مرسومة بطريقة صحيحة في بعض المواضع؛ إذ رسمت همزة.

(2) اختلافات في إحصاء عدد الآيات بالنسبة إلى بعض السور.

(3) اختلافات في ترتيب السور في ورقتين أو ثلاث.

لكن المستشرق توبي ليستر، لقّف كلام بوين ونشر مقالاً بمجلة «أتلانتيك»⁽¹⁾، زعم فيه أن بوين يذهب إلى القول بأن القرآن ليس منزلاً على محمد، وإنما تطوّر عبر زمنٍ طويل، وأنّ خمس نصوصه غير مفهومة؛ مما يدلّ على أن القرآن «تاريخاً آخر» غير المنقول إليها. وأنّ المسؤولين اليمينيين يتسترون على تلك المخطوطات خوف إحداث بلبلة في العالم الإسلامي... وقد ردّ بوين على هذه المزاعم بخطاب نفى فيه ما نسبته إليه ليستر.. قال: «إنّ هذه الحملة الصحفية ليس لها أساس فيما نشرته المجلة الأمريكية، وليس لها أساس فيما يخصّ المخطوطات الصنعانية، ولا أساس لها بالنسبة للبحوث القرآنية التي نقوم بها أنا وزميلي الدكتور جراف فون بوتمر... أتأسف جداً لهذه الحملة التي تهدف إلى الإضرار بالتعاون العلمي بين اليمن وألمانيا»⁽²⁾.

على كلّ، فإنّ بوين - وإنّ حرص على تبرئة نفسه - فإنّ جزءاً من مزاعم ليستر المنسوبة إليه فيه شيء من الصّحة، وقد كان بوين قد صرّح في مقالته تلك عن القرآن، بقوله: «إنّ القرآن ليس بواضح - مع ادّعائه أنّه مبين - وإنّ وجود هذه الاختلافات يشير إلى أنّ السور القرآنية لم تكتب في شكلها النهائي أثناء حياة محمد ﷺ وأنه من المحتمل أنّ قرآنا ذا ترتيب مختلف للسور كان متداولاً لزمنٍ طويل...»⁽³⁾.

سابعاً: جيمس أ. بيلامي

يمثل بيلامي قطباً في الفريق الآخر الذي يدّعي أن القرآن قد تطوّر عبر

(1) Lester, Toby. What is Quran?, The Atlantic Monthly, Jan, 1999, 43-56.

(2) Dated on: 14/02/1999, The Impact International, (30), March 2000, 27.

(3) مزاعم المستشرقين حول القرآن الكريم، ص 301-307.

القرنين الهجريين الأولين؛ لذلك حمّل بيلامي النسخ والقراء بعد عصر النبي ﷺ المسؤولية المباشرة لما يُسمّى بأخطاء القرآن. وقد انصبّت جهود بيلامي في «أخطاء النقل» أو الأخطاء الإملائية التي يرى أنها قد أحدثت غموضاً في التعبير القرآني، وإشكالات في تفسيره. وقد سرد بيلامي الآثار الواردة عن الخليفة عثمان وغيره في رسم القرآن، وذكر أن علياً من الصحابة الذين اعترضوا على أخطاء في نسخ المصحف، وأورد آية الواقعة في قوله تعالى: ﴿وَطَلَّحَ مَنْضُورٌ﴾ (الواقعة: 29)، كما استشهد بآية (148) من سورة الشعراء، وأن علياً صحح آية الواقعة بقوله «وطلّح»، وزاد قوله: «على الرغم من أن قدماء المفسرين لم يغيروا في نص القرآن، فإنه ما من شك في أنهم كانوا يعترفون بأنه يتضمّن أخطاء»⁽¹⁾.

ترجم بيلامي موقفه هذا بنشر سلسلة من المقالات طبّق فيها بيلامي رؤيته أولاً على فواتح السور، فذهب إلى أنها اختصارات للبسملة في أوائل السور وضعها أصحاب المصاحف الأوائل من أصحاب رسول الله ﷺ، غير أن النسخ توهّموا في معظم المواضع؛ فأبدلوا تلك الأحرف المختصرة بالأحرف المقطّعة الحالية. كذلك اختار بيلامي أحد عشر موضعاً في القرآن رآها أهمّ المواضع التي شكّلت تحدياً حقيقياً للمفسرين من المسلمين والمترجمين المستشرقين على السواء، وأرجع سبب إخفاق المفسرين في ترجمة تلك المواضع إلى خطأ في الإملاء على أيدي كتّبة القرآن، وسعيًا لتصحيح تلك المواضع الأحد عشر، ذكر أن مهمته تكمن في عزل تلك الأخطاء، ثم «تصحيحها وإعادة تشكيلها على أصولها المترجحة عنده؛ لتكون أقرب إلى شكلها الأوّل، ويعني ذلك بالطبع، الشكل الذي كانت عليه الكلمة أو الجملة حين نطق بها النبي محمد»⁽²⁾. ويعود سبب تحميل بيلامي القراء والنسخ أخطاء القرآن في رأيه إلى خلوّ المصحف العثماني من النقط والإعجام،

(1) Bellamy, "Some proposed emendations to the text of the Koran", Journal of the American Oriental Society, Vol.113, No.4, Oct-Dec.,1993, 562-573

(2) Ibid.

وضعف الرواية الشَّفَوِيَّة في التَّلَقِّي عن النَّبِيِّ ﷺ ؛ إذ لم تصمد الرواية في وجه إشكالات الكتابة غير المعجمة، ولأجل ذلك سقط القراء في أخطاء في المفردات وفي التعبيرات.

أمَّا المواضع الأحد عشر التي تناولها بيلامي بالبحث والتَّصحيح، فهي:

1 - كلمة «حَصَب» في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (الأنبياء: 98)، والأصح عنده «حطب»، فالنَّاسخ -في رأيه- قد نسي وضع الخط العمودي فوق الحرف فأبدل «الطاء» صاءً، ولا تحمل هذه الكلمة عنده معنى «الوقود» أو «قطع الخشب» كما ذهب إليه اللُّغَوِيُّونَ، وإنَّما يصرُّ على أنَّ هذه الكلمة لها معنى واحد هو «الحصاة»، وأنَّ ذلك لا يناسب السِّياق في الآية.

2 - كلمة «أُمَّة» في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ آخَرًا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ (هود: 8)، وصحَّحها إلى «أمد»، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (يوسف: 45) صحَّحها إلى «أمد». يرفض بيلامي تفسير كلمة «أُمَّة» بالزَّمن، وزعم أنَّ النَّاسخ قد أخطأ في النَّظَر؛ فظنَّ الدال تاءً، فلما أبدل «أمد» المذكر بـ «أُمَّة» المؤنث، أنث الصِّفة «معدودات»؛ لتوافق الاسم المؤنث، وقد فعل ذلك إمَّا بوعي منه، أم بسليقته اللُّغَوِيَّة العَفَوِيَّة.

3 - كلمة «أَبَا» في قوله تعالى: ﴿وَفَكَهْمَهُ وَأَبَا﴾ (عبس: 31)، يرى أنَّ الكلمة الصَّحيحة هي «لُبَّا» وأنَّ اللَّام قد صُحِّفَت ألفاً على أيدي النَّسَّاح، ويستند إلى رفضه كلمة «أب» في هذه الآية بما روي أنَّ أبا بكر الصديق قد استغلق عليه معنى هذه الكلمة؛ فأمسك عن تفسيرها، وعليه يذهب بيلامي إلى أنَّ كلمة «أَبَا» إنَّما هي مصحَّفة هنا وأنَّ أصلها «لُبَّا».

4 - كلمة «السَّجَل» في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّكَّاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ (الأنبياء: 104)، وهي عنده باسم الفاعل (المسَّجَل)، خلافاً لنولده وغيره ممن زعم أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد أخطأ في هذا الموضع؛ فأطلق اسم الكتاب على اسم الفاعل.

5 - كلمة «حِطَّة» في قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ (البقرة: 58)، ومثله في سورة (الأعراف: 161)، وهو عند بيلامي «خِطَاة» والتقدير: خَطِئْنَا خِطَاةً.

6 - كلمة «إليك» في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ (البقرة: 260)، صَوَّبَهَا إِلَى: «فَجَزَّهْنِ وَالْبُكُّ»؛ بزعمه أَنَّ الواو قد سقطت.

7 - كلمة «المثاني»: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: 87)، وفي (الزمر: 23)، صَحَّحَهَا إِلَى «المتالي» اسم مفعول من المثلَّو، وزعم أَنَّ الناسخ قد أخطأ بإبدال اللام نونًا. والحاصل عنده: «شَيْئًا مِّنَ الْمَتَالِي».

8 - كلمة «أمنية» في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ (الحج: 52)، عنده «إِذَا إِذَا يُمْلِي أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي إِمْلَائِهِ».

9 - كلمة «أماني» في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة: 78)، زعم أَنَّهَا «أَمَالِي».

10 - كلمة «صبغة» في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (البقرة: 138)، يرى بيلامي أَنَّ «صبغة» ينبغي أن تُغَيَّرَ إِلَى «صَنِيعَةِ اللَّهِ» أو «كِفْيَةِ اللَّهِ» بدون ألف. وزعم أَنَّ الحرف قد التَّبَسَّ عَلَى النَّاسِخ.

11 - كلمة «أعراف» في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ (الأعراف: 46)، رأى بيلامي أَنَّهَا «أَجْرَاف» جمعًا لِلْجُرْف، أو: «أَجْرُف» جمعًا لِلْجُرْف، معنيًا به المكان العالي.

هذا، وقد بلغ مجموع «تصحیحات» بيلامي لمواضع في القرآن في مقالاته المنشورة بين عام (1973 وعام 2002م)، تسعة وعشرين موضعًا، شمل رسم المصحف، وإعرابه، وبعض المفردات التي يؤكِّد أَنَّهُ قد وقع فيها تصحيفٌ من لَدُنِ النَّسَاح. كما شمل وقفات مسهبة عند الأحرف المقطعة في أوائل السُّور.

ومن أكبر المنتقدين لبيلامي في هذا المجال الباحث ألفورد ويلش (Alford Welch)، الذي صرّح بأنّ تحليلات بيلامي تستدعي الكثير من الافتراضات الضعيفة والتّحوير في النصّ القرآنيّ مع أنّها لا تُقدّم تفسيراً للحروف المقطّعات في سياق الآية التي وردت فيها⁽¹⁾.

من أمثلة تلك الافتراضات البعيدة عند بيلامي ما أورده في تحليله لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُؤْفِقَنَّهِنَّ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (هود: 111)، فقد ذهب بيلامي إلى أنّ «لَمَّا» ههنا قد زيدت خطأ من قبل النّاسخ، وينبغي حذفها من المصحف، وافترض بيلامي أنّ النّاسخ عندما فرغ من كتابة «وَإِنْ كُلًّا»، رفع نظره عن الكتاب، وعندما أعاد النّظر إليه؛ ليُكمل كتابة الآية، وقع بصره على الآية السّابقة (رقم 103)، وفيها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوفُّوهُمْ﴾؛ فبدأ -خطأ- يكتب مرّة أخرى كلمة «لَمُوفُّوهُمْ»؛ فكتب «لما» ولكنه سرعان ما انتبه واستدرك خطأه؛ فوضع خطاً عمودياً على الميم (لما) دلالة على إلغائها، ثم تابع كتابة قوله «لَيُؤْفِقَنَّهِنَّ»، وقد جاء النّسخ بعده، وكذلك القراء؛ فتوهّموا أنّ «لما» المحذوفة ثابتة. فها هنا عدّة افتراضات كلّها واهية بعيدة غير مقبولة لا عقلاً ولا واقعاً، من ذلك افتراض كون النّاسخ الأوّل جاهلاً مطلقاً بقراءة القرآن الكريم وروايته، وافترض كون نسخته تلك نسخة يتيمة من المصحف لم توجد بإزائها نسخة أو نسخ أخرى؛ ليقابل اللاحقون بينها وبين النّسخة الحاملة للخطأ في هذا الموضع بحسب زعم بيلامي. كذلك، يستلزم قبول مزاعم بيلامي افتراض عدم خضوع النّسخة «حاملة الخطأ» لمراجعة من لدن أحد من النّاس؛ مما أتاح لهذا الخطأ في زعمه ولأمثاله الانتشار في المصاحف اللاحقة. ولا حاجة إلى تذكير بيلامي أنّ العماد الأوّل في نسخ المصحف كان على الحفظ لا على مجرد النّقل الآليّ من المكتوب، وتلك محلّ إجماع⁽²⁾.

هذا، ويبقى سؤال سكت بيلامي عن إثارته، ناهيك عن محاولة الإجابة عنه:

(1) Reynolds et Al. The Quran and its Historical Context, Op. Cit., 233.

(2) الضباع، علي محمد. سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين، (مصر: المكتبة الأزهرية للتراث)، ص 15.

تُرى.. متى كان هذا النسخُ المزعوم؟ ومتى وُجدَ ناسخُه؟ ألم يكن هناك نساخ آخرون أكثر ضبطًا من هذا الذي كثر منه الخطأ؟ ولماذا تركوا النسخة الأصل الصحيحة - كما يريد بيلامي - واعتمدوا قاطبةً نسخة صاحبهم غير الضابط؟

ثامنًا: يقيم ريزفان

من المستشرقين الروس الذين خاضوا في مسألة اتِّهام القرآن بوجود أخطاء لغويّة فيه، المستشرق يقيم ريزفان (Efim Rezvan، 1957 b)؛ حيث أكّد احتواء القرآن أخطاء لغويّة، وأرجع مسؤوليّة تلك الأخطاء إلى النبي ﷺ نفسه، لا إلى النساخ أو القراء كما ذهب إليه غيره، وقد فسّر مذهبه ذلك في تحميل النبي ﷺ ما في القرآن من أخطاء في زعمه إلى سببين: (أ) طول مدّة نزول القرآن الكريم، (ب) ما كان يعتري النبي ﷺ في فترات متفاوتة حال نزول القرآن الكريم من توتّر في الأعصاب، وتبدّل في المزاج. فعن السبب الأوّل يقول: «إنّ أصالة لغته - أي القرآن - وعدم تجانس صيغته وأسلوبه، جاءت نتيجة طول مدّة تأليف القرآن، كذلك تنوع مضمونه، إنّما (هو) نتيجة بحث محمد عن وسائل دقيقة للتعبير عن الأفكار والحقائق الاجتماعيّة التي اكتسبت معانيها خلال نشاطه النبوي»⁽¹⁾. أمّا عن السبب الآخر وأنّ التوتّر النفسي للنبي ﷺ قد أثر في المستوى التعبيري للقرآن، فقد صرّح بذلك في قوله: «ولعلّ إيقاع وتركيب كثير من الوحي، وظهور الخلل والأخطاء اللغويّة والنحويّة في تنسيق الكلام، وظهور علامات عدم استقرار عمليّة الاتصال النطقي، كلّها تتعلق بتوتّر أعصاب النبي ﷺ، وانفعالاته حال قبول الوحي وإلقاء المواعظ. وفيما بعدُ أنتجت هذه الخصائص النحويّة للقرآن تفاسير معقّدة للغاية من قبل العلماء العرب والمسلمين في القرون الوسطى، كما أنتجت مجموعة من النظريّات المتعلقة بلغة القرآن»⁽²⁾.

ولا شكّ أنّ المغالطة هنا فيما ذهب إليه ريزفان واضحة، فلو ثبت الزعم

(1) ريزفان، القرآن وعالمه، ص 39. نقلاً عن: د. إلمير رفائيل كوليف، "كتاب القرآن وعالمه للمستشرق الروسي يقيم ريزفان ومزاعمه حول كتاب الله"، ص 59-60.

(2) ريزفان، المرجع السابق.

الأول أن طول العهد النبوي قد أثر في أسلوب القرآن الكريم؛ لكان القرآن المكي أقل من القرآن المدني في البلاغة والبيان، وهو أمر تفنّده نصوص القرآن الكريم قاطبة. أمّا الزعم الآخر الذي يفترض تأثير الأسلوب القرآني بتغير مزاج النبي ﷺ، فإنه زعم لا يثبت؛ لأن النبي ﷺ كان في سعة من أمره ليراجع نفسه بعد هدوء أعصابه، واستعادته طبيعته النفسانية المعتادة.

كذلك، فإنّ هذا الزعم يغفل صور الوحي إلى الأنبياء وإلى نبينا (عليهم أفضل الصلاة والتسليم)، من رؤيا صادقة، ووحي بواسطة الملك الأمين جبريل، وكان يأتيه جبريل على أشكالٍ عدّة: أن يتمثل له في صورته التي خلقه الله عليها، وقد حدث ذلك مرتين لا غير، أو أن يأتيه على صورة إنسان فيراه رأي العين يحدثه كما يحدث الجليس جليسه، وأشهر موقف في ذلك حديث جبريل، أو أن يتمثل له في النوم على صورة شخص لا يعرفه؛ فيبلغه الوحي⁽¹⁾. فمعظم هذه الصور من صور الوحي لا يتصور أن يصاحبها تأثير نفسي ملحوظ على المتلقي ولا تغير في مزاجه.

ثم إن ما يزعمه ريزفان وأمثاله من المستشرقين من توثر نفسي للنبي ﷺ، أو نوبات صرع حال تلقيه الوحي، أو هوس وأوهام أو غير ذلك، إنّما هي مزاعم مبنية على تصوّرات خاطئة، لعلمهم بنوها على ما روي في الآثار من أمارات خارجية على النبي ﷺ أثناء تلقيه الوحي في بعض الأحيان، فقد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قولها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإنّ جبينه ليتفصد عرقاً»،⁽²⁾ وفي حديث آخر قوله ﷺ لسائله عبد الله بن عمرو: «نعم. أسمع صلاصلاً ثم أثبت عند ذلك، وما من مرة يوحى إليّ إلّا ظننت أن نفسي تفيض مني»⁽³⁾. فهذه الآثار لا يفهم منها البتة دلالتها على نوبات صرع أو غير ذلك.

(1) الأعرجي، ستار جبر. الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2001م)، ص 141-151.

(2) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، (ح: 2)؛ صحيح مسلم: كتاب الفضائل، (ح: 2333).

(3) مسند أحمد، (ح: 7072)، رواه أحمد والطبراني، وإسناده حسن.

هذا، وقد انبرى بعض المستشرقين لتفنيد هذه المزاعم بينوا منافاتها للعقل والتفكير السليم. ويكفي هنا نقل اعتراض للمستشرق الإنجليزي وليم ميور، يقول فيه: «وتصوير ما كان يبدو على محمد في ساعات الوحي على هذا النحو الخاطئ، من الناحية العلمية خطأ كبير. فنوبة الصرع لا تترك على من تُصيبه أي ذكر لما مرَّ به أثناءها. بل يُصاب بالنسيان خلال هذه المدة من حياته بعد أن يفقد نسياناً تاماً، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حلَّ به خلالها؛ لأنَّ حركة الشعور والتفكير تتعطل عنده تمام العطل. وهذه أعراض كما أثبتها العلم، ولم يكن ذلك ما يصيب النبي العربيَّ أثناء الوحي. بل كانت تتنبه حواسه المدركة في تلك الأثناء تنبهاً لا عهد للناس به، يذكر بدقة كلَّ ما يتلقاه بعد ذلك على أصحابه. ثم إنَّ نزول الوحي لم يك مقترباً دوماً بالغيوبة الحسية مع وجود الإدراك الروحي. بل كثيراً ما يحدث الوحي والنبي في تمام يقظته العادية»⁽¹⁾.

تاسعاً: جاك بيرك

من أحدث المواقف في الزعم بوجود أخطاء لغوية في القرآن، موقف المستشرق الفرنسي جاك بيرك (Jacques Berque) في ترجمته لمعاني القرآن الكريم، ودراسته لبعض أساليبه،⁽²⁾ إذ ذهب إلى أنَّ الأسلوب القرآني يحوي «تفرُّداً نحويّاً» خاصّاً، (Singularités grammaticales)، ويعني بذلك صراحةً أنَّ بالقرآن أساليب خاطئة منحرفة عن القواعد اللغوية المعيارية، وساق لذلك أمثلة كثيرة من الآيات، من ذلك المواضع الآتية:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ (النحل: 67)، ذهب بيرك إلى أنَّ الضمير في «منه» المذكور، حقُّه التأنيث.

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ (الكهف: 25). يعترض بيرك على جمع «سنين» في الآية السابقة، ويقول: «وهذا تركيب شاذٌّ لدرجة

(1) وليم ميور، The Life of Mohammad, 14-29 نقلاً عن: الغزالي، مشتاق بشير. القرآن الكريم في دراسات المستشرقين: (بيروت: دار النفائس، 1429هـ/2008م)، ص 54.

(2) Jacque Berques, En relisant le Coran, (Paris: Editions Albin Michel, 1995).

أن صياغة أبيّ صحّحته بـ «سنة» التي لم يحتفظ بها النص رغم ذلك»⁽¹⁾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ (النمل: 91)، يرى بيرك أن اسم الموصول (الذي) حقّه التأنيث، ولم يدر أنه عائدٌ على ربّ البلدة، وليس على البلدة. والمعنى: أنّ الربّ هو الذي جعل البلدة بلدةً محرّمة، فهو أحقُّ بالعبادة.

قوله تعالى: ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (فاطر: 33)، زعم بيرك أن في قوله «لؤلؤًا» المنسوب خطأً لغويًا، والصّواب عنده أن تكون بالجرّ، ولعلّ بيرك ما درى أنّها معطوفة على محل الجار والمجرور (المفعول)، وليست معطوفة على الجار والمجرور نفسه.

والظاهر أنّ ادّعاءات بيرك حول الأسلوب القرآني ليست بجديدة، غير أنّه قد أتى بالجديد في اعتراضه على مواضع جليّة، ينبئ اعتراضه عليها عن قلة باعه في اللغة العربيّة وعن ضعف تذوّقه لأساليبها؛ لذلك فإنّ الباحثين قد وقفوا عند مناقشة مدى فهم بيرك لأساسيّات العربيّة ومفرداتها، ونقلوا طائفةً من ترجماته البعيدة عن أصل الذّوق اللّغويّ لأساليب القرآن ومفرداته، ومن تلك المواضع، مثلاً:

● ترجمته (أمّ الكتاب) إلى الفرنسيّة بـ (la génératrice du Coran)، أي: «مولدة/والدة الكتاب»؛ ترجمةً حرفيّة تدلّ على أنّه لم يدرك معنى الأصليّة الكامنة في «أمّ»، وإنّما فهم منها معناها الحرفي.

● منها أيضًا ترجمته «الجاثية» في السّورة التي تحمل هذا الاسم إلى «assis sur les talons»، أي: «التي تجلس على عقبيها»، وتلك ترجمة قاصرة لا تستحضر معنى الخشوع والتّذلّل⁽²⁾.

(1) البيومي، محمد رجب. إعادة قراءة القرآن: محمد رجب يرد على جاك بيرك، (القاهرة: دار الهلال، د.ت)، ص 70-75. مع الاعتراف بأننا لم نطلع على ترجمة معاني القرآن الكريم لبيرك، وكل نقلٍ هنا إنّما هو من خلال أقوال الدكتور البيومي وعلى ذمته.

(2) بوشعيب راغين. الإحداثيات المبتدعة في قراءة جاك بيرك الاستشراقية للقرآن الكريم، ص 26-27.

- أيضاً، ترجم قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: 102)، بقوله: «Peut-être Dieu se repentira-t-Il en leur faveur».

أي: عسى أن يندم الله لصالحهم⁽¹⁾.

ومفرداتٍ وأساليبٍ أخرى أساء ترجمتها إساءة فاحشة. وسواءً أكان ذلك عمداً أم جهلاً، فإنها تدلُّ على إشكالٍ حقيقيٍّ عن بيرك، وضعف في قدرته اللغوية بالعربية. كما دلت بذلك بعض المواضع التي ظنَّها انحرافاتٍ لغوية في القرآن، وهي بعيدة عن ذلك، جليَّة الصُّحة والانسجام لمن لديه أدنى علم ومعرفة بالعربية.

عاشراً: محمد الجزولي

أمَّا محمد الجزولي، فيزعم أن القرآن (full of mistakes) «مليءٌ بالأخطاء». بل إنَّه ينزل دون مستوى المعلقات الجاهلية التي خلت من أيِّ خطأ نحويٍّ⁽²⁾. وساق الجزولي مثل غيره آياتٍ، وكرَّر ما سبقه إليه المستشرقون من مواضع زعموها خاطئة في القرآن الكريم^(*). وتدور مأخذه على تلك المواضع بالزَّعم بأنَّها تخرق قواعد المطابقة في الجنس والعدد، أو المسند والمسند إليه. وممَّا ساقه من الآيات، المواضع الآتية⁽³⁾:

- كتب (في القرآن): ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ (الأعراف: 160)، وكان ينبغي أن يكتب: «وقطعناهم اثني عشر سبطاً»⁽⁴⁾.
- كتب: ﴿فَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ (التوبة: 69)، وكان ينبغي أن يكتب: «وخضتم كالذين خاضوا».
- كتب: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ (الحج: 19)، وكان ينبغي أن يكتب: «هذان خصمان اختصما في ربهما».

بوشعيب راغين. الإحداثيات المبتدعة، ص 8. Berque, en Relisant le Coran, 21. In:

(2) Mohammad al-Ghazoli, David Daniels (ed), Christ, Muhammad and I, (Chick Publications, 2007), 118.

(*) من تلك المواضع: الأعراف: 160؛ التوبة: 69؛ الحج: 69؛ طه: 63؛ المائدة: 69؛ البقرة: 124؛ الأعراف: 56؛ المنافقون: 63.

(3) Mohammad al Ghazoli, Op. Cit. 117-119.

(4) التسطير تحت الآيات من عند الجزولي.

- كتب: ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾ (طه: 63)، وكان ينبغي أن يكتب: «إن هذين لساحران».
 - كتب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة: 62)، وكان ينبغي أن يقول: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون».
 - كتب: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 124)، وكان ينبغي أن يقول: «لا ينال عهدي الظالمون». ويصف هذا بـ «خطأ نحوي فاحش» (a huge grammatical mistake).
 - كتب: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: 56)، وكان ينبغي أن يقول: «إن رحمة الله قريبة».
 - كتب: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون: 10)، وكان ينبغي أن يقول: «ربي لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكون من الصالحين».
- ومن أحدث الدراسات في هذا الصدد، مقال منشور لرفيق الحق، ونيوتون (Rafiqul Haq and P. Newton، 1996)،⁽¹⁾ وهي دراسة لم تخرج عن نطاق ما سبقها من دراسات. بل هي اجترار وتكرار للأمثلة الواردة عند السابقين من المستشرقين، سرداً فيها مجموعة من الآيات التي زعموا أن فيها خرقاً للقواعد النحوية العربية بلغت ثلاثة عشر موضعاً^(*).
- بعد إيراد تلك المواضع، وبيان ما فيها من «خروقات» نحوية وبيان الاستعمال الصحيح فيها في زعمهما، ختم الكاتبان باقتباس فقرة الكاتب علي دشتي الذي تهجم على القرآن واستخرج منه أكثر من مائة «خطأ نحوي ولغوي» في القرآن. يقول دشتي: «إن كثيراً من المسلمين يُدركون مدى التنافر والخلل

(1) M. Rafiqul-Haqq and P. Newton, The Qur'an: Grammatical Errors, 1996. <http://answering-islam.org/Authors/Newton/grammar.html>, accessed on: 22/08/2013.

(*) تلك المواضع كما وردت في المقال، هي: (المائدة: 69؛ النساء: 162؛ طه: 63؛ البقرة: 177؛ آل عمران: 59؛ الأنبياء: 3؛ الحج: 19؛ الحجرات: 9؛ المنافقون: 10؛ الشمس: 5؛ فصلت: 11؛ الأعراف: 56؛ 170).

في كتابهم المقدّس، ولكنّهم لا يجرؤون على الإفصاح عنها مخافة التعرّض للاضطهاد والعقاب بتهمة التّجني على حرمة الكتاب المقدّس»⁽¹⁾. بعد ذلك يقول رفيق الحق ونيوتن: «بوجود هذه الأخطاء في القرآن، أمِنَ الإمكان أن يُعتَبَر عملاً إنسانياً فنياً فريداً. ناهيك عن اعتباره معجزة إلهية؟»⁽²⁾.

وقد نبّه بعض الباحثين إلى أنّ مردّ ادّعاءات نيوتن وأمثاله من المستشرقين إلى النّزعة الإسقاطيّة لقواعد لغاتهم وأنظمتها وخصائصها على اللّغة العربيّة؛ فاللّغة العربيّة يكثر فيها الحذف والتّقديم والتّأخير، ممّا يفسح مجالاً للتّفسيرات المتعدّدة، والأوجه الإعرابيّة الممكنة في الكلمة الواحدة. وآية هذه النّزعة الإسقاطيّة كما نبّه إليه الباحث كثرة إحالتهم على اللّغة الإنجليزيّة مثلاً أثناء تناوّلهم لظاهرة نحويّة في القرآن الكريم، ومقارنتهم إيّاها باللّغة العربيّة، فهذا هو نيوتن مثلاً حين زعم أنّ آية المصالحة بين الخصمَيْن فيها خطأ في المطابقة، قال: «في العربيّة، وفي الإنجليزيّة على السّواء، تُصرف الكلمات طبقاً لعدد الفاعلين، ففي الإنجليزيّة عددان: مفرد وجمع، ويبدأ الجمع فيها باثنين. بينما في العربيّة يبدأ بثلاثة: مفرد، ومثنى وجمع. عليه، فإنّ الأسماء والأفعال تُعامل بحسب هذه المستويات الثلاثة. أمّا في الآية (9: 49)، (يعني: سورة الحجرات) فإنّ الفاعل أكثر من اثنين، وعلى الرّغم من ذلك فإنّ الآية لم تُطابق، وكانت القاعدة تقتضي أن تكون كلمة «اقتتلوا» بالمشي «اقتتلاً»، فهنا خطأ آخر». وذكر مثل ذلك أيضاً في سورة الحجّ (آية: 19)؛ حيث ذهب إلى أنّ الضّمير الجمع في الفعل «اُخْتَصِمُوا» حقّه التّثنية «اُخْتَصِمَا». وفي آية الأسباط (الأعراف: 160)، زعم أنّها تتضمّن خمسة أخطاء وذكرها، ولكنّه لم يتنبّه إلى إشكال العدد والمعدود في الآية⁽³⁾. فهو -بوضوح- يقارن اللّغة العربيّة بالإنجليزيّة، ثم يبني على ذلك

(1) G. J. Oshay. Anatomy of the Qur'an, p74. Ali Dashti. Twenty-Three years: A Study of the Prophetic Career of Mohammad, (London: George Allen & Unwin, 1985).

(2) Ali Dashti. Prophetic Career of Mohammad, (California: Mazda Publishers, Costa Mesa, 1994), 48-50.

(3) M.S.M. Saifullah, "Responses to the Grammatical Errors in the Quran", Islamic Awareness, <http://www.islamic-awareness.org/Quran/Text/Grammar/gramrefut.html>, accessed on: 14/08/2013.

موقفه، وتلك مقارنة غير مستقيمة؛ حيث إنَّ الاسم الجمعي في العربية يعامل معاملة المفرد أو الجمع على السواء.

خلاصة القول، إنَّ المستشرقين يجمعون بأنَّ القرآن يحوي أخطاء لغوية في مستوى المفردات وفي مستوى الجمل والتَّعبيرات، وزعمهم هذا بالخطأ في القرآن إنّما هو نتيجة طبيعيّة لمواقفهم من الاعتقاد في أصل القرآن. فبينما يعتقد المسلمون أنّ القرآن كتابٌ موحى من عند الله لفظاً ومعنى، وأنَّ النبي ﷺ، قد بلَّغه إلى الناس بأمانة، ونقله الصَّحابة إلى من دونهم كذلك بدقّة متناهية شفاهةً وكتابةً، إذ المستشرقون يُجمعون على أنّ القرآن عملٌ إنسانيٌّ: إمّا من وضع محمد ﷺ، أو من وضع فرقاء كُثُر، بدءاً بالنبي نفسه حتى نهاية القرن الثاني الهجري. هذا ومن الإمكان تحديد أهمِّ ادِّعاءات المستشرقين حول القرآن في المحاور الآتية:

- إنّ مصدر القرآن من الكتابات اليهوديّة والمعتقدات العربيّة والآشوريّة القديمة، وأنَّ محمّداً ما كان إلّا واهماً في ادِّعائه النبوّة.
- إنّ القرآن مضطرب الأسلوب، تحوي بعض آياته مفردات ناشرة بسبب خطأ النساخ في التدوين.
- إنّ المسلمين قد اعترفوا بالأخطاء اللُّغويّة في القرآن منذ عصر الخليفة عثمان، يدلُّ بذلك حديث اللّحن، وهو حديثٌ مردودٌ عند جمهور العلماء المسلمين.
- إنّ الاضطراب في الأسلوب القرآني إنّما هو ناشئٌ عن الأصل اللُّغوي للقرآن؛ حيث إنّهُ كان بلغةٍ آراميّة أو آشوريّة أو بلغة عربيّة قديمة غير إعرابيّة، ثم حوّر القرآن ليوافق العربيّة المعياريّة.
- إنّ الاضطراب في الأسلوب القرآني قد نشأ بسبب حالة الصَّرع التي كانت تعترى محمّداً ﷺ، حال نزول الوحي عليه. والوحي هنا -بالطبع- لا يعني معناه الإيمان، وإنّما يعني الوهم والتَّخيُّلات.

المبحث الثاني: مواقف بعض الباحثين المسلمين

لقد سبقت الإشارة في مقدّمة هذه الدّراسة إلى أنّ البحوث في موضوع ما يسمّى بالأخطاء اللّغويّة في القرآن نادرة. عليه، فإنّنا نعرض هنا لبحث متميّز وشبه فريد في هذا المجال، ألا وهو بحث نشره عبد الحليم (M.A.S. Abdel Haleem) بمجلة مدرسة الدّراسات الشرقيّة والأفريقيّة (SOAS)،⁽¹⁾ تعرّض فيه للمواضع التي يزعم المستشرقون أنّها أخطاء لغويّة في القرآن؛ وحلّل تلك المواضع على ضوء ظاهرة الالتفات منبّهًا إلى أنّ القرآن قد أكثر من هذا الاستعمال. بل إنّ الدّارسين لا يكادون يستشهدون في هذا الباب إلّا بآيات قرآنيّة.

بدأ الباحث بعرض مواقف بعض المستشرقين من النّص القرآني وأحكامهم الجائرة حوله؛ انطلاقًا من رؤيتهم القاصرة لمرامي الكلام العربيّ، وقد بدأ الباحث بنولده وموقفه من مواضع كثيرة في القرآن، وقوله عن تلك المواضع: «إنّ التّحوّل النّحوي في القرآن، من حينٍ لآخر، غير طبيعي وغير حسن»⁽²⁾. فذكر أنّ هذا الذي وصفه نولده بـ «غير حسن»، هو ما ذهب علماء البلاغة إلى عدّه من أوجّه الجمال التّعبيري في القرآن، ومن «شجاعة العربيّة»⁽³⁾، ثم أشار الباحث إلى ملّحٍ دقيقٍ في هذا الباب غاب عن نولده حين زعم أنّ العدول من المخاطب إلى الغائب في آيات (يونس: 23؛ والروم: 38؛

(1) M. A. S. Abdel Haleem. Grammatical Shift For The Rhetorical Purposes: Itifat And Related Features In The Qur'an, Bulleting of the School of Oriental and African Studies, 1992, Vol. IV, part3.

(2) نولده، تاريخ القرآن، مرجع سابق، ص 13. ينظر عند نولده: Stylistische und syntaktische Eigentümlichkeiten der Sprache des Korans.

(3) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محمد عبد الحميد، (القاهرة: 1933)، 4/2.

والحجرات: 7) مثلاً، قد «حدث بطريقة فجائية»⁽¹⁾. فبيّن الباحث أن الالتفات في القرآن يتبع نظاماً دقيقاً غير منفك عن المعنى.

هذا، وبعد تلك المقدمات النظرية، ومراجعة أقوال المستشرقين ونقدها، تعرّض الباحث لظاهرة الالتفات بالتطبيق والتحليل، فذكر أنماطه العامة وعدّها منها ستة، منها: الالتفات / العدول من المفرد إلى المثنى أو الجمع، ومن المخاطب إلى الغائب، ومن الماضي إلى الحاضر، ومن الظاهر إلى المضمّر... وأحصى موارد كل نمط من الأنماط المذكورة في القرآن مع مناقشة الكثير من المواضع وبيان أقوال علماء البلاغة والمفسّرين فيها، وتوضيح المعاني البلاغية المستفادة من ظاهرة الالتفات في كل موضع.

هنا خلّص الباحث إلى أنّ الالتفات ظاهرة بلاغية حاضرة بجلاء في الأسلوب القرآني وأنّ ذلك لا يختصّ بالقرآن المكي وإنّما ورد أيضاً بكثرة في الآيات المدنية. وأنّ القرآن هو الذي أكثر من استعمال ظاهرة الالتفات بخلاف النصوص العربية الأخرى شعراً ونثراً، وأنّ علماء البلاغة، أمثال ابن الأثير (ت794هـ/1391م)،⁽²⁾ الذي أورد حوالي عشرين مثلاً للالتفات عند دراسته لهذه الظاهرة، والسيوطي (ت911هـ/1505م)،⁽³⁾ الذي أورد حوالي خمس وثلاثين مثلاً له، والزّمخشري (ت794هـ/1391م)،⁽⁴⁾ الذي أسهب بإيراد حوالي خمسين مثلاً للالتفات، وغيرهم من علماء البلاغة، قد اعتمدوا جميعاً على الشواهد القرآنية، ولم ترد عندهم من النصوص غير القرآنية إلا القليل.

بعد ذلك، نبّه الباحث عبد الحليم إلى ظاهرة غريبة عند الباحثين المستشرقين، وهي جهلهم -أو تجاهلهم- المطبق عن هذه الظاهرة الجليلة في الأسلوب القرآني، فنولده الذي أسهب في دراسة القرآن لم يشر إليه، وكذلك وانسبرغ الذي خصّص مبحثاً لبلاغة القرآن ومجازه بعنوان:

(1) نولده، تاريخ القرآن، مرجع سابق، ص14.

(2) ابن الأثير، المثل السائر، مصدر سابق.

(3) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (القاهرة: 1967) 3/253.

(4) البرهان في علوم القرآن، (القاهرة: 1958م)، 3/314.

(Rhetoric and Allegory)،⁽¹⁾ لم يشر إلى الالتفات قط. ولا نجد له ذكراً عند الباحث ريتشارد بيل، على الرغم من أنه قد خصّص مبحثاً لدراسة أنماط الأسلوب القرآني (Features of Qur'anic Style)،⁽²⁾ وفي الموسوعة الإسلامية تحت المدخل عن القرآن، وعن لغته وأسلوبه (Language and Style)،⁽³⁾ لا نجد ذكراً للالتفات، ومثل ذلك في موسوعة كمبرج عن الأدب العربي⁽⁴⁾. يقول عبد الحلیم: «لا أحد من أولئك الكتاب ذكر كلمة الالتفات».

عليه، فإنّ البحث الاستشراقي في القضايا النحويّة واللغويّة في القرآن، بحثٌ قاصرٌ؛ لأنّه يغفل ظاهرةً مهمّةً تعدّ هي مفتاحاً للإجابة عن معظم المواضع التي يصمونها بالخطأ اللغويّ في القرآن، وهي بعيدة كلّ البعد عن ذلك.

ولا يسعنا هنا إلا الإشارة إلى كتاب مسلمين؛ ممّن يتصدّون للدّفاع عن الإسلام وعن الشّبهات المثارة حول القرآن، فيقصرون فيه قصوراً فاحشاً، ويأتون بحجج ومقالاتٍ إنشائيّة لا تقوم في وجه الطّعون والادّعاءات والبحوث المعمّقة المسهبة التي يقوم بها المستشرقون والطّاعنون في القرآن، وهم بذلك يفتحون ثغرةً، ويقوّن مزاعم الطّاعنين في الإسلام من حيث لا يدرون!

من أمثلة تلك الكتابات كُتِيبٌ⁽⁵⁾ للشيخ عبد الرحمن دمشقيّة تعرّض في مقدّمته للأخطاء الجوهرية في نصوص الكتاب المقدّس مما لا يقبلها العقل من الأخبار، وما لا يستسيغها الذّوق السّليم من التّعبيرات، وساق لذلك نماذج لنصوصٍ رأى أنّها مضحكةٌ من النّاحية البلاغيّة، وأخرى نابيةٌ للأخلاق

(1) Qur'anic Studies: Sources & Methods Of Scriptural Interpretation (Oxford 1977), 227-46.

(2) Bell's Introduction To The Qur'an: Completely Revised & Enlarged By W. Montgomery Watt, Islamic Surveys, Edinburgh University Press, 1970, 79-85.

(3) Encyclopedia of Islam, (2nd ed.) V, 419-21.

(4) R. Paret. The Cambridge History Of Arabic Literature, I (1983), 205.

(5) عنوانه: الرّد على شبهاتٍ حول أخطاء إملائيّة في القرآن الكريم، (الرياض: دار المسلم للنشر والتوزيع، 1424هـ/2002م)، عدد صفحاته 36، مقاس 24X17.

ولقداسة الأديان، مشيراً إلى أن الكاتب جورج برنارد شو (George B. Shaw، 1856-1950) قد سخر من الكتاب المقدس ونصح بحفظه.. «بعيداً عن تناول الأطفال؛ لما فيه من النصوص الجنسية الفاضحة، واصفاً البائِل بأنه أخطر كتاب على وجه الأرض، وأمر بوضعه في مكانٍ مُحَكَّم الإقفال»⁽¹⁾. وقد هدَف الشيخ بإيراد تلك النصوص في الكتاب المقدس توجيه المستشرقين إلى العناية بما في الكتاب المقدس من أخطاء. بل إنه قد ساق لذلك حكمةً ومثلاً من مقولات المسيح، وهي قوله: «لماذا تلاحظ القشة في عين أخيك، ولكنك لا تتنبه إلى الخشبة الكبيرة في عينيك؟!»⁽²⁾ بعد ذلك طرح عليهم السؤال: «هل عَمِيت أعينكم عمّا في كتابكم من المصائب؟»، وخلص إلى النعي على المستشرقين ضالة معرفتهم بقواعد اللغة العربية وأسرارها.. «فلو سألت أحد هؤلاء أن يقرأ عليك نصّاً بالعربية أو يعرب لك نصّاً؛ لَطَفَق الصغار يضحكون على قراءته، فهو لا يجيد القراءة فضلاً عن الإعراب. ومع ذلك يأتي ليتحدّث عن أخطاء لغوية في القرآن»⁽³⁾.

هذا، وعلى الرغم من صدق نوايا الشيخ في الدِّفاع عن القرآن، فإنّه لم يحسن الأسلوب، ولم ينجح في العرض والمعالجة، وذلك من عدّة نواح:

أ - عدم موافقة عنوان الكتاب تماماً مع مضمونه؛ إذ إنّ المواضع الستة والعشرين التي ساقها الشيخ وزعم أنها من مطاعن المستشرقين، لم يوجد من بينها موضعٌ واحدٌ يمكن وصفه بـ(خطأ إملائي)، وإنّما هي جميعاً قضايا نحوية معروفة قديماً.

ب - سؤقه لجملة من المطاعن في الكتاب المقدس؛ فهو بذلك يُقرّر مبدأً خطيراً يعترف بموجبه ضمناً بوجود «قشة» في القرآن، بمقابل «خشبة كبيرة» في الكتاب المقدس ينبغي على المستشرقين العناية بها، قبل التّعرض لما في القرآن! ومن السَّهل الرَّد على الشيخ بأن كثيراً من

(1) دمشقية، المرجع السابق، ص 9.

(2) (إنجيل لوقا، 6 / 41).

(3) دمشقية، مرجع سابق، ص 10.

الباحثين الغربيين أنفسهم قد تحاملوا بشدة على الكتاب المقدس، وقد أورد الشيخ نفسه بعض تهكمات برنارد شو من الكتاب المقدس. وعلى كل، فإن دحض مفتريات الباحثين الغربيين حول القرآن الكريم، لا يمكن أن ينطلق من التَّهْجُم على الكتاب المقدس.

ت - إخفاقه في عرض القضية، وقصوره دون مبلغ المستشرقين في الدقة والاستقصاء، وإنما نحا منحى تهجئياً على المستشرقين، واتَّهمهم بالجهل بالعربية، وهو أمرٌ إن صدق في بعضهم، فغير صادق في آخرين. كما أنَّ كثيراً من المتَّهِّجِّين على القرآن ليسوا مستشرقين، وإنما هم عرب. إذن، كان الأخرى بالشيخ في تناوله لمثل هذا الموضوع الخطير أن يجاري المستشرقين في الصَّبر والاستقصاء وإيراد الأقوال والآراء من مصادرها، ثم الرد عليها بأسلوبٍ علميٍّ رصين.

لا نملك إلا القول إنَّ هذا الكُتَيْب -بمحتواه- لا يخدم في الرد على مزاعم المستشرقين. أضف إلى ذلك أنَّ صدور مثل هذا العمل القاصر من لدن شخصية إسلامية بمكانة الشيخ دمشقية، يقوِّي -بحقٍّ- موقف خصوم القرآن؛ لأنَّ إخفاق مثله يعني -عادةً- إخفاق مَنْ دونه في هذا المجال.

المبحث الثالث: عن خبر اللَّحْن في المصحف العثماني

ورد خبر اللَّحْن في المصحف العثماني في عدَّة مصادر إسلاميَّة من كتب التَّفْسير وعلوم القرآن والنَّحو واللُّغة والتَّاريخ، وغيرها، منها: كتاب «فضائل القرآن» لأبي عبيدة القاسم بن سلام (224هـ)، وكتاب «المصاحف» لابن أبي داود (ت316هـ)، وكتاب «الرد على من خالف مصحف عثمان» لابن الأنباري (328هـ)، وكتاب «المصاحف» لابن أشتة أحمد الأصبهاني (ت491هـ). وقد ورد هذا الخبر في المصادر المذكورة وغيرها دون تعرُّض لفحواه أو نقدٍ لأسانيده.

غير أنَّ طائفة كبيرة من المصادر الإسلاميَّة أيضًا قد تعرَّضت لهذا الخبر بالنَّقد والدراسة والتَّمحيص، وذهب أصحابها إلى ردِّه وعدم صحَّته من وجوهٍ عدَّة، وممَّن تصدَّى له من العلماء: الإمام أبو عمرو الداني (ت444هـ)، في كتاب «المقنع»⁽¹⁾، والإمام السيوطي (ت911هـ) في «الإتقان»، والزرقاني (1122هـ) في «مناهل العرفان»⁽²⁾، والشيخ العبادي في «جمع القرآن»⁽³⁾، وغيرهم من الأئمَّة الأعلام⁽⁴⁾.

هذا، وبما أنَّ مدار ادِّعاء المستشرقين بوجود أخطاء في القرآن الكريم، وتأكيدهم بأنَّ هذا الادِّعاء قائمٌ في المقام الأول على اعتراف المسلمين أنفسهم، وعلى النُّصوص الإسلاميَّة التُّراثيَّة، فإنَّ من الأجدر الوقوف عند خبر اللَّحْن وعرض آراء العلماء فيه بإيجازٍ⁽⁵⁾ إذ إنَّ ذلك ضروريٌّ لما نحن

(1) المقنع، 124 وما بعدها.

(2) مناهل العرفان، 379/1.

(3) ينظر: ص264 وما بعدها.

(4) ينظر: الفرماوي، عبد الحي حسين. رسم المصحف ونقطه، (مكة المكرمة: المكتبة المكية، ط1، 1425هـ/2004م)، ص440-461.

(5) للباحث الدكتور جمال محمود أبو حسان، دراسة ضافية عن هذا الموضوع بعنوان «دراسة ما روي عن عثمان في شأن لحن القرآن»، مجلة الزرقاء للدراسات والبحوث، مجلد7، عدد (1)، ربيع الثاني/حزيران، 1426هـ/2005م. استفدنا منها في هذا المبحث.

بصدده، ولا يمكن الولوج إلى هذا البحث دون تحرير القول في هذا النص المصدري في موضوع الأخطاء المزعومة في القرآن الكريم.

ورد في كتاب المصاحف لابن أبي داود قال: «حدثنا المؤمل بن هشام، حدثنا إسماعيل عن الحارث بن عبد الرحمن، عن عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر القرشي قال: لما فرغ من المصحف، أتى به عثمان، فنظر فيه، فقال: قد أحسنتم وأجملتم، أرى فيه شيئاً من لحن سقيم العرب بالسنتها»⁽¹⁾.

رواية أخرى في كتاب «المصاحف»، قال: «حدثنا أبو حاتم السجستاني، حدثنا عبيد بن عقيل عن هارون، عن الزبير بن خريث، عن عكرمة الطائي، قال: «لما أتى عثمان رضي الله عنه بالمصحف، رأى فيه شيئاً من اللحن، فقال: لو كان المملي من هذيل، والكاتب من ثقف لم يوجد فيه هذا»⁽²⁾.

كذلك، في كتاب «فضائل القرآن»، قال أبو عبيد: «حدثني عبد الرحمن ابن مهدي، عن عبد الله بن المبارك قال: حدثني أبو وائل - شيخ من أهل اليمن - عن هاني البربري مولى عثمان قال: «كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف؛ فأرسلني بكثف شاة إلى أبي بن كعب فيها: «لَمْ يَتَسَنَّ»، وفيها: «لَا تَبْدِيلَ لِلْخَلْقِ»، وفيها: «فَأْمَهْلِ الْكَافِرِينَ»، قال: فدعا بالدواة فمحي إحدى اللامين وكتب «لِخَلْقِ اللَّهِ»، ومحا: «فَأْمَهْلِ»، وكتب: «فَمَهْلِ» وكتب: «لَمْ يَتَسَنَّ» ألحق فيها الهاء»⁽³⁾. هذا عن الأثر المعزوف إلى عثمان.

أما حديث عائشة في هذا الباب، فقد روى أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه، أنه قال: سألت عائشة (رضي الله عنها) عن لحن القرآن، عن قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِن هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (طه: 63)، وعن قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ (النساء: 162)، وعن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ (البقرة: 62) فقالت: يا ابن

(1) ابن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني. كتاب المصاحف، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1985م)، ص 42.

(2) أبو عبيدة، فضائل القرآن، ص 278؛ وأبو داود في المصاحف، 1/ 231؛ والسيوطي في الإتيان، 1/ 585.

(3) المرجع السابق، ص 159.

أختي: هذا مِنْ عمل الكُتَّاب الكتبة، أخطأوا في الكتاب، أي في الكتابة»⁽¹⁾.
فهذه الأخبار - كما يرى المستشرقون تفيد صراحةً بأنَّ النُساخ قد أخطأوا في
رسم مواضع في المصحف العثماني، وأنَّ الخليفة قد استدرك بعضها، وأفلتَ
بعضها عن التَّصحيح، وقد أدَّت تلك الأخطاء في رسم المصحف إلى إشكالات.

مواقف العلماء المسلمين حيال هذه الأخبار

للعلماء المسلمين مواقف وأقوال كثيرة حيال هذه النُصوص؛ إذ إنَّ منهم
من ردَّ هذه الأخبار من حيث السُّند والمتن ردًّا مطلقًا، ومنهم من ردَّ بعضها،
ثم حاول إيجاد بعض التَّأويلات لما لم يردّها.

أ - حديث عثمان

لخصَّ الإمام السيوطي مواقف العلماء حول الأثر المنسوب إلى عثمان في
ثلاثة، بقوله: «وقد أجاب العلماء عن ذلك بثلاثة أجوبة، الأول: أنَّ ذلك لا
يصحُّ عن عثمان؛ فإسناده ضعيف مضطرب. الثاني: على تقدير صحَّة الرواية
أنَّ ذلك محمولٌ على الرَّمز والإشارة ومواضع الحذف. الثالث: أنَّه مؤوَّل على
أشياء خالف لفظها رسمها»⁽²⁾.

هذا، ويحسن هنا البدء برأي ابن قتيبة (ت 276هـ)، حيث أورد الروايات
الدَّائرة في هذا المجال، ثمَّ علَّق عليها قائلاً: «وليست تخلو هذه الحُرُوفُ من أن
تكون على مذهبٍ من مذاهب أهل الإعراب فيها، أو أن تكون غلطًا من الكاتب،
كما ذكرت عائشة (رضي الله عنها)، فإن كانت على مذاهب النُّحويِّين فليس ههنا
لحنٌ بحمد الله، وإن كانت خطأ في الكُتَّاب، فليس على رسوله ﷺ جنايَةُ الكاتب
في الخطِّ، ولو كان هذا عيباً يرجع على القرآن؛ لَرَجَعَ عليه كلُّ خطأ وقع في كتابة
المصحف من طريق التَّهَجِّي»⁽³⁾ واستشهد ابن قتيبة ببعض المواضع في المصحف
مما رأى فيها لحنًا في الكتابة على ذمَّة الكُتَّاب، قال: «كُتِبَ في الإمام: ﴿إِنْ هَذَا

(1) معاني القرآن للفراء، 1/ 106؛ المقنع، ص 126، تفسير القرطبي، 11/ 216، الإِتقان
في علوم القرآن، 1/ 182. قال السيوطي: وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(2) الإِتقان في علوم القرآن، 1/ 585-586.

(3) ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، (بيروت:
دار الكتب العلمية، 1981م)، ص 50-64.

لَسَحَرَنَ*، بحذف ألف التثنية. وكذلك ألف التثنية تحذف في هجاء هذا المصحف في كل مكان، مثل «قَالَ رَجُلَانِ» و«آخَرَنِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا»، وكتب كُتَّابُ المصحف: «الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالْحَيَاةُ» بالواو، واتبعناهم في هذه الحروف خاصة على التَّيْمُنَ بهم، ونحن لا نكتب: (القطاة والقناة والفلاة) إلا بألف، ولا فرق بين تلك الحروف وبين هذه⁽¹⁾.

مما سبق، يتَّضح أنَّ ابن قتيبة لا يردُّ تلك الأخبار، لا من حيث السَّند ولا المتن، وإنَّما يعترف بها، وفوق ذلك، يقرُّ بوجود لحنٍ في رسم المصحف ويرى أنَّ الكُتَّابَ وحَدَّهم يتحمَّلون مسؤولية هذا الخطأ في رسم المصاحف. وهذا موقفٌ غريب؛ لأنَّ الكتابة -بوصفها نتاجاً جمعياً تاريخياً- وتطوُّرها عبر الحُقُب التاريخية، وانتقالها من بيئة إلى أخرى، لا يمكن الحكم على شيءٍ من الصُّور الإملائية فيها إلَّا طبقاً باستحضار المزاج التاريخي الجمعي الذي تمَّ فيه اتِّباعُ صورةٍ دون أخرى. فالكتابة -بوصفها تمثيلاً للمنطوق- لا تعدو أن تكون خاضعةً للعرْف المحكوم بالزَّمان والمكان، ورؤية الناس إلى الجمال في تلك الفترة التي تمَّ فيها إنتاج الكتابة.

لذلك، نجد الإمام الطبري (ت310هـ)، يردُّ من طرفٍ خفيٍّ على ابن قتيبة، وذلك في معرض مناقشته للوجه الإعرابيِّ لكلمة «المُقيمين»؛ وعلَّل موقفه بقوله: «وإنما اخترنا هذا على غيره؛ لأنَّه قد ذكر أن ذلك في قراءة أبي ابن كعب (والمُقيمين) وكذلك هو في مُصحِّفه فيما ذكروا، فلو كان ذلك خطأ من الكاتب لكان الواجب أن يكون في كلِّ المصاحف غير مُصحِّفنا الذي كتبه لنا الكاتبُ الذي أخطأ في كتابه بخلاف ما هو في مُصحِّفنا وفي اتفاق مُصحِّفنا ومُصحِّف أبي في ذلك ما يدلُّ على أن الذي في مُصحِّفنا من ذلك صوابٌ غير خطأ، مع أن ذلك لو كان خطأ من جهة الخطِّ، لم يكن الذي أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ يعلمون من علموا ذلك من المسلمين على وجه اللَّحن، ولأصلحُوهُ بالسَّتهم ولَقَّوهُ للأُمَّة تَعْلِيماً على وجه الصَّواب، وفي نقل المسلمين جميعاً ذلك قراءة على ما هو به في الخط

(1) السابق: ص 56-57.

مرسوماً أدلّ الدليل على صحّة ذلك وصوابه، وأن لا صنّع في ذلك للكاتب»⁽¹⁾. فههنا إشارة إلى أن ما عدّه ابن قتيبة لحنًا في الرّسم، ليس كذلك. بل كان عُرفًا وصوابًا اتّبعه الكاتب، ولم يخترعه من عند نفسه.

كذلك، وقف الإمام الباقلاني (ت403هـ) من هذه الآثار في كتاب «الانتصار» في كلام مطوّل، موقف المنكر لأسانيدھا، المناقش لمتونها. أمّا من حيث المتن، فقد تتبّع الباقلاني مفردات عثمان واحدة تلو الأخرى، مؤوّلًا لها، ومن قوله: «وممّا يُعتمد عليه في تأويل قول عثمان «أرى فيه لحنًا»، هو أن المقصد به ما وجد فيه من حذف الكاتب واختصاره في مواضع وزيادة أحرف في مواضع أخرى، وأنّ الكاتب لو كان كتبه على مخرج اللفظ وصورته لكان أحقّ وأولى وأقطع للقاله وأنفى للشبهة عمّن ليس الكلام باللسان طبعاً له». وقال أيضًا: «إنّما أراد بذكر «اللّحن» الهجاء الذي رُسم على غير مطابقة اللفظ ومنهاجه، وأنّه لما رأى ذلك قد اتّسع وكثُر في المصحف كثرةً يطول تتبّعها ويحتاج معها إلى إبطال النسخة التي رُفعت إليه، واستئناف غيرها، وإلزام الكتّبة في ذلك وسائر من عنده نسخة منه؛ كلفةً ومشقّةً شديدة، وعلم أنّ ذلك يصعب على أهل الذكاء والفطنة... فأبقاه على ما رُفع إليه من لحن الهجاء»⁽²⁾.

وكان الإمام أبو عمرو الدّاني (ت444هـ)، من أبرز من أنكر هذه الآثار من الجهتين: السند والمتن. ورد ذلك في كتابه «المقنع»؛ إذ قال عن الأثر المعزو إلى عثمان: «هذا الخبر عندنا لا يقوم بمثله حجّة، ولا يصحّ به دليل من جهتين، إحداهما: أنه مع تخليط في إسناده واضطراب في ألفاظه مُرسل؛ لأنّ ابن يعمر وعكرمة لم يسمعا من عثمان شيئاً ولا رأياه. وأيضاً فإن ظاهر ألفاظه ينفي وروده عن عثمان رضي الله عنه لما فيه من الطّعن عليه مع محله من الدّين ومكانه من الإسلام وشدّة اجتهاده في بذل النصيحة واهتباله بما فيه من الصّلاح للأمة، فغير ممكن أن يتولى لهم جمع المصحف مع سائر الصّحابة الأخيار الأتقياء الأبرار؛ نظراً لهم ليرتفع الاختلاف في القرآن بينهم، ثم يترك

(1) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، (القاهرة: دار الريان للتراث، 1987م)، 6/19.

(2) الباقلاني، الانتصار للقرآن، ص495.

لهم فيه مع ذلك لحنًا وخطأ يتولى تغييره مَنْ يأتي بعده ممَّن لا شك أنه لا يدرك مداه، ولا يبلغ غايته ولا غاية من شاهد...⁽¹⁾.

أمَّا شيخ الإسلام ابن تيمية (ت728هـ)، فقد وقف موقفًا مشابهًا لموقف الإمام الطبري الذي يرى أنَّ اتِّفاق المصاحف -على اختلاف كُتَّابها- وإجماع الصَّحابة على ما فيها، دليلٌ على أنَّ ما ورد فيها لا يمكن بحالٍ وصفه بالخطأ أو اللَّحن. ورد ذلك عنده في «الفتاوى»، وذلك حين عرض لإعراب قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّجْنَنٌ﴾، وبعد أن ذكر بعضًا من أقوال العلماء في إعراب الآية، قال: «وهذا ممَّا يبيِّن غلط مَنْ قال في بعض الألفاظ إنَّه غلطٌ من الكاتب، أو نقل ذلك عن عثمان، فإن هذا ممتنعٌ لوجوه، منها: تعدُّد المصاحف، واجتماع جماعة على كلِّ مصحف، ثم وصول كلِّ مصحفٍ إلى بلدٍ كبير فيه كثيرٌ من الصَّحابة والتَّابعين يقرأون القرآن، ويعتبرون ذلك بحفظهم، (...) وهنا كلُّ مصحفٍ إنما كتبه جماعةٌ ووقف عليه خلقٌ عظيمٌ ممَّن يحصل التَّواتر بأقلِّ منهم، ولو قدر أنَّ الصَّحيفة كان فيها لحنٌ فقد كتب منها جماعةٌ لا يكتبون إلا بلسان قريش، ولم يكن لحنًا فامتنعوا أن يكتبوه إلا بلسان قريش، فكيف يتَّفَقون كلُّهم على أن يكتبوا (إِنَّ هَٰذَا) وهم يعلمون إن ذلك لحنٌ لا يجوز في شيء من لغاتهم؟!...»⁽²⁾.

كذلك، ردَّ ابن الجزري شمس الدين (ت833هـ)، هذا الأثر المعزوَّ إلى عثمان، وأنكره من حيث المتن، قال: «وكيف يصحُّ أن يكون عثمان رضي الله عنه يقول ذلك في مصحف جعل للنَّاس إمامًا يقتدى به، ثم يتركه لتقييمه العرب بالسنتها، ويكون ذلك بإجماع من الصَّحابة (...)، أيضًا فإنَّ عثمان لم يأمر بكتابة مصحفٍ واحدٍ، إنَّما كتب بأمره عدَّة مصاحف»⁽³⁾.

(1) الداني: المقنع في رسم مصاحف الأمصار 119-120.

(2) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع فتاوى ابن تيمية، (15/251-255) الرئاسة العامة لشؤون الحرمين، السعودية.

(3) الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن يوسف الدمشقي. النشر في القراءات العشر، 1/459.

بالمثل، ذكر الألوسي (ت1270هـ)، كلامًا مشابهًا لكلام الإمام أبي عمرو الدّاني، وشيخ الإسلام ابن تيمية، حين نفى أن يصدر مثل هذا الأمر من الصّحابة، وأن يتوانى الخليفة عثمان عن تقويم لحن في المصحف، وزاد الألوسي برده القاطع لسند الأثر؛ حيث قال: «وأما قول عثمان إنّ في القرآن لحنًا... إلخ، فهو مُشكّل جدًّا؛ إذ كيف يُظنُّ بالصّحابة أوّلاً اللّحن في الكلام فضلًا عن القرآن وهمهم؟ ثم كيف يُظنُّ بهم ثانيًا اجتماعهم على الخطأ وكتابته؟ ثم كيف يُظنُّ بهم ثالثًا عدم التّنبه والرّجوع، ثم كيف يُظنُّ بعثمان عدم تغييره وكيف يتركه لتقييمه العرب، وإذا كان الذين تولوا جمعه لم يقيموه وهم الخيار فكيف يُقيّمه غيرهم؟ فلعمري إنّ هذا مما يستحيل عقلاً وشرعًا وعادة، فالحقُّ أنّ ذلك لا يصحُّ عن عثمان والخبر ضعيفٌ مضطربٌ مُنقَطِعٌ. وقد أجابوا عنه بأجوبة لا أراها تقابل مؤنة نقلها»⁽¹⁾.

أمّا عن حديثي عائشة (الصّحيح السّند)، فقد أجاب الألوسي عنهما بقوله: «ويُجاب عن الأوّل بأنّ معنى قولها «أخطأوا» أي في اختيار الأوّل من الأحرف السّبعة لجمع الناس عليه، لا أن الذي كتبوه من ذلك خطأ لا يجوز، فإن ما لا يجوز مردودٌ وإن طالّت مدة وقوعه (...). وعن الثاني: بأن معنى قولها «لحن من الكاتب» لغة وقراءة له»⁽²⁾. ويمكن هنا عرض مواقف العلماء حول هذا الخبر بجملة من الأدلّة التي يمكن إجمالها في الآتي:

1 - أنّها رواية مردودة من حيث السّند؛ إذ إن راويها هو أبو معاوية الضّرير، وهو ممّن شهد علماء الحديث بأنّ في أقواله أحاديث مضطربة، وأنّه ربّما دلس، وأنّه كان مرجئًا خبيثًا.

2 - أنّه لا يسوغ ولا يجوز أن تنسب السيدة عائشة الصّحابة وكتبة الوحي إلى الخطأ، وهم بمكانة مشهودة من الفصاحة والعلم باللّغة، وما لها (رضي الله عنها) من جلاله قدر، واتّساع معرفة ودراية.

3 - أنّ روايات كثيرة ثابتة بالتّواتر، تلقّاها المسلمون بالإجماع والقبول،

(1) الألوسي، محمود. تفسير روح المعاني، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، 1/ 30-31.

(2) نفسه.

تعارض ما نُسب إلى عائشة، ولا تنهض هذه الرواية في وجه تلك الروايات المتواترة، فهي رواية ساقطة مردودة.

أما تصحيح الإمام السيوطي للخبر، فقد أجيب عنه بأن الرواية على فرض صحتها، رواية آحادية، معارضة للقطعي، الثابت بالتواتر، فهي -إذن- باطلة ومردودة؛ لمناقضته للإجماع القطعي وصريح العقل. وبذلك قال ابن الحاج (ت737هـ)⁽¹⁾. وذهب آخرون إلى تأويله على فرض ثبوته⁽²⁾. أو أنها (رضي الله عنها)، قد اجتهدت وأخطأت في اجتهداها؛ لأن هذه الحروف التي ذكرت أن الكتاب قد أخطأوا فيها، إنما هي صحيحة من حيث اللغة العربية فصيحة⁽³⁾.

وبعد، فقد اتضح في مواقف جلة العلماء المسلمين أنهم يجمعون على رد الآثار الواردة في أخبار اللحن في المصحف، محتجين في هذا الرد بما يحف هذه الآثار من اضطراب واضح في السند؛ فهي إما من رواية ضعفاء أو مجاهيل لا تقوم بهم حجة. كذلك فإن متن هذه الآثار يصعب الأخذ به وقبوله؛ إذ إنه يفترض تصرفات من لدن الخليفة عثمان والصحابة (رضوان الله عليهم)، لا يمكن قبولها ممن دونهم، فالخليفة عثمان لا يأمر بجمع القرآن في مصحف، ومن ثم يرضى بوجود خطأ فيه، أو يحيل تصحيحه على من دونه من اللاحقين. كما أن الصحابة وعامة الأمة لا يحتمل سكوتهم عن خطأ في المصحف على مر التاريخ الإسلامي. بذلك كله، فإن مزاعم المستشرقين لا تقوم لها قائمة؛ لأنها تنطلق من منطلق غير سليم، وتنبنى على آثار واهية مردودة.

(1) أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي. المدخل، (مصر: دار التراث، د.ت)، ص 379-380.

(2) ينظر: كتاب المقنع، ص 127.

(3) المقنع، 118-119؛ مناهل العرفان، 1/ 386-388.

الفصل الثاني

مفهوم المطابقة والإشكال

المبحث الأول: المطابقة

(المطابقة) على وزن (المُفاعلة)، والفعل منه (طَبَّقَ: تطَبَّقًا، وطابق وأطبَّقَ: مطابَقَةً، وطَبَّاقًا). يقال (طَابَقَهُ) أي: وافقه وساواه، و(الطَّباق) الموافقة. و(الطَّبَق) من كلِّ شيء ما ساواه، ويقال: (أطَبَقَ) بين الرَّحِيَيْنِ، أي ساوى بين حَجَرَيْهَا، و(طَابَقَت) بين الشَّيْئَيْنِ، أي: جعلتهما على حذو واحد، و(الطَّبَقَ): عَظْمٌ رَقِيقٌ يفصل بين كلِّ فِقَارَيْنِ⁽¹⁾. وإذا ضرب الضَّارِبُ بالسَّيْفِ فأصاب هذا المِفْصَلَ، قيل (طَبَّقَهُ)، وَلَمَنْ يصيب الأمور برأيه بدَقَّةً أَنَّهُ (طَابَقَهُ). ومنه أيضًا قيل للَسَّمَاوَاتِ (طَبَّاقًا)؛ لمطابقة بعضها بعضًا، كأنَّ بعضها غطاءٌ للآخرى⁽²⁾.

يتبيَّن من هذه الاستعمالات أَنَّ الدَّلالة اللُّغويَّةَ للمطابقة: الموافقة بدَقَّةٍ وإحكام. ومن التَّعبيرات الحديثة: صورة طَبَّقَ الأصل، إذا كان الشَّيْءُ مُنْتَزَعًا من شيءٍ آخر ومائله في مواصفاته.

ولا تبعد الدَّلالة الاصطلاحية للمطابقة، فلا تبعد كثيرًا عن دلالتها اللُّغويَّةَ على اختلاف الحقول العلميَّة التي تستخدم مصطلح (المطابقة) للإشارة إلى دلالة خاصَّة لديها مثلما في علم البلاغة، وعلم أصول الفقه، وعلم النُّحو.

فالمطابقة لدى علماء أصول الفقه والدَّلالة: هي دلالة اللَّفْظ على معناه بالوضع، أي موافقة الدَّالِّ للمدلول بتمامه، مثل دلالة لفظ «إنسان» على المخلوق النَّاطِق. ودلالة المطابقة - في هذا السِّياق - قِسْمٌ من أقسام الدَّلالة اللَّفْظية الثَّلاث: دلالة التَّضَمُّن، ودلالة الالتزام⁽³⁾.

(1) الزبيدي، تاج العروس، 6437.

(2) الفيروز أبادي، القاموس المحيط، 1166-1167.

(3) الجرجاني، علي بن محمد بن علي. التعريفات، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1405)، 140/1.

وتُستعمل المطابقة في علم البلاغة في أبواب مختلفة، منها قولهم في تعريف البلاغة إنها «مطابقة الكلام لمقتضى الحال». ومنها (الطِّباق أو المطابقة)، وهو الجمع بين الشَّيئين أو أكثر وبين أضدادها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة: 82)، وهو من المحسنات المعنوية في علم البديع⁽¹⁾.

أمَّا (المُطابقة) في علم النحو، وعليها مدار هذه الدراسة، فيرادُ بها توافق الفصائل النحوية في الكلام وجعلها على نحوٍ منطقيٍّ يساعد على فهم المعاني وتوضيحها. ومن ذلك قولهم: القاعدة في الصِّفة أن تُطابق موصوفها في تذكيره وتأنيثه، وفي باب البدل نوعٌ من البدل يقال له (البدل المطابق)، وهو بدل الشَّيء مما هو مطابقٌ معناه، ومثاله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: 6، 7) فالصُّراط الثاني بدلٌ مطابقٌ من الصُّراط الأوَّل، أي أن الصُّراط الأوَّل والصُّراط الثاني كالشَّيء الواحد.

وتُعد المطابقة قيماً من القيود اللازمة في نظم الكلام، إذ بها تتحدَّد العلاقات بين الكلمات وعناصر الجمل، وبها يتَّضح المعنى ويقوى، وبسقوط المطابقة بين الوحدات الكلمية يتعسَّر الفهم، وتسقط العلاقات المنطقية بين الوحدات في الجملة، ولا تنفع -في تلك الحال- القرائن المعنوية في الفهم. والمطابقة من القواعد الكلية التي تنطوي عليها اللُّغات الإنسانية على تفاوتٍ بين تلك اللُّغات في العناصر اللُّغوية المحقَّقة للمطابقة.

ومدار المطابقة في العربية الصيغ الصرفية، والضَّمائر، وتكون في الوحدات الآتية:

1 - العلامة الإعرابية: وهي الرِّفع، والنصب، والجرّ، والجزم، وما ينوب عنها.

(1) المصدر السابق، 1/ 279.

- 2 - الشَّخص: ويكون إما متكلماً يحكي عن نفسه، أو مخاطباً يحاور غيره، ويوجه إليه الكلم، أو غائباً يُتحدَّث عنه وتسند إليه الأفعال.
- 3 - العدد: وهو عدد الأشخاص أو الأشياء المتكلمين أو المخاطبين أو الغائبين. وهو ثلاث مستويات: الأفراد، والتثنية، والجمع.
- 4 - الجنس أو النوع: وهو نوع الشَّخص أو الأشخاص الذين عليهم مدار الكلام، ويقع النوع في مستويين: المذكر والمؤنث، حقيقياً أو مجازياً.
- 5 - التَّعيين: وهو مدى العلم بالشخص أو الأمر المتحدَّث عنه، ويكون إما معرّفاً أو منكراً⁽¹⁾.

وأبواب النُّحو ومسائله برمتها توضيحٌ لقانون المطابقة بين الوحدات الكلامية، كما في المطابقة بين الحروف العاملة، وفي مطابقة الموصول للاسم المخبر عنه به؛ فإن كان الاسم مفرداً كان الموصول مفرداً، وإن كان مذكراً كان الموصول مذكراً.. وهكذا، وفي باب الصِّفة والموصوف، والعدد والمعدود، والتوكيد... الخ.

والسرُّ في ضرورة المطابقة بين تلك الوحدات، كالصِّفة والموصوف مثلاً، في الجنس وفي العدد وفي التَّعيين، أن الصِّفة هي عين الموصوف في المعنى، ويستحيل -عقلاً- أن يتفاوت الشيء الواحد في الجنس والعدد والتَّعيين، كأن يكون مذكراً مؤنثاً، أو واحداً مجموعاً، أو معروفاً منكوراً في الوقت نفسه⁽²⁾. فالمطابقة -أساساً- تحقّق الانسجام بين الوحدات الكلامية في التركيب.

بتدبر أسلوب القرآن الكريم، نجد أنه قد عدل عن المطابقة الظاهرة بين الكلمات في مواضع منه، وقد أطلق اللُّغويون مصطلحاتٍ متعدّدة على هذه الظاهرة في اللغة مثل: العدول، والالتفات، والانتقال، والتَّحويل...⁽³⁾. وهي

(1) يراجع: تمام حسان، العربية معناها ومبناها، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1985)، ص212، 213.

(2) اللباب في علل البناء، ج1/405.

(3) لهذه المصطلحات وأمثالها استخداماتٌ متعددة في مختلف علوم العربية، ولها معانٍ=

ظاهرة تدعو إلى التوقف عندها وإمعان النظر فيها، ولعلها داعية لكثير من المغرضين وقاصري النظر في الأساليب العربية للظعن في القرآن الحكيم، وادّعاء الخطأ فيه والانحراف عن الأسلوب العربي الصحيح. كما أن بعض المؤمنين قد يقفون حيارى أمام تلك الاستعمالات ويظنون زمناً لا يدرون لها سبباً شافياً، وقد يُخرجون عندما يعترض عليهم معترض مغرض. كما لا ينشطون لسؤال أهل الذكر عنها، ويبقون بين حيرة في تلك الأمور، وبين إيمانٍ قاطعٍ بانتفاء الخطأ عن القرآن الكريم.

وقبل البحث في بعض تلك المواضع، ينبغي الإشارة إلى حقيقتين اثنتين:

أولاهما: قصديّة العدول عن التّطابق في الأسلوب القرآنيّ، وتلك مسلّمة طبيعيّة، لأن القرآن الكريم، بوصفه قمّة الكمال اللّغويّ، لا يُتصوّر منه أن يغفل تطبيق تلك القوانين الكلّية الجليّة في اللغة العربية التي تحرص كلّ الحرص على المطابقة.

أخراهما: إعجازيّة الأسلوب في ترك التّطابق في بعض المواضع، حيث نجد أن ترك التّطابق قد أضفى على النصّ القرآني صبغة إعجازيّة ملفتة للنظر، تبرز لطائف لغويّة، وتفتح آفاقاً تأمليّة فسيحة أمام المفسّر لكلام الله، ليبقى على مداومة نظر، واستكشاف لأسباب عدم التّطابق وتعليل ذلك تعليلاً يفضي به إلى اكتشاف معاني عميقة. فلو اكتفى النصّ بالتّطابق الظاهر المألوف لما دعا ذلك إلى تنبيه والتفات، وصدمة مرغوب فيها لحسّ المتلقّي تحثّه على البحث وإيجاد بعض النّكت والمعاني اللّطيفة في الأسلوب القرآني.

= متعددة في العلم الواحد، فالانتقال مثلاً في باب الحال، من شروط صحّة الحال (الثبات واللّزوم) أي أن لا يكون الحال ثابتاً متلازماً، فالحال المتنقل، نحو: جاء زيدٌ ضاحكاً، فصفة الضحك غير لازمة لزيد، وإنما هي حالة معترضة تزول عنه بعد حين، ولا يجوز قولنا: * جاء زيدٌ طويلاً؛ لأنّ الطول صفة لازمة لزيد لا تزول عنه. ينظر: شرح شذور الذهب، ج 1/ 322.

المبحث الثاني: الإشكال

المشكِل: اسم فاعل على وزن (مُفْعِل) وفعله (أفْعَل) دال على الدُّخول في الشيء، نحو: (أَحْرَمَ) الرَّجُل، أي: دخل في الإحرام؛ و(أَشَامَ) أي: دخل في الشَّام. وهو مأخوذٌ من قول القائل: أَشْكَلُ عليَّ كذا وكذا، أي: التَّبَس ودخل في أشكاله وأمثاله. يقول ابن الأنباري (ت328هـ): «قد أَشْكَل عليَّ الأمرُ، قال أبو بكر، معناه: قد اختلط بغيره»⁽¹⁾. ويقول ابن منظور (ت411هـ): «أَشْكَل الأمر: التَّبَس، وحرف مشكل: مشتبهُ مُلتبس»⁽²⁾. ويقال: أَشْكَل الأمر، وَأَشْكَلَت الأخبار وأَحْكَلْتُ، إذا اختلطت، و(الأشْكَل) عند العرب: اللَّونان المختلطان، والدَّم المشكل: ما فيه بياضٌ وحمرة⁽³⁾. وبمثل ذلك يقول الزبيدي (1205هـ): «المشكل: الدَّاخِل في أشكاله، أي: أمثاله وأشباهه»⁽⁴⁾. فالمشكل -إذن- يدور حول معنى الإبهام والتَّداخل وصعوبة التَّمييز بين العناصر.

أمَّا في الاصطلاح والاستعمال، فإنَّ مصطلح «مشكل» يرد في عدَّة علوم شرعيَّة، منها: علوم القرآن والتفسير، وعلم الحديث، وأصول الفقه، وعلى الرُّغم من تباين تعريفات العلماء لهذا المصطلح، فإنَّها تجتمع في المعنى اللُّغوي العام المذكور.

في أصول الفقه: من تعريفات المشكل عند الأصوليين قول الباجي (ت474هـ): «المتشابه: هو المشكل الذي يُحتاجُ في فهم المراد به إلى تفكُّرٍ

(1) أبو بكر محمد بن أبي محمد القاسم بن محمد الأنباري النحوي. الزاهر في معاني كلمات الناس، 2/ 151.

(2) لسان العرب، مادة (شكل)، 4/ 2310.

(3) ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب، 1/ 357. (شكل).

(4) أبو الفيض، محمد بن محمد الحسيني، تاج العروس، 14/ 381.

وتأمل⁽¹⁾. أما الشاطبي (ت790هـ)، فيقول: «ومعنى المتشابه: ما أشكل معناه، ولم يبين مغزاه»⁽²⁾. أو أن المشكل هو: «ما ازداد خفاءً على الخفي، كأنه بعدما خفي على السامع حقيقته دخل في أشكاله حتى لا يُنال المراد إلا بالطلب ثم بالتأمل حتى يتميز عن أمثاله»⁽³⁾. والمشكل -عند الأصوليين- من أقسام الألفاظ من حيث خفاء دلالاتها مثل: الخفي، والمجمل، والمتشابه؛ لذلك تظهر هذه الكلمات في تعريفات المشكل، منها: «المشكل ما خفيت دلالة على المعنى المراد منه خفاءً ناشئاً من ذات الصيغة أو الأسلوب ولا يدرك إلا بالتأمل والاجتهاد»⁽⁴⁾.

فالمشكل -إذن- ما اشتبه المراد منه بسبب تداخله مع غيره من الألفاظ والمعاني، وهو فوق الخفي في درجة الخفاء؛ فلا يفهم المراد منه إلا بدليل خارجي. أما الخفي فإنه ينال بمجرد الطلب. أما المجمل فلا يتوقف فهم المراد منه إلا بالاستفسار من الشارع نفسه، أي لا يمكن إدراك المعنى من الألفاظ والأساليب المجملة إلا ببيان المشرع. والمتشابه: ما لا سبيل إلى فهم المراد منه وإزالة خفائه. فالألفاظ من حيث خفاء معانيها على الترتيب الآتي: خفي - مشكل - مجمل - متشابه⁽⁵⁾.

في علم الحديث: يردُّ البحث في المشكل في علم الحديث أيضاً، وذلك في نواح عدّة: السند، أو اللفظ، أو المعنى، أو الأحكام الفقهية المتعلقة بالحديث⁽⁶⁾. غير أن الاهتمام بالمشكل من حيث المعنى أكبر، وفي ذلك يقول

(1) أبو الوليد، إحكام الفصول في أحكام الأصول، 1/ 176.

(2) الشاطبي، أبو إسحاق، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الاعتصام، 2/ 736.

(3) توفيق رفيق العجم. موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين، (بيروت: مكتبة لبنان، ط1، 1998)، ج2، 1428، 1429.

(4) المرجع السابق، 2/ 1430.

(5) صلاواتي، ياسين. الموسوعة العربية الميسرة والموسوعة، (بيروت: مؤسسة التاريخ الإسلامي، 2001)، ج2/ 3245.

(6) المنصور، عبد الله بن حمد. مشكل القرآن الكريم: بحث حول استشكال المفسرين لآيات القرآن الكريم أسبابه وأنواعه وطرق دفعه، (الرياض: دار ابن الجوزي، 1426هـ).

ابن الجوزي (ت 597هـ)، في المقدمة: «ومعلوم أن شرح المعنى أمس، وكشف الإشكال المعنوي أجدر بالبيان وأحق»⁽¹⁾. وبمثل ذلك قال الإمام الطحاوي (ت 321هـ)، في مقدمة كتابه عن المشكل: «وإنني نظرت في الآثار المروية عنه عليه السلام بالأسانيد المقبولة التي نقلها ذوو الثبوت فيها، والأمانة عليها، وحسن الأداء لها، فوجدت فيها أشياء مما يسقط معرفتها والعلم بما فيها عن أكثر الناس، فمال قلبي إلى تأملها وتبيان ما قدرت عليه من مشكلها، ومن استخراج الأحكام التي فيها، ومن نفي الإحالة عنها»⁽²⁾. ومن أشهر الكتب في هذا الفن كتاب «مشكل الحديث وبيانه» لابن فورك (ت 406هـ)⁽³⁾. وكتاب «إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات» لابن اللبان (ت 749هـ)⁽⁴⁾.

في علوم القرآن: المشكل في القرآن، هو «ما يوهم التعارض بين الآيات» على أي نحو كان، وهذا الإطلاق باعتبار المتلقي وليس النص القرآني في حد ذاته، فحاشا كلام الله أن يقع فيه التعارض، وإنما هو إشكال يتوهمه المتلقي نتيجة لقصور فهمه، ومحدودية إدراكه؛ لذلك جعله السيوطي نوعاً من أنواع علوم القرآن، وعنون له، بقوله: «النوع الثامن والأربعون في مشكله وموهم الاختلاف والتناقض»، فنص على الإيهام، وهو إدراك الشيء على غير حقيقته لقريئة قائمة⁽⁵⁾. كذلك للزركشي بابٌ عنون له بقوله: النوع الخامس والثلاثون: معرفة موهم المختلف، وعرفه بقوله: «وهو ما يوهم التعارض بين آياته، وكلام الله جلّ جلاله منزّه عن الاختلاف... ولكن قد يقع للمبتدئ ما يوهم اختلافاً وليس به، فاحتيج لإزالته»⁽⁶⁾. كذلك في النوع والسادس والثلاثين من علوم القرآن، ذكر الزركشي: معرفة المحكم من المتشابه، وفيه قال:

(1) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي محمد القرشي. كشف المشكل من حديث الصحيحين، 6/1.

(2) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي. شرح مشكل الآثار، 6/1.

(3) أبو بكر محمد بن الحسن الأصبهاني.

(4) بتحقيق: فريد مصطفى سلمان، (الرياض: دار طويق، 1995م).

(5) الإتيان في علوم القرآن، 72/2.

(6) البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبي الفضل الدمياطي (القاهرة: دار الحديث،

1427هـ/2006م)، ص 357.

«والمتشابه مثل المشكل»، وقال أيضًا: «وكذلك سياق معاني القرآن العزيز قد تتقارب المعاني ويتقدّم الخطاب بعضه على بعض، ويتأخّر بعضه بعض؛ لحكمة الله تعالى في ترتيب الخطاب والوجد، فتشتبك المعاني وتشكل إلا على أولي الألباب، فيقال في هذا الفن متشابهٌ ببعضه ببعض»⁽¹⁾. وذكر الزركشي تحت هذا الباب بعض المباحث عن معنى الاختلاف، وصوّره، كالإشكال بين آية وآية، وآية وأثر نبويّ، وذكر أسبابه، وأورد بعض الأمثلة التطبيقية للآيات المستشكلة وقدم بعض الإجابات عنها.

وتتفرّع مباحث المشكل في علوم القرآن إلى مباحث فرعية بحسب مباحث علوم القرآن نفسها، من ذلك: المشكل في غريب القرآن، والمشكل في المعنى الكلي للآيات، والمشكل في الإعراب، وهذا الأخير هو محلّ اهتمامنا.

المشكل في الإعراب: هو التراكيب التي تخالف في ظاهرها القواعد اللغوية أو المعاني المنطقية المتعارف عليها في اللغة العربية، وقد تغمض على بعض الناس معرفة توجيهها وحقيقتها. وبناء على ذلك، فإنّ توضيح تلك الإشكالات يؤكّد للحيران حيال تلك التراكيب، موافقتها للقواعد اللغوية المعيارية، وفوق ذلك، يؤكّد له تميّز الأسلوب القرآني في استخدام تلك التراكيب على غيره من الأساليب البشرية.

هذا، ولا شكّ أنّ الإعراب هو الأداة الأولى لبيان المعاني، وتمايز الجمل، وأنّ أيّ إشكالٍ يعتري الإعراب يمثلّ عقبة لمن لا يدرك فحوى الإشكال. يفصح مكي بن أبي طالب عن هذا المعنى في فوائد معرفة المشكل في الإعراب فيقول: «بمعرفة حقائق الإعراب تُعرف أكثر المعاني، وينجلي الإشكال، فتظهر الفوائد، ويُفهم الخطاب، وتصحّ معرفة حقيقة المراد». كما ذكر الدافع له لتأليف كتابه في هذا الفنّ بقوله: «وقد رأيتُ أكثر من ألف الإعراب طوّله بذكره لحروف الخفض وحروف الجزم، وبما هو ظاهرٌ من ذكر الفاعل والمفعول... وأغفل كثيرًا ممّا يُحتاج إلى معرفته من المشكلات، فقصدتُ في هذا الكتاب إلى تفسير مُشكل الإعراب، وذكر علّله، وصعبه،

(1) البرهان في علوم القرآن، 2/ 201.

ونادره؛ ليكون خفيف المحمل، سهل المأخذ، قريب المتناول لمن أراد حفظه والاكتفاء به، فليس في كتاب الله عز وجل إعرابٌ مشكلٌ إلا وهو فيه منصوصٌ، أو قياسه موجودٌ فما ذكرته»⁽¹⁾.

وعادةً ما يشير المفسرون إلى تلك المواضع الموهمة للإشكال والتعارض من حيث الإعراب في مواضعها في القرآن، من ذلك قول الشوكاني (ت1250هـ)، في معرض تفسيره لقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرَهُ﴾ (الأنعام: 141). قال: «قال الزجاج: وهذه مسألة مشككة في النحو، يعني انتصاب «مختلفاً» على الحال؛ لأنه يقال: قد أنشأ ولم يختلف أكْلِها، فالجواب...»⁽²⁾.

ويدلُّ على أهمية هذا العلم كثرة المصنّفات فيه، من ذلك: كتاب: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ت276هـ)، وكتاب: «تفسير مشكل إعراب القرآن» للقاضي أبي الفرج المعافى بن زكريا النهرواني الحريري (ت390هـ)، وهو مخطوط. وكتاب «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب القيسي (ت437هـ)⁽³⁾. وكتاب «تفسير المشكل من غريب القرآن العظيم»، لمكي أيضاً⁽⁴⁾. وكتاب «الفوائد في مشكل القرآن» للعز بن عبد السلام (ت660هـ)، و«البستان في إعراب مشكلات القرآن»، لابن الأحنف أحمد بن أبي بكر بن أبي الهيثم الجيلي (ت717هـ)⁽⁵⁾. وكتاب «تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء». لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت728هـ)، وكتاب «إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات» لمحمد بن أحمد الإسعدي (ت749هـ). هذا عن الكتب المتخصصة في مشكل إعراب القرآن فحسب.

(1) مكي بن أبي طالب القيسي. مشكل إعراب القرآن ج1، تحقيق: حاتم الضامن، (دار البشائر للطباعة والنشر، 1424هـ/2003)، ص101-102.

(2) فتح القدير، 2/236.

(3) تحقيق: حاتم الضامن.

(4) تحقيق: حاتم الضامن، وزارة الإعلام، بغداد، 1975م، وتحقيق آخر: ياسين السواس، دار المأمون للتراث بدمشق.

(5) مخطوط بمكتبة الجامع الكبير في صنعاء، 1/105-106، [86]، 347 ورقة.

تجدر الإشارة إلى مسألة مهمة في هذا الباب، وهي أنه قد يتبادر إلى بعض الأذهان أن في محاولة توضيح المواضع التي قد تُشكل على بعض الناس وبيان موافقتها للقواعد اللغوية والمعاني المنطقية والبلاغية الدقيقة فيها، نزولاً بالنص القرآني عن مرتبته، وجعله تابعاً للقواعد اللغوية، مستمداً شرعيته ومقبوليته من تلك القواعد اللغوية التي اكتشفها اللغويون بعد نزول القرآن.. إن هذا الاعتراض وجيه، غير أن هدف هذه الدراسة إنما هو التأكيد على مدى الانسجام والوئام القائم بين القرآن الكريم والقواعد اللغوية التي استنبطها العلماء من مجموع اللغة العربية بما فيه القرآن الكريم مصدراً أول في عملية الاستنباط اللغوي. صرح مكي بذلك في مقدمة كتابه في إعراب القرآن إذ قال: «فليس في كتاب الله عز وجل إعرابٌ مشكلٌ إلا وهو منصوصٌ أو قياسه موجودٌ فيما ذكرته، فمن فهمه، كان لما هو أسهل مما تركت ذكره اختصاراً أفهم، ولما لم نذكره مما ذكرنا نظيره أبصر وأعلم»⁽¹⁾.

فائدة أخرى ذكرها أبو السعود (ت 982هـ)، في دراسة ظاهرة الإشكال في القرآن الكريم وفي النصوص الشرعية، حين ذكر أن المشكل يُطلق على كل غامض وإن لم يكن غموضه من جهة النص، وزاد قوله: «وإنما جعل ذلك كذلك ليظهر فضل العلماء ويزداد حرصهم على الاجتهاد في تدبرها وتحصيل العلوم التي نيط بها استنباط ما أريد بها من الأحكام الحقة، فينالوا بها وبإتباع القرائح في استخراج مقاصدها الرائفة، ومعانيها اللائقة، المدارج العالية بالتوفيق بينها وبين المحكمات من اليقين والاطمئنان إلى المعارج القاصية»⁽²⁾. فالفائدة العملية المباشرة في دراسة المشكل، دفع العلماء إلى مزيد من تدبر النصوص تدبراً يفضي إلى معرفة حقائق تلك النصوص والوصول إلى اليقين الإيماني. وحينئذ لا يغدو محل الإشكال مزلة للشك والشبهة في النص الشرعي، وإنما مرقاة إلى الإيمان واليقين.

(1) مكي، بن أبي طالب القيسي أبو محمد. مشكل إعراب القرآن، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 2، 1405هـ)، 1/ 64.

(2) تفسير أبي السعود، 2/ 8.

الفصل الثالث

إشكالات في العدد

المبحث الأول: المفرد في موضع التثنية

1 - ورود الضمير مفردًا في (فتاب عليه) بعد ذكر آدم وحواء

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥) فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 35-37).

يدعو أفراد الضمير في قوله (فتاب عليه) إلى تأمل حيث إن الآيات السابقة تشير إلى مشاركة حواء لآدم في التكليف والمعصية، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، وقوله على لسانهما حال الاستغفار والتضرع إلى الله ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ فلم خصَّ آدم بالذكر حال التوبة والمعروف أن التوبة لهما جميعاً؟

للإجابة عن هذا التساؤل آراء:

- يذهب القرطبي (محمد بن أحمد، ت 671)، إلى تعليل ذلك بأن آدم خوطب في أول القصة بقوله (اسْكُنْ) فكان اكتمال القصة بذكره وحده أيضاً في التلقي والتوبة⁽¹⁾. ولا يضير ذلك أن تكون التوبة عليه وعلى حواء سواء بسواء.
- قيل لأن المرأة حرمة مستورة، فأراد الله سترها حال المعصية، فلم يذكرها إذ قال: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (طه: 121). ومعلوم أن المعصية كانت منهما على السواء.
- وقيل لأن المرأة تابعة للرجل في غالب الأحيان؛ لذلك لم تذكر.

(1) تفسير القرطبي، ج 1/ 325.

- وذهب آخرون أن آدم ذكر للأهمية، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ (الجمعة: 11)، ولم يقل: إليهما بالتشنية إشارة إلى التجارة واللهو؛ لأن التجارة كانت مقصود القوم، أو أن اختصاصه بالذكر كان للإيجاز والاختصار. وعُدَّ منه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: 62). ومثاله في الشعر قول عمرو بن أحمَر: [طويل]

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئًا وَمِنْ فَوْقِ الطَّوِيِّ رَمَانِي
والأصل أن يقول: بريئين، إشارة إلى الشاعر نفسه ووالده.

2 - ورود الضمير المفرد (وإنها) بعد ذكر الصبر والصلاة

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: 45).
اختلف المفسرون في معاد الضمير في هذه الآية في قوله (وإنها)، أهو على الصبر أم على الصلاة، أم عليهما جميعًا؟ ومن أقوالهم في ذلك:
أولاً: عود الضمير على واحدٍ منهما:

- قيل على الصلاة وحدها، لأنها تكبر على النفوس، وتشق عليها (*). وفسر

(*) قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾. المراد بها أنها شاقة ثقيلة، ومنه قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ (الشورى: 13)، ويقال: كبر عليّ هذا الأمر، أي: شقّ عليّ وصعب. وههنا تجدر الإشارة إلى إشكال ألا وهو أنه يحتمل أن يعترض معترض على هذا المعنى ويرى أنه لو كان الصبر والصلاة سهلة على الخاشعين، شاقة على غيرهم؛ فالأظهر أن يكون ثواب الخاشعين ودرجاتهم أقل، لأن الصبر والصلاة خفيفة عليهم.

يرد على هذا الاعتراض المحتمل أن المشقة والثقل هنا هو الناشئ عن قلة إيمان بثواب الصبر والصلاة، وخفة الخوف من مغبة تركهما، وحينئذ يصعب على الإنسان القيام بهما، وهم الذين وصفهم المولى بقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا﴾. أما الخاشع الذي تملكه الطمع في لقاء ربه، والحرص على ثواب الصبر والصلاة، فإنه يقبل عليهما بكل خفة ونشاط، ولا يشعر في أدائهما بمشقة. وقد ورد في الأثر قول النبي ﷺ لبلال: «يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها». سنن أبي داود، (ح: 4985)؛ والمعجم الكبير، (ح: 6215)، وصححه الألباني.

الصَّبر هنا بالصَّوم، ومنه سُمِّي شهر رمضان شهر (الصَّبر). أما إكبار الصلاة على الصَّوم، فقد عُلِّل ذلك بأنَّ الصائم يمنع شهوة الطَّعام والشراب والمعاشرة، لكنه ينبسط فيما عدا ذلك من الشَّهوات والمسليَّات كالمشي ومحادثة النَّاس والنَّوم... أما المصلِّي فإنَّه يقيّد جميع شهواته، ويتوجَّه إلى مولاه بجميع جوارحه، وليس من منع شهوة واحدة أو بضع شهوات كمن منعها جميعاً.

- وقيل إنَّ الصَّبر داخلٌ في الصَّلَاة، لذلك عاد عليها الضَّمير، ومن نظائر ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ (التوبة: 62)، حيث عاد الضَّمير على الاسم الأوَّل فحسب، وجاز ذلك لدخول رضا الرِّسول في رضا الله عزَّ وجلَّ.

ثانيًا: عود الضَّمير عليهما معًا:

- ذهب فريقٌ إلى أنَّ الضَّمير عائد على الصَّبر والصَّلَاة معًا، ولكنه عن الأغلب ألا وهو الصَّلَاة. وذكروا من نظائر ذلك في التَّنزيل الحكيم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: 34)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا﴾ (الجمعة: 11)، حيث عاد الضَّمير على الفضة لأنها الأغلب والأعمُّ، وعلى التجارة؛ لأنها الأفضل والأهمُّ.

ومما ورد من ذلك في الشعر قول حسان بن ثابت: [خفيف]

إِنَّ شَرْخَ الشَّبَابِ وَالشَّعْرَ الْأَسَدَ — وَدَ مَا لَمْ يُعَاصِ كَانَ جُنُونًا⁽¹⁾
حيث ردَّ الشاعر الضَّمير إلى الشَّبَاب فقط، ولم يقل (يُعاصيا) لأنَّ الشَّعْرَ داخلٌ في الشَّبَاب، والصَّبر كذلك في الآية الكريمة داخلٌ في الصلاة، فعاد عليها الضَّمير دون الصَّبر. ومن ذلك قول ضابئ بن الحارث البرجمي: [طويل]

فَمَنْ أَمَسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ فَإِنِّي وَقَيَّارُ بِهَا الْغَرِيبِ⁽¹⁾
 وكان الأظهر تثنية الضمير في اسم إنَّ فيقال (لَغَرِيبَانِ)، غير أنَّه اكتُفي
 بالإفراد، أو عود الضمير على أحد الاسمين؛ لأنَّ (قَيَّار) ناقة الشاعر داخلة
 في حكم صاحبها.

- وقيل: الصَّبر والصَّلاة أريد بهما (العبادة) فعاد عليها الضمير، فيكون عود
 الضمير حيثُذ على اسم مؤنَّث غير مذكور، وسوَّغ ذلك اعتبار المعنى.

ثالثاً: عود الضمير على غيرهما:

- قيل إنَّ الضمير عائدٌ على المصدر وهي (الاستعانة) الذي يقتضيها قوله
 تعالى في مستهل الآية: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى
 الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: 45)، فكأنَّه قال: واستعينوا بالصَّبر والصَّلاة، وإنَّها
 (أي: الاستعانة) لكبيرة.

- وقيل إنَّ الضمير عائدٌ على الكعبة، لأنَّ الأمر بالصَّلاة إنَّما هو إليها. لكن
 ذلك احتمالٌ بعيدٌ⁽²⁾.

- وذهب بعضهم إلى أنَّ الضمير (إنَّها) عائدٌ على كلِّ واحدٍ منهما، كأنه
 قال: وكلُّ خصلةٍ منهما (الصَّبر والصَّلاة) لكبيرة. ومن نظائر ذلك لديهم
 قوله تعالى: ﴿كَلَّا الْفَجَنَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظَلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ (الكهف: 33)،
 (أي: أكل كلُّ واحدٍ منهما)⁽³⁾.

- يرى آخرون أنَّ الواو هنا بمعنى (على) أي: استعينوا بالصَّبر على
 الصَّلاة، وعليه لا يكون إشكالٌ أو خلاف في أنَّ الضمير عائدٌ على
 الصَّلاة. وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرَ عَلَيْهَا لَا تَسْلُكَ

(1) الأشباه والنظائر، ج 1/ 103؛ أوضح المسالك، ج 1/ 356؛ رصف المباني، ص 267؛
 الأصمعيات، ص 184؛ الإنصاف، ص 94؛ تخليص الشواهد، ص 386؛ خزانة
 الأدب، ج 9/ 326؛ شرح أبيات سيويه، ج 1/ 369؛ شرح شواهد المفصل، ج 8/ 86؛
 الشعر والشعراء، ص 358.

(2) القرطبي، ج 1/ 374.

(3) البغوي، ج 1/ 68.

رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّقْوَى (طه: 132) (1).

- ومن تلك الأقوال إنه حصل هنا حذف اختصاراً، وتقدير الكلام: واستعينوا بالصبر، وإنه لكبير، واستعينوا بالصلاة وإنها لكبيرة، ثم حذف أحدهما (وهو الأول) اختصاراً.

3 - ورود الإشارة مفرداً في الفعل (يعلمه) بعد ذكر النفقة والنذر

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (البقرة: 270).

أي: وأي شيء أنفقتموه في سبيل الله من نفقة أو نذر نذرتموه لله على أنفسكم من المأمورات الشرعية، والعبادات أو الطاعات؛ فأوفيتهم به، فإن الله تعالى عالم بنواياكم، وبما تنفقونه؛ فيجازيكم على وفائكم جزاءً حسناً. أما المانعون زكاة أموالهم، والناكثون عهودهم، غير الموفين بنذورهم، فإنما هم ظالمون لأنفسهم، وليس لهم من الله أعوان ينصرونهم من عذاب الله إن شاء أن يعذبهم على تقصيرهم في حقوق الله وفي حقوق أنفسهم.

والإشكال في هذه الآية أن الضمير في (يعلمه) مفرد ولم يثن فيقال (عليهما)، وهو مسبوق بشيئين اثنين هما: النفقة والنذر. فإلام يعود الضمير الهاء؟ في تعليل ذلك آراء:

الضمير عائد على (ما) الموصوليّة:

- قيل إن الضمير عائد على موصول غير مذكور، كأنه قال: فإن الله يعلم ما أنفقتم من نذر أو نفقة. فالهاء عائد على (ما) الموصوليّة غير المذكورة في الآية (2). ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ (البقرة: 231). فالضمير عائد على (ما)

(1) البغوي، ج 1/ 68.

(2) الطبري، ج 3/ 92.

الموصولة السابقة عليها، وهي مذكرة بخلاف (ما) التي قيل إن الضمير في (يعلمه) عائد عليه.

الضمير عائد على الاسم الأخير فقط:

- يرى الأخفش (أبو الخطاب، ت 177هـ) وغيره أن الضمير عائد على الاسم الأخير فقط أي (نذر)، وهو سائغ، ومثال ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (النساء: 112). فالضمير في (به) عائد على الإثم دون الخطيئة.

جملة محذوفة:

- ذهب النحاس (أبو جعفر، ت 338هـ)، إلى أن التقدير: (وما أنفقتم من نفقة فإن الله يعلمها، أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه)؛ فحذفت جملة الجواب الأول، واستغني عنها بالجملة الأخيرة. ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: 34)⁽¹⁾.

العطف بـ(أو) يقتضي أحد الشيئين:

- قيل إن العطف هنا بـ(أو) وهي المقتضية لأحد الشيئين، لا يجوز فيها التثنية، نحو: إن جاء زيد أو عمرو أكرمتهم. ولا يجوز في هذه الحالة أن يقال: أكرمتهما، لأن معنى الكلام حينئذ يستحيل ويكون مغالطة؛ إذ إن أحدهما هو الآتي، وليس كلاهما. أما إذا اختلف جنس الشيئين المذكورين، فيجوز إما مراعاة جنس الأول، أو الثاني، فيقال: موسى أو فاطمة حاضر، كما يقال: فاطمة أو موسى حاضرة. ولعل هذا الرأي الأخير أوجه الآراء في هذه المسألة.

يقول القرطبي (محمد بن أحمد، 671هـ): إن سبب عدم ثنية الضمير العائد أن من عادة العرب إذا ذكر اسمان، ثم أخبر عنهما، وكانا في الحكم

(1) إعراب القرآن، ج 1/ 290.

سواء، جازت الإضافة إلى أحدهما أو إلى كليهما. فيقال: مَنْ كان عنده غلامٌ وجاريةٌ فليُحسنْ (إليه أو إليها) أو (إليهما)⁽¹⁾.

وذكروا أنَّ من نظائر ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: 45). ينظر الفقرة (رقم [2]) من هذا الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ (النساء: 135). ينظر الفقرة (رقم [35]) من هذا الكتاب.

4 - إيراد الضمير (به) بعد مذكورين

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: 36).

أفرد الضمير في (به) مع أنه تقدّمه شيان وهما: (ما) الموصولة، و(مثله) وكان الأصل أن يقال: ليفتدوا (بهما) لكن الآية وردت بإفراء الضمير. فما السبب في ذلك؟

- قيل إنَّ (ما) و (مثل) متلازمان فكأنهما شيءٌ واحد، والمتلازمان يعطيان حكماً واحداً. تقول العرب: رَبُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مَرَّ بِي، أي: مرّاً بي؛ لتلازم اليوم واللييلة.

- يذهب الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر، ت 538هـ)، في بيان ذلك إلى جواز كون الواو في (ومثله معه) بمعنى: (مع). ويتعيّن حينئذٍ إفراء الضمير في (مثله) ويكون تقدير الكلام: و(مع) مثله. غير أن هذا القول قد رُدَّ لأنّه يؤدّي إلى الجمع بين معيّتين فكأن معنى الكلام: مع مثله معه، أي: مع مثل ما في الأرض مع ما في الأرض. والرأي الأول القائل بتلازم الكلمتين واعتبارهما كالكلمة الواحدة أرجح.

(1) القرطبي، ج 5 / 78.

5 - الإشارة ب (أكله) المفرد بعد النخل والزَّرع المثني

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتَ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: 141).

في الآية السابقة ورد ذكر شيئين هما: النخل والزَّرع، وهما اسما جنسٍ تقدَّما على قوله (مختلفاً أكله)، والهاء عائِدٌ على سابقٍ يحتمل أن يكون ذلك العائد الاسم السابق عليه، وعلى ذلك كان المتوقع أن يتطابق الضمير مع الاسم السابق فيكون بالتثنية إشارةً إلى النخل والزَّرع السابقين. وفي توجيه أفراد الضمير أقوال منها:

- الضمير عائِدٌ على أحد الأمرين: ذهب بعضهم إلى أن الضمير في (أكله) (*) عائِدٌ على الزَّرع فقط، وتقدير الكلام: والنخل مختلفاً أكله، والزَّرع مختلفاً، فحذفت الحال من الجملة الأولى وهي حال (النخل)، لدلالة المذكور عليها.

- الضمير عائِدٌ على الاثنين: يذهب الزمخشريُّ إلى أن الضمير يعود على (النخل)، والزَّرع داخلٌ في حكمه⁽¹⁾. وقد اعترض أبو حيان على هذا الرأي، لأنَّ العطف هنا بالواو، ولا يجوز في هذه الحالة أفراد ضمير المتعاطفين⁽²⁾.

- وشبهة بهذا الرأي ما قرَّره الشوكاني أن أفراد الضمير في (أكله)، وهو عائِد على النخل والزَّرع المذكورين في الآية، من باب الاكتفاء بأحد الأمرين أو الشَّيئين عن الآخر. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ (الجمعة: 11). حيث عاد الضمير على التجارة فحسب.

(*) الأكل: (بضم الكاف وسكونها): الشيء المأكول. ومن ذلك وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خبط (سبأ: 16).

(1) الكشف، ج 2/ 72.

(2) البحر المحيط، ج 4/ 38.

- الضمير عائداً على جميع المذكورات: يذهب الحوفي إلى أن الهاء تعود على جميع ما تقدم من الأشياء المنشآت. غير أن أبا حيان ضعف هذا الرأي أيضاً؛ إذ لو جاز ذلك لوجب أن يؤنث الضمير فيقال (أكلها)، لكنه أجاز رأي الحوفي في حالة تقدير حذف مضاف ومراعاة ذلك المحذوف عند عود الضمير كأن يقال (مختلفاً ثمر جنات...)، ونظير ذلك في التنزيل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُهُ لَمْ يَكْدِ يَرِيهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: 40)، أي: أو كذا ظلمات... (1).

6 - الإشارة بالضمير المفرد (ليرضوه) بعد ذكر الله ورسوله

قال تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: 62).

في هذه الآية خطاب للمؤمنين في الحذر من المنافقين المكثرين من الحلف الكاذب إرضاءً للمؤمنين، حيث يحلفون للمؤمنين لينفوا عن أنفسهم ما نُقل عنهم من كلام يورث أذيةً للرسول ﷺ وللمؤمنين، وفي كثرة اعتذارهم وحلفهم للمؤمنين ومحاولاتهم إرضاء المؤمنين دلالة على إدانتهم ونفاقهم. وخيرٌ لهم أن يسعوا إلى إرضاء الله ورسوله بالطاعة، وإخلاص إيمانهم، فالله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو يوحى إلى رسوله ﷺ، من أمور الدنيا، ويطلع على دخائل الأنفس ما يعينه على حسن تدبير أحوال أصحابه، وتحقيق رسالته. وعلى ذلك فالله ورسوله أحق بأن يرضوهما. أما إرضاء غيرهما ممن لا يعلمون الغيب، ومن ليس بأيديهم تدبير أحوال الجماعة المسلمة، فذلك إيغال في النفاق.

من حيث تركيب الكلام، فقد تقدم في هذه الآية معطوف ومعطوف عليه،

(1) المصدر نفسه.

وهما (الله ورسوله) وتأخر عنهما ضمير عائذ عليهما، وهو الهاء، وفي تلك الحال يلزم عود الضمير عليهما مع التتّابق من حيث الجنس والعدد، نحو: زيد وعمرّو قاما، وزيد وعمرّو وبكرّو قاموا. أما عود الضمير على أحد المعطوفات دون غيره فعلى السّماع⁽¹⁾.

من الأقوال في إيضاح هذا الإشكال ما يأتي:

- قيل إنّ السرّ في عود الضمير ههنا على أحد الاسمين دون الآخر، كون رضا رسول الله ﷺ داخلاً في رضا الله عزّ وجلّ⁽²⁾. يقول الزمخشري في بيان ذلك: «وإنّما وُحِدَ الضمير لأنّه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله ﷺ فكانا في حكم مُرضيّ واحدٍ كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني وجبر مني، أو والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك»⁽³⁾. ويضيف الزمخشري في موضع آخر عند تفسيره لقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: 24) أنّ استجابة رسول الله كاستجابة الله، وإنّما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد⁽⁴⁾.

ومن نظائر هذا الموضع في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال: 20).

فقل إن الحكمة وراء إفراد الضمير في هذا الموضع أنّ طاعة الرسول داخلة في طاعة الله، والإعراض عنه إعراض عن الله، لذلك اكتفى بإفراد

(1) في الفصول المفيدة أنّ مثل هذا يقتصر على ما سُمع، ولا يكون قياساً، وليس هذا الحكم خاصاً بالعطف بالواو بل إذا كان العطف بـ(حتى) فالحكم أيضاً كذلك. وأما إذا كان العطف بالفاء فإنّه يجوز تشية الضمير كما تقدم في الواو، ويجوز إفراده.. وجاز ذلك لأن الفاء فيه من الترتيب ما يقتضي إفراد خبر الأوّل عن خبر الثاني، وكذلك إذا كان العطف بـ(ثم)، لكن الأحسن إفراد الضمير. (الفصول المفيدة، ج/ 65-66).

(2) البغوي، ج 1/ 69.

(3) الكشف، ج 2/ 199.

(4) المصدر السابق، ج 2/ 151.

الضمير دلالة على أن كلا الأمرين متماثلان⁽¹⁾. وعُدَّ منه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ (التوبة: 62).

ومن عود الضمير على أحد الاسمين السابقين عليه دون الآخر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (النور: 48).

ففي هذه الآية عاد الضمير في قوله (ليحكم) على مفرد، والظاهر أن الضمير مسبق باسمين هما (الله ورسوله). وفي تفسير هذا الموضع يذهب الطبري (محمد بن جرير، ت 310هـ)، إلى أن المراد رسول الله فحسب، ويربط هذه الآية بما بعدها، ألا وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾، ويقول إنَّ المراد به: أن يحيف رسول الله عليهم. أما البدء بذكر الله تعالى، فمن باب التعظيم، كما يقال: ما شاء الله ثم شئت، بمعنى: ما شئت، واستدل الطبري على صحة ما ذهب إليه بالإشارة إلى إفراد الفعل (ليحكم)، في الآية السابقة، إذ إنَّ إفراد الفعل، وعدم تثنيته (ليحكما) دلالة على إفراد الرسول بالحكم، وإفراد الرسول بالحكم يعني إفراده بخوف الحيف منه⁽²⁾. أي أن الذي يحكم هو الذي يُخشى من جانبه الحيف.

7 - الإشارة بالضمير (ينفقونها) المفرد بعد ذكر الذهب والفضة

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: 34).

من المقرر أن الفعل إذا تقدّمه اسمٌ فإنّه يلحق به ضمير يعود على ذلك الاسم، ويتطابق هذا الضمير مع الاسم في الجنس والعدد، فيقال مثلاً: زيدٌ نصرته، وهنداً علّمتها، والرجلان أكرمتهما. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (سورة ص: 29) حيث برز

(1) القرطبي، ج 7/387.

(2) تفسير الطبري، ج 18/156 والحيف: الجور والظلم في الحكم، يقول العرجي:

ما تقولين في فتى هامٍ إذ هامٍ بمن لا يُنال جهلاً وحِيناً
فاجعلي بيننا وبينك عدلاً لا تحيفني ولا يحيف علينا

(الأغاني، ج 1/378).

في (أنزلناه) ضميرٌ عائِدٌ على الكتاب مطابق له في الجنس والعدد، ألا وهما التذكير والإفراد.

في آية سورة التَّوْبَةِ السَّابِقَةِ، ورد الفعل (يُنْفِقُونَهَا) وقد تقدّمه اسمان هما الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، ولم يقترن الفعل بضمير التَّثْنِيَةِ، وإنما اقترن بالهاء المشار بها إلى المفردة المؤنثة أو جماعة الإناث من غير العاقل. وفي تفسير ذلك أقوال:

- يذهب الإمام الطبري (محمد بن جرير، ت310هـ)، إلى أن أفراد الضمير في هذه الآية يحتمل وجهين:

الوجه الأول: أن يكون الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ قد أريد بهما الكنوز(*)، فيكون الكلام: والذين يكتزون الكنوز، وإفراد الضمير في (لا ينفقونها) وما بعدها من الكلمات باعتبار كلمة (كُنُوز/ المكنوزات).

الوجه الآخر: أن الخبر عن إحداهما مثل الخبر عن الأخرى، لذلك اكتفى بذكر الضمير مفردًا. ومن نظائر ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ (الجمعة: 11)، فقال (إليها)، ولم يقل (إليهما) إشارة إلى التجارة واللَّهْوِ. وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ (التوبة: 62). ولم يقل (يرضوهما) إشارة إلى الله ورسوله المتقدمين على الفعل (يرضوه). وفي الشعر، قول حسان بن ثابت: [خفيف]

إِنَّ شَرِيحَ الشَّبَابِ وَالشَّعْرَ الْأَسْوَدَ مَا لَمْ يُعَاصْ كَانَ جُنُونًا⁽¹⁾
والشاهد عود الضمير على الشباب في الفعل (يعاص) فحسب، والأصل تثنية الضمير فيقول (يعاصيا). وقول الشاعر: [طويل]

(*) (الكنز) في اللغة: الجمع والضم، ومنه قيل: ناقة كناز، أي: منضمة الخلق سميعة. ومنه قول النابغة الشيباني في وصف ناقة: [طويل]:

فَخَرَّ بِنَاجِيَةٍ أَجْدٍ كِنَازٍ كَأَنَّهَا إِذَا رُدَّ فِيهَا الطَّرْفُ فَحَلَّ عُذَافِرُ (ديوانه، ص65).

ويغلب الكنز على الفضة والذهب، لكنه لا يختص بهما، بل يقال في غيرهما، ومن ذلك قول المتنخل الهذلي: [بسيط]

لَا دَرَّ دَرِّي إِنْ أَطْعَمْتُ جَائِعَهُمْ قِرْفَ الْحَتِيِّ وَعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزُ
ينظر: ديوان الهذليين، ج2/15؛ الكتاب، ج2/89؛ البحر المحيط، ج5/37.

(1) ديوانه، ص236.

وَلَوْ حَلَفْتُ بَيْنَ الصَّفَا أَمْ عَامِرٍ وَمَرْوَتَهَا بِاللَّهِ بَرَّتْ يَمِينُهَا
حيث إنَّ الضَّمير هنا عائد على محذوفٍ هو (مَكَّة) وتقدير الكلام: ومروءة
مَكَّة. وقد عاد عليها الضمير لذكر جزئها، وهو الصَّفَا. كما يحتمل أن يكون
الضمير في هذا البيت عائداً على (الصَّفَا) فَأَنْتَ حُمُلاً على المعنى، أي
معنى البقعة والحدبة⁽¹⁾.

- ويذهب غير الطبري إلى أنَّ الضَّمير عائدٌ على أقرب اسمٍ إليها وهو
(الفضَّة) وعلى ذلك لا يكون إشكالٌ في عود الضَّمير.

- وقيل يجوز أن يكون الضَّميرُ عائداً على الذهب، ويجوز فيه التذكير
والتأنيث⁽²⁾. بل هو أشهر.

- كما يجوز اعتباره من باب الحذف والاكتفاء بالمذكور عن ذلك
المحذوف، فيكون التَّقدير: (والذين يَكْنِزُونَ الذهب [ولا ينفقونه،
والذين يَكْنِزُونَ] الفضَّة ولا ينفقونها).

وبعدُ، فمن الإمكان الإشارة إلى ملمحٍ بلاغي مقبولٍ في هذه الآية، ألا
وهو أنَّ القرآن الكريم أراد بإفراد الضَّمير في هذا الموضع التأكيد على توسيع
مفهوم الآية ليحتمل أحد المذكورين: الذهب والفضَّة، ولئلا يفتح باباً لمتوهم
أو زاعم أن الوعيد في حقِّ الذين لا ينفقون الذهب والفضَّة مجتمعين. أما
الذين ينفقون الذهب مثلاً، ولا ينفقون الفضَّة في سبيل الله، أو العكس،
فليسوا داخلين في مفهوم الوعيد. أي أن يزعم زاعمٌ ويقول: حسناً، إنني أكنز
الذهب وأنفق الفضَّة، أو أكنز الفضَّة وأنفق الذهب فلا أدخل تحت طائلة
الاكتناز المنهي عنه في الآية؛ لأنني لم أكنز الاثنين معاً. إنَّ هذا المفهوم
الخاطيء، أو التلاعب بالنص للخروج عن ضوابط الشرع لا يقوم له مقامٌ مع
إفراد الضَّمير؛ لأنَّ الاثنين في حكم الجمع، فجاز عود الضَّمير بالهاء، ومعلوم
أن الجمع المؤنث غير العاقل يُعامل معاملة الاسم المفرد كقوله تعالى:
﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا﴾ (الحج: 36). والله أعلم.

(1) اللباب في علوم الكتاب، ج 10 / 79.

(2) التبيان في إعراب القرآن، ج 2 / 14.

8 - الإشارة بالضمير المفرد (قَدَّرَه) بعد الشمس والقمر

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس: 5).

الإشكال المحتمل في هذا الموضع قد يكون عن مرجع الضمير في الفعل (قَدَّرَه). تُرى ما المقدَّر؟ الشمس أم القمر؟ أم أنَّ الضمير يعود على كلا الاسمين؟ وقد ينشأ عن الإجابة عن أحد السؤالين السابقين أسئلة أخرى متسلسلة نحو: كيف يسوغ عود الضمير مفرداً على شيئين اثنين؟ وإذا كان الضمير عائداً على الشمس، فكيف يسوغ عوده مذكراً على اسم مؤنث؟ إذا كان الضمير عائداً على القمر دون الشمس، فكيف عاد على اسمٍ دون الآخر؟ خاصةً أنَّ لكلٍّ من الشمس والقمر منازل معروفة.

- وللعلماء أقوالٌ في بيان تلك الجوانب والإجابة عن الأسئلة السابقة.
- ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ الضمير عائِدٌ على القمر وحده، وأكَّدوا موقفهم هذا بالقول إنَّ القمر هو المقدَّر، لأنَّه - خاصةً - عمدة العرب في تقدير التواريخ، ومعرفة الأنواء، وهو ثمانى وعشرون منزلة.
- وذهب آخرون إلى أنَّه يحتمل أن يكون حذف ضمير الاثنين، وهو سائغٌ مألوف في كلام العرب. فكأنَّ الأصل (وقدَّرهما) إشارةً إلى الشمس والقمر. وممَّا ورد من ذلك في الشعر قول مالك بن العجلان: [منسرح]
نحنُ بما عندنا وأنتَ بِمَا عندكَ راضٍ والرأيُ مختلفٌ⁽¹⁾

(1) ديوانه، ص 173؛ وينسب البيت أيضاً إلى درهم بن زيد العجلان، وقيل قيس بن الخطيم. تلخيص الفوائد، ص 205؛ الدرر، ج 5/314؛ الكتاب، ج 1/75؛ أبيات سيبويه، ج 1/279؛ شواهد الإيضاح، ص 128؛ الإنصاف، ج 1/95؛ الأشباه والنظائر، ج 3/100؛ أمالي الحاجب، ج 2/726؛ خزانة الأدب، ج 10/295؛ الأشموني، ج 1/435؛ شرح ابن عقيل، ص 125؛ مغني اللبيب، ج 2/622؛ المقتضب، ج 3/112؛ همع الهوامع، ج 2/109.

والأصل: (نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راضٍ) فاكتفى بأحد الخبرين عن الآخر.

- ويذهب الزمخشريُّ إلى احتمالين اثنين في هذا الموضع، وهما:

الاحتمال الأول: أنَّ الهاء عائدةٌ على مضافٍ محذوفٍ تقديره: وقَدَّرَ (مسيره) منازل. لأنَّ الكواكب كلَّها تسير في أفلاكٍ خاصَّة بها، كما هو مقرَّر في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: 40).

الاحتمال الآخر: أنَّه على حذف موصولٍ تقديره (ذا) فكأنَّه قال: وقَدَّرَ (ذا) منازل، وهذا المحذوف مضاف، و(منازل) مضافٌ إليه، وبذلك ينتفي كونه صفةً للقمر، ويزول الإشكال حول جمع (منازل) جمع تكسيرٍ موصوف به مفرد⁽¹⁾.

9 - ورود كلمة (مثلاً) مفرداً بعد المثني

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود: 24).

قبل الوقوف عند الإشكال في هذه الآية، ينبغي عرض آيةٍ أخرى مشابهة لها توضِّح مدى الإشكال في هذه الآية، ألا وهي قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: 29). ففي هذه، ضُربَ مثلاًن متقابلان: مثلُ رجلٍ حرٍّ ليس لأحدٍ عليه حقُّ الالتزام والإذعان لمطالبه، ومثلُ رجلٍ مملوكٍ لأربابٍ كُثر كلٌّ يريد أن يستخلصه لنفسه، وأن يتفرَّغ المملوك لخدمته، والمملوك حيران متذبذب لا حيلة له. والمثلُ بعد، مثل المؤمن المخلص لعبادته للمولى الواحد ومثل المشرك المتلبَّس بأربابٍ كُثر.

يذهب العلماء في بيان الإشكال في أفراد (مثلاً) في آية هود السابقة، إلى

(1) الكشف، ج 2/314.

أنَّ المراد بإفراد التَّمييز المنقول من الفاعليَّة (مثلاً)، أنَّ كلا الفريقين ضُربا مثلاً، والأصل: هل يستوي مثلُهما. فلو ضرب هذا مثلاً، وذاك مثلاً آخر، لانتفى وجه الاعتبار والمقارنة بينهما. وعُدَّ من نظائر ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (المؤمنون: 50).

هذا، وقد أكَّد الفعل (يستويان) هذا الاعتبار في الجمع بين الفريقين، وعدم الفصل بينهما في المقارنة، وضرب المثل، وذلك طبقاً لمفهوم أنَّ الشَّيء يظهر بضدِّه، فلو فُرق بين المؤمنين والكافرين؛ لسقط بذلك قانون التَّوازن، ولائمحي كذلك الجمال الموضوع في الكون في وضع الأضداد حدواً بحدو، ولأزعج ذلك نظام تعدُّ الأنواع الذي هو قانون إلهيٍّ موضوع في هذا الكون لضمان استمرار الحياة.

وعليه، فإنَّ إفراد (مثلاً) قد يكون تلميحاً لطيفاً إلى ضرورة الالتزام بهذا المبدأ في الاعتبار والتَّفكُّر في ملكوت السَّموات والأرض، وتدبُّر قدرة الله وآياته في الآفاق والأنفس مجتمعة، ثمَّ النَّظر في الخصائص الفارقة بين كلِّ نوع وآخر. هذا والله أعلم.

10 - عود الضَّمير مفرداً في الفعل (فتشقى) بعد ذكر آدم وحواء

قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَتَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه: 117).

يخاطب المولى عزَّ وجلَّ آدم في هذه الآية ويحذِّره من اتِّباع الشَّيطان، ويؤكِّد ذلك بقوله (فلا يخرجَنَّكما)، ويطلع المولى جلَّ شأنه آدم على مآل اتِّباع الشَّيطان وهو الشَّقَاء بعد السَّعادة ورغد العيش في رضوان الله تعالى. والملفت في هذا الموضع إسناد الضَّمير في الفعل (فتشقى) إلى آدم فحسب، فكأنَّه وحده يتحمَّل مغبة اتِّباع الشَّيطان دون حواء، فهل هذا هو المفهوم أم أنَّ للإفراد ههنا سبباً آخر وأنَّ للآية تفسيرات أخرى جائزة؟

- يرى الطَّبري أنَّ الخطاب لآدم، وجاز ذلك لأنَّ ابتداء الخطاب من الله كان لآدم (ﷺ) فاكتفى بإعلامه عقوبة المعصية، ومغبة اتِّباع إبليس، وفي ذكر

آدم كفايةً عن ذكر حواء، لاتّفاق حكمهما في هذا الشأن. كما يرى أنّ من نظائر ذلك في التّنزيل الحكيم قوله تعالى: ﴿إِذْ يَنْلَقَى الْمُلَقَّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (ق: 17)، حيث اكتفي بذكر أحد القعيدَين لمعرفة المُخاطَبين بحاله من ذُكر صاحبه⁽¹⁾.

- أمّا القرطبي (محمد بن أحمد، ت 671هـ)، فيستنبط من هذه الآية جريان نفقة الزّوجة على الزّوج، إذ إنّ المولى عزّ وجلّ أسند الشّقاء - بعد الخروج من الجنّة - إلى آدم، مما يدلّ على أنّه الذي يشقى من أجل العيش، وأعباء الحياة، وحدّدها في أربعة أمور: الطّعام، والشّراب، والكسوة، والمسكن، فهذه الأربعة ضروريّات يجب القيام بها، وما وراءها فتفضّل من الزّوج⁽²⁾.

- وذهب آخرون إلى أنّ سبب العدول عن التثنية لتوافق رؤوس الآي⁽³⁾، فهو بين الفواصل على النّحو الآتي: أبى.. فتشقى.. تعرى.. يبلى.. فغوى.. وهدى....

ومراعاة الانسجام الموسيقيّ في فواصل الآيات القرآنيّة تفضي إلى الكثير من التّغيّرات في الكلّم والتّعبيرات، وقد نقل السيوطي «عن الشيخ شمس الدين الصائغ (ت 776هـ)، في كتابه «إحكام الرأي في أحكام الآي» قوله: «اعلم أنّ المناسبة أمرٌ مطلوبٌ في اللّغة العربيّة يُرتكب لها أمورٌ من مخالفة الأصول، وقد تتبّعت الأحكام التي وقعت في أواخر الآي مراعاةً للمناسبة، فعثرتُ منها على نيفٍ عن الأربعين حُكمًا». ومن تلك الأنواع التي ذكرها الصائغ: إشار تذكير اسم الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (القمر: 20)، أو إشار تأنيثه، كما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾⁽⁴⁾.

(1) الطبري، ج 16/222.

(2) القرطبي، ج 11/253.

(3) التبيان في إعراب القرآن، ج 2/128.

(4) الإتقان: ج 2/267.

11 - وصف عيسى ومريم بأنهما (آية) بالإفراد

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (المؤمنون: 50).

يشير القرآن الكريم في هذا الموضع إلى ما أظهره الله سبحانه من دلائل عظيم قدرته، وبديع صنعه، وعجيب أمره في عيسى ومريم (عليهما السلام)، إذ خلق الله عيسى من غير أب، وأنطقه في المهد صبياً، وأجرى على يديه إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذنه تعالى. أما أمه فجعله الله سبحانه تحمل بعيسى من غير ذكر. ولعل الجامع بينهما حمل مريم بعيسى من غير ذكر، وولادة عيسى من غير أب.

كان المتوقع في هذا الموضع أن يقال: (وجعلنا ابن مريم وأمّه آيتين) بالتثنية للصفة؛ إذ إنَّ (الجعل) وقع على شخصين منفصلين هما: عيسى ومريم (عليهما السلام). عليه، فإنَّ إفراد الضمير قد يشير سؤالاً عن مرجع (آية) المفرد. ترى أهي تعود على عيسى أم على مريم؟ وكيف يسوغ عود الصفة على الاثنين كما هو المفهوم الطبيعي للآية؟ وكما ورد في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (الإسراء: 12). بتثنية (آية).

في بيان هذه الآية والإجابة عن هذا السؤال آراء منها:

- أن (آية) أفردت في آية المؤمنين السابقة، دلالة على أن كلا منهما دلالة على عظيم قدرة الله ووحدانيته، فكل واحد منهما يقوم مقام الآخر⁽¹⁾.
- أنه من باب الاكتفاء بأحد الاسمين عن الآخر لأهميته، وذلك مثل قوله تعالى:

(1) الطبري، 84/17. ومن روائع النظم ههنا أنه قدّم الابن في هذه الآية لأن السياق في ذكر عيسى عليه السلام، وفي آية أخرى لما كان السياق في ذكر مريم عليها السلام، قدّم اسمها على اسم عيسى، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (ينظر: الإتقان للسيوطي، ج 2/37).

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: 62)⁽¹⁾.

ومثال ذلك في الشعر قول الأضبط بن الأضبط بن قريع السعدي: [منسرح]
لكلِّ همٍّ من الهمومِ سعةٌ والصُّبح والمسيُّ لا فلاح معه⁽²⁾

وكان الأصل أن يقول (لا فلاح معهما)، إشارة إلى الصباح والمساء.
ولا نميل إلى هذا الرأي لأن عيسى وأمه على قدم المساواة في ظهور آية
الله تعالى، ودلائل قدرته فيهما؛ لذلك قال جماعة إنَّ كلَّ واحد منهما آيةٌ
قائمةٌ بنفسه؛ فجاز إفراد الآية إشارة إلى هذا التساوي في ظهور آية الله تعالى
وعظيم قدرته في خلقه. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّمَا الْجَنَيْنِ ءَانَتْ أُكُلُهُمَا﴾
(الكهف: 33).

يقول الخطيب في ذلك: «والأقرب أن جعلهما آيةً هو نفس الولادة، لأنه
وُلد من غير ذكر، وولدته من دون ذكر، فاشتركا جميعاً في هذا الأمر
العجيب الخارق للعادة». فظهور آية الولادة فيهما، وكون تلك الآية لا تتم
إلا بمجموعهما هو المعنيُّ به في قوله ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (المؤمنون:
50). أما الآيات الأخرى التي ظهرت على يد كل منهما كتكليم عيسى الناس
في المهد صبياً، وإبرائه الأكمه والأبرص بإذن الله، ورزق مريم بغير حساب،
وهزها للنخلة تساقط عليها رطباً جنيّاً... فتلك آياتٌ لكلِّ واحدٍ منهما. وهي
غير مرادة في هذا الموضع. والله أعلم⁽³⁾.

12 - الإشارة إلى الأموال والأولاد بـ(التي) المفرد

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ (سبأ: 37).

(1) النحاس، معاني القرآن، ج 4/ 460.

(2) تهذيب اللغة، ج 5/ 71؛ تاج العروس، ج 7/ 25 (فلح)؛ لسان العرب، ج 2/ 457
(فلح)؛ مقاييس اللغة، ج 4/ 450.

(3) الفخر الرازي، ج 23/ 103-104.

ينكر المولى سبحانه وتعالى على الكفار مفاخرتهم واغترارهم بكثرة الأموال والأولاد، واغترارهم بأنها من المقرّبات إلى الله عزّ وجلّ، ويغترّ أولئك أنّ ما يُعطون من أموالٍ وبنين إنّما هو من أجل كرامتهم على الله ومعزّتهم عليه.. بل زعموا أنّهم غير معذّبين لأنّهم أكثر أموالاً وأولاداً: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (سبأ: 35). فالحقّ أنّ تلك الأموال والأولاد فتنة لهم يُملي الله لهم بها في الدُّنيا، ويعذبهم بها يوم الحساب، وما يقرب إلى الله في الآخرة إلا عمل العبد الصّالح لا أولاده، ولا أمواله أو غير ذلك.

والإشكال هنا - والقرآن في معرض الحديث عن الكثرة - تقدّم نوعين مختلفين على الاسم الموصول (التي)، وهما: الأموال والأولاد. وكان الأظهر أن يُقال: (باللّذين) أو (باللّتين) على التّثنية.

أما تفسيرات العلماء في بيان سبب إفراد الاسم الموصول في هذا الموضع فمنها:

- أنّه ذُكر من كلّ نوع منهما جمعٌ يصلح بأن يُشار إليه باسم الموصول المؤنث (التي)، فلا يبعد أنّه أراد بـ(بالتّي) أحد النّوعين من الأموال والأولاد⁽¹⁾. أي: أنّ كل واحدٍ من الاسمين جمع تكسيرٍ، وحقّ جمع التّكسير أن يُشار إليه بضمير المؤنث الواحدة.

هذا، وتُعامل أسماء كثيرة معاملة الاسم المفرد فتؤنّث إذا كانت جمع قلّة؛ لأنّ الجمع يصيرها في معنى الجماعة، سواء كان من جموع العاقلين أو غير العاقلين، ويكون التّأنيث حينئذٍ للاسم، وليس للمعنى. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: 157) فالأغلal جمع غير عاقل، وصفت بضمير (التي) للمفرد المؤنّث. ومن تأنيث العاقل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ (آل عمران: 10). فعاد الضّمير التاء في الفعل (تُغني) على الأولاد

(1) الطبري، ج 22 / 100.

مفرداً مؤنثاً، وهم جماعة عقلاء. فالعرب تجري على بناء جمع القلّة كثيراً من أحكام المفرد مثل جواز تصغيرها على ألفاظها. وعلى ذلك جاز عود الضمير على (الأنعام) مفرداً مؤنثاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا شُرَاقِبِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ (النحل: 66).

- ذهب الفراء (أبو زكرياء، ت 207هـ)، إلى أنّ في الآية جملة غير مذكورة اكتفي عنها بالجملة المذكورة، وتقدير الكلام: وما أموالكم (بالتي تقرّبكم عندنا زلفى)، ولا أولادكم (بالتي تقرّبكم عندنا زلفى)⁽¹⁾. فحذفت الجملة الأولى لدلالة الأخرى عليها.

- أما الزمخشري، فإنه يذهب إلى أن (التي) صفة لموصوفٍ محذوف هو (التّقوى)، وتقدير الكلام: ليست أموالكم ولا أولادكم بتلك الموصوفة عند الله بالتّقريب. وهي التي تقرّب إلى الله لا الأموال ولا الأولاد⁽²⁾.

13 - الإخبار بـ(قعيد) عن (المتلقّيان) المثنى

قال تعالى: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَلَقَّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (ق: 17).

من القواعد النحويّة أنّه لا يُخبر بالمفرد عن الجمع، ويدخل المثنى في هذا الحكم؛ لأنّه بمنزلة الجمع⁽³⁾. أما الإخبار عن المفرد بالجمع فمن أجل مقاصد بلاغيّة كالتّعظيم مثلاً. والأصل التّوافق والتطابق في العدد بين المخبر والمخبر عنه^(*)، وفي الآية السابقة إشكالٌ حول هذا التّطابق بين الخبر والمخبر

(1) معاني القرآن، ج 2/ 363.

(2) القرطبي، ج 14/ 305؛ الكشاف، ج 3/ 292.

(3) شرح قطر الندى، ص 273.

(*) من المواضع التي توهم بعدم التطابق بين المخبر والمخبر عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ (الأحزاب: 56)، برفع (ملائكته)، فقد احتمل هنا أنه يخبر بالجمع (يصلّون) عن المثنى، والصّحيح أن خبر إنّ محذوف تقديره: إنّ الله يصلّي، وقد استغني عنه بخبر الجملة الثانية، وهو مثل قولك: إنّ عمراً وزيداً قائم. برفع (زيد) باعتباره مبتدأ خبره (قائم) ويكون التقدير: إنّ عمراً قائم، وزيد قائم. التبيان في إعراب القرآن، ج 1/ 222.

عنه؛ إذ إنَّ (قعيد) خبر عن المَلَكَيْنِ اللّذين يكتبان حسنات المرء وسيئاته، فالذي يكتب عن يمينه يكتب الحسنات، والذي عن يساره يكتب السيئات⁽¹⁾.

وفي تعليل أفراد (قعيد)، وهو خبر (للمتلقين) السابق ذكرهما، أقوال:

- قيل إنَّه عدل من (فاعل) إلى (فعليل) مبالغة، كما يقال (عليم) مبالغة في صفة العلم في الموصوف به. فهو يعني هنا: الملازم الذي لا يبرح صاحبه.
- وقيل إن (فعليل وفَعول) يستوي فيهما الواحد والاثنان، والجمع، فيكون مساوياً لـ (فَعول). ومن نظائر ذلك في التَّنْزيل الحكيم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحریم: 4). حيث أخبر بالمفرد عن الجماعة بقوله (ظهير)، وهو في معنى الجمع (ظُهاء وأعوان)⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (طه: 47)، حيث إنَّ (رسول) يُجعل للمفرد والاثنين والجمع.

ومما ورد من ذلك في الشعر قول أبي ذؤيب الهذلي: [متقارب]

أَلِكُنِي إِلَيْهَا وَخَيْرَ الرَّسُولِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرِ (*)
والشاهد أفراد الشَّاعر لكلمة (الرَّسول)، في موضع جمع.

(1) روي معناه من حديث أبي أمامة قال: قال النبي (ﷺ): «كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره، وكاتب الحسنات أمينٌ على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر». ينظر: تفسير القرطبي، ج 17/10.

(2) التبيان في إعراب القرآن، ج 2/265؛ فتح القدير، ج 5/251.

(*) شرح أشعار الهذليين، ص 113؛ تاج العروس، (ألك)؛ المخصص، ج 12/225؛ لسان العرب، ج 10/485 (لوك). وفي هذه الكلمة (أ ل ك) قلبٌ مكاني، وأصله (ل أ ك)، ويأتي الفعل منه غالباً في صيغة الأمر، ومن ذلك قول الشاعر:

أَلِكُنِي إِلَيْهَا عَمَّرَكَ اللَّهُ يَا فَتَى بساية ما جاءت إلينا تهادياً
وقول الآخر:

أَلِكُنِي إِلَى قَوْمِي السَّلَامَ رسالة بآية ما كانوا ضعافاً ولا عُزْلاً
والأصل في ذلك كله (أَلِكُنِي) فُخِفَتِ الهمزة. (الخصائص، ج 4/474).

أما قول لبید: بِأَلُوكِ فَبَذَلْنَا مَا سَأَلَ ..

فهو على وزن (عفول) بتقديم عينه على فائه، وهو قليل.

- يذهب المبرّد (أبو العباس محمد بن يزيد، ت 285هـ)، إلى أنّ الأصل في الآية: عن اليمين قعيد، وعن الشمال، فأُخّر عن موضعه⁽¹⁾.
- وأقرب إلى رأي المبرّد قولهم إنّ الأصل: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، ثم حذف أحدهما استغناءً عنه، ولدلالة الآخر عليه.
- ومما ورد من ذلك من الشعر قول الأزرق بن طرفة الفراسي: [طويل]
 رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئًا وَمِنْ فَوْقِ الطَّوِيِّ رَمَانِي⁽²⁾
 أي: رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ بَرِيئًا، ووالدي منه بريء. فحذف خبر (والدي) لدلالة الأول عليه. ومنه أيضًا قول الفرزدق: [كامل]
 إِنِّي ضَمَنْتُ لِمَنْ أَتَانِي مَا جَنَى وَأَبِي فَكَانَ وَكُنْتُ غَيْرَ غَدُورٍ⁽³⁾
 والشاهد استغناؤه بذكر خبر الثاني عن ذكر خبر الأول. والتقدير: فكان (غير غدور) وكنت غير غدور.

(1) القرطبي، ج 17/123.

(2) البحر المحيط، ج 8/122، الدرر، ج 2/62؛ شرح أبيات سيبويه، ج 1/249؛ الكتاب، ج 1/75؛ همع الهوامع، ج 1/116. وينسب أيضاً لعمر بن أحمّر في ديوانه، ص 187.

(3) الإنصاف في مسائل الخلاف، ج 1/95؛ الرد على النحاة، ص 100؛ شرح أبيات سيبويه، ج 1/266؛ الكتاب، ج 1/76؛ لسان العرب، ج 3/360 (قعد).

المبحث الثاني: المفرد في موضع الجمع

14 - الإخبار بـ(عدوّ) عن (بعض) الجمع

قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة: 36).

وقال أيضاً: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَخَصَّنَّمْ وَعَدَّهَمْ عَدًّا ۚ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ (مريم: 93-95).

في تعليل إفراد (عدوّ)، وكذلك في تعليل إفراد (آتيه.. فردًا) وجهان:

الوجه الأول: أَنَّ (بعض) و (كُلّ) يُخْبَرُ عَنْهُمَا بِالوَاحِدِ بِاعتبار اللفظ، وَيُخْبَرُ عَنْهُمَا بِالْجَمْعِ بِاعتبار المعنى^(*). وقد اعتُبر اللفظ في هاتين الآيتين؛

(*) لفظة (كُلّ): اسم موضوع لاستغراق أفراد المنكر، أو لاستغراق أجزاء المعرف. فمن استغراقه لجميع أفراد المنكر قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: 185)، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ (مريم: 95)، وفي الحديث النبوي القدسيّ قوله (ﷺ): «يا عبادي! كلُّكم جائعٌ إلا مَنْ أطعمته، وكلُّكم عارٍ إلا مَنْ كسوته...». وتقع (كل) مضافاً إلى الظاهر، وغير مضاف، فمن وقوعه مضافاً إلى الظاهر قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: 38). وقد تقطع كلمة (كلّ) عن الإضافة فتُنَوَّنُ ويقدَّرُ المضاف إليه، وقد يراعى فيها اللفظ فيفرد خبرها، وقد يراعى فيها المعنى فيُجمع الخبر. فمن مراعاة اللفظ قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء: 84). وقوله تعالى: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (النور: 41). فقد عاد الضمير في الفعل (يعمل) وفي الفعل (علم) مفرداً مذكراً، كما عاد الضمير الهاء في الاسمين (شاكلته، تسبيحه) للإشارة إلى (كلّ). وذلك مراعاةً للفظ.

ومن مراعاة المعنى في لفظ (كلّ) المنقطع عن الإضافة قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ دَخِرِينَ﴾ (النمل: 87)، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ لَمْ قَاتِلُونَ﴾ (البقرة: 116)، فالخبر في الآيتين وأمثالهما محمولٌ على معنى (كلّ) الدالّ على الجماعة، دون لفظها.

زوحكم لفظة (كلّ) الإفراد والتذكير. أما معناه فبحسب ما يضاف إليه، غير أنه إذا وقع مضافاً إلى نكرة وجب مراعاة المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾، =

فقليل (آتيه.. فرداً.. عدو). فالسياق هو الذي يحدد جنس الخبر وعدده، وإن كانت دلالة (بعض) على الجمع أكثر، خاصة إذا تكررت. فمن دلالتها على الواحد، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: 198، 199) حيث عاد الضمير في الفعل (فقرأه) على (بعض) مفرداً. ونزول الوحي - عادةً - يكون على شخص واحد يبلغه إلى الناس. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ (التحریم: 3). وهي حفصة أخبرت عائشة (رضي الله عنهما) بما أسرَّ النبي ﷺ إليها.

ومن دلالتها على الجماعة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: 76).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (البقرة: 253).

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (الصفات: 50). وقد تدلُّ بعض على المثني أيضاً، ذلك لكون المثني في الأصل جمعا.

الوجه الثاني: أنَّ لفظة (عدو) تُفرد في موضع الجمع، وسبب إفراده شبهه المصادر في الوزن كـ(القبول) مثلاً. كما في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ

= (القمر: 52) وفي الحديث النبوي: «كلُّكم راع، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته...». أما إذا كان مضافاً إلى معرفة، فيجوز مراعاة اللفظ أو المعنى، نحو: كلُّهم صالح، (أو صالحون)، وقد اجتمع الوجهان في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، (مريم: 93). فأفرد الضمير في (آتي) وجمعه في (أحصاهم وعدَّهم). أما قوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ (الصفات: 7، 8) فالإشكال محتملٌ في جمع الضمير في (يسمعون)، وقد تقدَّم عليه اسم نكرة، فالواجب في هذه الحال مراعاة المعنى كما في الأمثلة السابقة، فلم يقل: (وكلُّكم مسؤولون عن رعيته) في الحديث السابق، بل أتى بالافراد. وللرد على هذا التساؤل المحتمل قيل: إن جملة (لا يسمعون) مستأنفة خبر عن حال الشياطين المستترقة للسمع، وليست صفة لشيطان السابق عليها، ولا حال من الشيطان، لأنَّ الحفظ - عقلاً وواقعاً - لا يكون إلا من الشيطان الذي يسمع. فالضمير إذن عائد على الجمع المستفاد من السياق، لا إلى اسم النكرة الشيطان.

صَبَحَهُ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَأَحْذَرَهُمْ ﴿ (المنافقون: 4) يقول ابن فارس (أحمد، ت395هـ): العدو اسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة، والتأنيث، وقد يجمع⁽¹⁾. ومن وروده للواحد قوله تعالى عن إبليس: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (الكهف: 50).

ومن مجيئه في معنى الجمع ولفظه مفرد قول الشاعر:

وَقَوْمٍ عَلَيَّ ذَوِي مِرَّةٍ أَرَاهُمْ عَدُوًّا وَكَانُوا صَدِيقًا⁽²⁾
والشاهد أفراد الشاعر كلمة (عدو) و (صديق)، وهو في معرض الإخبار عن القوم، وهم جماعة.

15 - ورود (أول كافر) بالافراد في خطاب الجمع (ولا تكونوا)

قال تعالى: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِثْمِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾ (البقرة: 41)*.

وردت في هذه الآية لفظة (أول) وهي على وزن (أفعل) التفضيل، والحكم في (أفعل) التفضيل أنه إذا أضيف إلى نكرة، كان مفرداً مذكراً مطلقاً، نحو: محمد أفضل الرجال، وفاطمة أفضل النساء.. فإن صيغة أفعل

(1) القرطبي، ج 1/ 320. وردت آيات كثيرة بجمع (عدو)، كما في سورة آل عمران: 103، وفي سورة النساء (45)، وفي الأعراف: 105، وفي فصلت: 19، وفي الأحقاف: 6، وفي الممتحنة: 2. أما من مواطن مجيئه مفرداً في موقع الجمع، فمن ذلك: النساء: 92، الأنفال: 60، التوبة: 120، الكهف: 50، الشعراء: 77، المنافقون: 4، الأنعام: 112، التوبة: 83، طه: 80، الصف: 14، التغابن: 14.

(2) الكشف، ج 3/ 324. والمِرَّة بمعنى القوة وشدة الجدل. ومنه قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ (النجم: 6).

(*) المعلوم أن أهل الكتاب لم يكونوا أول من كفر برسالة محمد بل سبقهم إلى ذلك كفار قريش.. وفي بيان ذلك قال المفسرون إن الأولية هنا كانت باعتبارهم أول أهل كتاب كفر بالقرآن وبمحمد (ﷺ)، وقد حذرهم المولى سبحانه من ذلك؛ لأنهم أعرف الناس بما يجب للأنبياء، وما يلزم من التصديق لهم بالإضافة إلى أن وصف محمد موجود عندهم في التوراة والإنجيل. فتح القدير، ج 1/ 74.

التَّفضيل قد لُزمت التَّذكير والإفراد في جميع الأحوال سواء مع المثنى، أو الجمع المذكر، أو مع المؤنث المفرد⁽¹⁾. وقد تكون النكرة جامدة أو مشتقة، فإن كانت جامدة، فلا بد من مطابقتها لما قبلها، نحو: الزَّيدان أفضل رجُلين، الزَّيدون أفضل رجالٍ، والهندات أفضل نسوة.

والأمر - كذلك - مع المشتقة، فهي واجبة المطابقة، نحو: الزَّيدان أفضل عامِلين، والزَّيدون أفضل عامِلين، والهندات أفضل عاملات.

أجاز بعضهم المطابقة وعدم المطابقة، وأنشدوا:

وَإِذَا هُمْ طَعِمُوا فَأَلَامَ طَاعِمٌ وَإِذَا هُمْ جَاعُوا فَشَرُّ جِيَاعٍ⁽²⁾
والشَّاهد إفراد (طاعم) في الشَّطر الأول من البيت، وجمع (جِيع) في الشَّطر الآخر. وعلى ذلك، فإنَّ القاعدة العامَّة كانت تقتضي أن يطابق المضاف (كافر) أفعل التَّفضيل، فيقال: (أول كافرين). وقد ذكر العلماء تعليلات في عدم التَّطابق هنا. ومنها:

- أن لفظ (كافر) وصفٌ لموصوفٍ غير مذكورٍ، مفردٍ في لفظه، متعدِّدٌ في معناه، نحو: فريق أو فوج، وكأنَّه قال: ولا تكونوا أول (فريق أو فوج) كافر به، ولذلك جاء مفردًا ليطابق ذلك الموصوف غير المذكور لفظًا⁽³⁾.

- ويذهب سيبويه إلى أن (كافر) مفردٌ قام مقام الجمع، وهو من باب قولهم: هو أظرف الفتيان وأجمله⁽⁴⁾.

- أما الأخفش (أبو الخطاب، ت 177هـ)، والفراء فيذهببان إلى أنَّه محمولٌ على معنى الفعل كأنَّه قال: أول مَنْ كفر.

(1) أوضح المسالك، ج 3/ 297؛ شرح شذور الذهب، ج 1/ 535.

(2) معاني القرآن، ج 1/ 333.

(3) أوضح المسالك، ج 3/ 297؛ شرح شذور الذهب، ج 1/ 535.

(4) فتح القدير، ج 1/ 74.

16 - وصف الأمة بـ(وسطا)

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: 143).

وُصفت الأمة المحمدية بالوسطية في هذه الآية بما نيط بها من مهمة الشهود على الأمم الأخرى، والقيام بخلافة المولى عز وجل في إصلاح الأرض وإقامة العدل فيها، وإخلاص العبادة له سبحانه. و (وسط الشيء) ما بين طرفيه مثل (وسط الدار)،⁽¹⁾ ويقال (وسط الوادي) أي أحسن موضع فيه، وأكثره كلاً وماءً، ثم استُعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي الإفراط والتفريط كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، ثم أطلق على المتصف بها، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَ أَقْلَ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (القلم: 28). أي أعدلهم وأخيرهم⁽²⁾. يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «إنما حولناكم إلى قبله إبراهيم واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط ههنا الخيار والأجود كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه أي أشرفهم نسباً، ومنه: الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر كما ثبت في الصحيح وغيرها. ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً، خصّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب⁽³⁾.

وقد ينشأ الإشكال في كون (الأمة) بمعنى الجماعة، وكون الصفة في هذا الموضع لفظاً مفرداً، فلم توصف الجماعة بلفظ مفرد، والمقرر ألا توصف الجماعة ولا يخبر عنها بلفظ الواحد؟ والصفة -بعد- مذكّر، ولفظ الأمة مؤنث.. فلم لم تطابق الصفة موصوفها في الجنس؟

(1) لسان العرب، ج 7/ 427.

(2) شهاب الدين أحمد المصري، التبيان في غريب القرآن، ج 1/ 113.

(3) تفسير ابن كثير، ج 1/ 191.

ذكر العلماء أنَّ لفظ (أُمَّة) وردت في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، وهي اسم جمع، وتبين من خلال تلك الآيات أن (أُمَّة) يُسند إليها ضمير التَّأْنِيث كما يسند إليها ضمير الجمع المذكور.

فمن تأنيثه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ (البقرة: 134) بإسناد الضمير (لها) وفي (عليها) إلى لفظة أُمَّة.

وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران: 110).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 24) فقال (فيها) إشارة إلى الأمة.

ومن إسناد ضمائر الجمع إليها: قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (آل عمران: 104).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (الأعراف: 159).

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ (يونس: 47) عاد الضمير (هم) ثلاث مرات على الأمة وأشير إليها في (يظلمون) بضمير الجمع المذكور.

وقوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ (غافر: 5) فضمير الجمع (هم) وواو الجماعة في (ليأخذوه وجادلوا) كلها عائدة على الأمة. وعلى ذلك يتضح أن كلمة (أُمَّة) مؤنث مجازي يذكر تابعه باعتبار معناه، ويؤنث باعتبار اللفظ.

أما الإشكال الآخر في الآية الأولى أعلاه، فيظهر في إسناد (وسطاً) إلى أمة، فهو مصدرٌ يوصف به المذكور والمؤنث والمفرد والجمع. فلم يقل مثلاً (أُمَّةٌ وَسْطَى) كما في قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: 238) على تأنيث كلمة (وسط). كما لم يقل (أُمَّةٌ أَوْسَطُ) كما في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطِيعُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ (المائدة: 89).

لعلَّ السرَّ في ذلك أنَّ القرآن الكريم في معرض الحديث عن وسطية الأمة المحمدية، أراد أن يومئ إلى أن تلك الوسطية، وسطية مفتوحة على أبعاد متناهية في الحضارة البشرية، وسطية ليست محتكرة في جيل واحد، ولا في جماعة معينة، ولا في فرد، ولا في منطقة أو أرض دون غيرها، ولا في موضوع دون غيره، ولا في مجال عمراني خاص.. ولا.. ولا... فكان من الأنسب لهذه الوسطية المفتوحة أن يُختار لها ما يشاكلها من الألفاظ الشفافة؛ فاختار القرآن المصدر الذي لا يدلُّ على مذكر أو مؤنث أو مفرد أو جمع معيَّن، وإنما يشملها جميعاً، هذا ليشاكل اللفظ المعنى ويبرزه في أدق ملامحه، والله أعلم.

17 - مجيء (أحد) مفرداً في سياق الحديث عن الجماعة

قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا نَسْتَعِيزُ إِلَّا بِاللَّهِ وَرَبِّهِمْ وَمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أَوْفَىٰ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: 136).

المعلوم منطقاً أنَّ التفريق يكون -على الأقل- بين شيئين اثنين، ومقتضى ذلك أن يشار إلى الشيئين أو الأشياء المفارقة بصيغة الجمع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: 25). فالمفرق هنا جماعتان: فريق المؤمنين وفريق الكفار، وأشير إليهما بضمير الجمع (بيننا) واللفظ الدال على الجماعة (قوم). أما في آية البقرة السابقة، فقد أضيف (بين) إلى مفرد (أحد)، وكأنَّ التفريق وقع على مفرد لا على جماعة، فكيف جازت إضافة (بين) إلى المفرد، وتفریق الواحد؟

في بيان هذا الإشكال عدَّة أقوال:

- أفرد (أحد) ولم يجمع على (آحاد)؛ لأنَّ الأحد يقع للواحد والجماعة.

ومن وقوعه للواحد قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ

أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْفَاطِمَةِ ﴿النساء: 43﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ (التوبة: 6). وقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: 40).

ومن وقوعه للجمع قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾، (الحاقة: 47)، حيث وصف (أحد) بحاجزين جمعاً سالماً للذكور⁽¹⁾. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ (النساء: 152)، أي: بين أحدٍ وأحدٍ منهم.

وقيل إن (أحد) وهنا ليس بمعنى واحد، وهو مثل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: 1). بل هو الموضوع للعموم، وزادوا أن همزته أصلية غير مبدلة من الواو، وفي هذه الحالة لا تقدير. غير أن هذا المذهب لا يصح، إذ يؤول القول إن الكافرين فرّقوا بين جميع الرسل، وهو أمر لم يحدث، وإنما فرّقوا بين محمد وبين غيره في النبوة⁽²⁾.

- يقول أبو حيان (محمد بن يوسف، ت 745هـ)، في اعتراضه على أن المعنى (جميع رسله): «ويبعد عندي هذا التقدير؛ لأنه ينافي كونهم مفرّقين بين بعض الرسل، والمقصود بالنفي هو هذا، لأن اليهود والنصارى ما كانوا يفرّقون بين جميع الرسل بل البعض، وهو محمد ﷺ...». وبعد ذلك يقرّر رأيه في تفسير الآية فيذهب إلى أنه يحتمل أن يكون مما حُذف فيه المعطوف لدلالة المعنى عليه، والتقدير: لا نفرّق بين أحد من رسله، وبين أحدٍ. ويكون (أحد) بمعنى واحد، لأنه اللفظ الموضوع للعموم في النفي. ومثل هذا الحذف للمعطوف قوله تعالى: ﴿سَرِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ (النحل: 81). أي: الحرّ والبرد⁽³⁾. ذكر واحداً والمراد اثنان. أي: تقيكم الحرّ والبرد.

(1) القرطبي، ج 3/ 429. وفتح القدير، ج 1/ 307.

(2) مغني اللبيب، ج 1/ 819.

(3) البحر المحيط، ج 2/ 365.

ومن ذلك قول المثقب العبدى⁽¹⁾:

وما أدري إذا يَمَّمْتُ أرضاً أريدُ الخيرَ أيُّهما يليني
أي: الخير والشر، وفسره الشاعر بما بعده، فقال:

أَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ أَمْ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي
ويُرجع ابن جني (أبو الفتح عثمان، ت 392هـ)، علّة الاكتفاء بالحرّ هنا إلى أن البرد قد ذُكر فيما مضى من الآيات عند قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ (النحل: 5)⁽²⁾. وقيل إنه اكتفى بالحرّ لأن بلاد العرب، وهم المخاطبون بهذا الخطاب، حارّة، وحاجتهم إلى ما يقيهم الحرّ أشدّ، وعادتهم بلبسها أكثر، فذكرها.

18 - الإخبار ب(أم) المفرد عن الجمع (آيات)

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران: 7).

سمّى المولى الآيات المحكمات أمّ الكتاب؛ لأنّ من عادة العرب تسمية الشّيء الجامع لمعظم الشّيء أمّا له، فتسمّى راية القوم التي تجمعهم في المعسكر أمّهم، ويقال لمعظم الطريق (أمّ الطريق)⁽³⁾. وفي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا﴾ (القصص: 59). وقوله أيضاً: ﴿وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى: 7). وهي القرية الجامعة، وأكثر القرى أهلاً وعمراناً. وسمّيت مكة أمّ القرى؛ لأنها أقدم القرى في جزيرة العرب وأعظمها خطراً⁽⁴⁾.

(1) العسكري، أبو هلال. جمهرة الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، (بيروت: دار الفكر، ط2، 1988)، 408 / 2.

(2) مغني اللبيب، ج 1 / 820.

(3) لسان العرب، ج 12 / 32.

(4) معجم البلدان، ج 1 / 254.

يقول ابن كثير (أبو الفداء، ت 774هـ) في بيان معنى هذه الآية: «وقيل المراد بقوله حتى يبعث في أمّها رسولا أي: أصلها وعظيمنتها كأمهات الرساتيق والأقاليم حكاه الزمخشري وابن الجوزي وغيرهما وليس ببعيد»⁽¹⁾. وفي تفسير الدر المنثور، أن (أمّها) يعني: أوائلها⁽²⁾. وبعثة الرسول إلى أعظم القرى طبيعياً، نظراً لطبيعة الحياة الاجتماعية، وسهولة انقياد الناس لذوي النفوذ من العشائر والقبائل، يقول الألوسي: «في أمّها، أي: في أعظمها رسولاً، وإنّما خصّ الأعظم ببعثة الرسول لأن الرسول إنما يبعث إلى الأشراف، وأشراف القوم ملوكهم وإنّما يسكنون المواضع التي هي أمّ ما حولها»⁽³⁾.

أمّا في تعليل أفراد (الأم) في آية آل عمران السابقة مع أنه يخبر عن مجموعة آيات محكمات ومتشابهات، ففي ذلك آراء:

- يذهب الفراء إلى أن سبب ذلك أنه أراد أن الآيات المحكمات بمجموعها تؤلف أم الكتاب، وليس أن كلّ آية محكمة أو متشابهة بمفردها هي أم الكتاب. أو - كما يقول أبو السعود - إنه أفرد الأم مع تعدد الآيات، «لأنّ المراد بيان أصلية كلّ واحدة منها، أو بيان أن الكل بمنزلة آية واحدة»⁽⁴⁾.

ومن نظائر ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾، أي: جعلنا جميعهما آية، فلو أراد المولى انفراد كلّ منهما بآية - حسب رأي الفراء - لقال: وجعلنا ابن مريم وأمه آيتين؛ إذ كلّ منهما - في حدّ ذاته آية، فقد حملت مريم من غير ذكر، وتكلّم عيسى في المهد صبياً، ففي كلّ منهما آية للنّاس، غير أن ذلك في هذا الموضع - والله أعلم - غير مراد، وإنّما المراد جمعهما وكونهما آية للنّاس، والمعنى نفسه مستفاد من الآية السابقة في كون الآيات المحكمات والمتشابهات مجتمعة هنّ أم الكتاب.

(1) تفسير ابن كثير، ج 3/ 397.

(2) الدر المنثور، ج 6/ 431.

(3) تفسير روح المعاني، ج 6/ 234.

(4) تفسير أبي السعود، ج 2/ 7.

- ونُسب إلى الأخفش أنَّ الأفراد هنا على الحكاية، كأن يقول شخصٌ: ما لي أنصار، فتجيبه: أنا أنصارُك. أو يقول: ما لي نظيرٌ، فتردُّ عليه قائلاً: نحن نظيرُك. ومنها قول بعضهم: تكفيني تمرتان؛ فردَّ صاحبه: دَعْنِي من تَمَرَّتَان. أي: دعني ممَّا يقال له: تَمَرَّتَان. وكلُّ ذلك على الحكاية⁽¹⁾. غير أنَّ ابن الأنباري (ت، 577هـ) ضَعَفَ هذا الرَّأْيَ بقوله «وهذا بعيدٌ من الصَّواب في الآية، لأنَّ الإضمَّارَ لم يُقَمْ عليه دليلٌ، ولم تدع إليه حاجة»⁽²⁾.

ويضاف إلى ذلك أنَّ الشَّواهدَ التي يسوقونها لحكايات الأقوال هي حكاياتٌ لأقوالٍ معلومة حاضرة. أما في الآية، فليست هناك قرائن البتَّة تشير إلى أنَّها حكاية لقولٍ⁽³⁾. كما أنَّ حمل الكلام هنا على الحكاية قد يوقع في لبس، وهدف الحكاية - كما صرَّح به اللغويون - إزالة اللبس، وإزالة التَّوسع في الكلام، ودفع الإطالة فيه⁽⁴⁾.

- وقيل: (الأمُّ) وهنا بمعنى أصل الكتاب، وهو يوحد.

- وقيل: يحتمل أن يكون مفردًا وقع موضع الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: 7). بإفراد (سَمْع) وهو كثير في القرآن الكريم.

19 - وصف (الذُّرِّيَّة) الجمع بـ(طَيِّبَة) المفرد

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران: 38).

الذُّرِّيَّة جمع (للذكور والإناث)، وقد تكون في معنى الواحد، وهي هنا واحدٌ بدلالة ورود الدُّعَاءِ نفسه في موضعٍ آخر بصيغة الواحد في قوله تعالى على

(1) اللباب في صناعة الإعراب، ج 2/ 137.

(2) اللباب في علوم الكتاب، مصدر سابق، ص 29.

(3) الطبري، ج 3/ 171.

(4) أسرار العربية، ج 1/ 335.

لسان زكرياء: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتْ أَمْرًاى عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ﴾ (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (مريم: 5، 6).

أما تأنيث الصفة (طَيِّبَةً) فاتباعاً لتأنيث لفظ الذرَّة. ومن شواهد ذلك في الحديث النبوي قوله ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ مَاتَ، وَتَرَكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً أَجْرَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَ أَجْرِ عَمَلِهِمْ»⁽¹⁾.

ومن الشعر قول الشاعر:

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى وَأَنْتَ خَلِيفَةٌ، ذَاكَ الْكَمَالُ⁽²⁾
حيث أسند الفعل (ولدت) إلى خليفة وجعله مؤنثاً ووصف الخليفة بمؤنث (أخرى)⁽³⁾. اتباعاً للفظها، فلو اتبع المعنى لقال: وَلَدَهُ آخِرٌ. ولعل في إسناد الولادة إلى الذكر -وهي من خواص الأنثى- ما جعل الشاعر يؤنث الفعل المسند إليه، ليعطي الذكر شيئاً من خواص الأنثى، وليؤكد بهذا التأنيث العلاقة العرقية بين الوالد والمولود، والخليفة وأبيه.

20 - ورود (الكلمة) مفردة في سياق الحديث عن (كلمات)

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 64).

يتضح في سياق الآية الكريمة أنَّ الكلمة يُرادُ بها كلمات كثيرة، إذ هي مفسَّرة بما بعدها، وعلى ذلك، فإنَّ الإشكال في هذا الموضع أفراد (كلمة)⁽⁴⁾. وفي تعليل ذلك أقوال، منها:

- (1) القرطبي، ج 4/ 72.
- (2) تهذيب اللغة، ج 7/ 408؛ تاج العروس، ج 23/ 264 (خلف)؛ لسان العرب، ج 2/ 549 (فلح).
- (3) الطبري، ج 3/ 248.
- (4) لم يؤنث (سواء) لأنَّه في الأصل مصدر، والمصادر - كما هو معلوم - لا تؤنث ولا تنى ولا تجمع.

- قيل إنَّ (الكلمة) و (الكلام) سيَّان، وأن المراد بالكلمة الجمع (كلمات) غير أنه اكتفى بالواحد عن الجمع على سنة العرب في ذلك. ومن نظائر ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ (المؤمنون: 100)، إشارة إلى قول الكافر النادم يوم القيامة (ربِّ ارجعون). ومن ذلك قول النبي ﷺ: أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةٌ لَبِيدٌ. وذكر البيت المشهور، وأطلق عليه اسم كلمة⁽¹⁾. ومنه قوله تعالى:

﴿يَخْلِفُونَكَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةً الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ (التوبة: 74). ومعلوم أنهم تحدّثوا بمجموعة كلمات تتناول من بعض أصحاب رسول الله. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الزخرف: 28). والظاهر أنه لم تكن كلمة واحدة فقط، بل مجموعة كلمات كانت وصايا لعقبه.

ومن نظائر ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ (القمر: 54)، أي: وأنهار. وسبب إفراد النهر هنا التَّنَاسُب في الفواصل. ومن شواهد إطلاق الجزء على الكل في الشعر، قول معن بن أوس: [الوافر]

أَعْلَمَهُ الرِّمَایَةَ كُلَّ یَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ الْقَوَافِي فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي⁽²⁾
حيث أطلق القافية على قصيدة كاملة، أو على الأقل بيت أو عدة أبيات قالها التلميذ المعلم في هجاء من علّمه الشعر ونظم القصيد، وذلك من باب تسمية الكل باسم الجزء.

ومن نظائر التعبير عن الجمع بالواحد في الشعر قول علقمة بن عبدة:
[طويل]

(1) البخاري، ج 5/128، حديث رقم (3841)، ابن ماجه، ج 2/2236، كتاب الأدب، باب الشعر، حديث رقم (3757)، مسند أحمد، ج 2/339.

(2) ديوانه، ص 34؛ أساس البلاغة، (ش د د)؛ التنبيه والإيضاح، ج 2/27؛ تاج العروس، ج 8/178؛ (سدد)؛ كتاب العين، ج 7/183. وينسب أيضاً لمالك بن فهم، ولعقيل بن علفة.

بِهَا جِيفَ الْحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا فَيَبِضُّ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبٌ⁽¹⁾
 فعَبَّرَ عن الجمع (جلودها) بالواحد (جلدُها)؛ لأن الجلد مضاف إلى
 الجيف الجمع.

- وقيل إنَّ السَّرَّ في إطلاق (كلمة) على (كلمات) ارتباط بعضها ببعض
 حتى أصبحت في حكم الكلمة الواحدة في قوتها، وأصبحت كُلاً لا
 يقبل التجزيء، إذا اختلَّ جزءٌ منها اختلَّت الكلمة وتفكَّكت؛ والكلمة هنا
 كلمة التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده، وهي لفظاً «لا إله إلا الله».
 كلمات لا يقوم بعضها بمنأى عن الآخر، ولا تحصر الألوهية في الرب
 - جلَّ شأنه - إلا بمجموع تلك الكلمات⁽²⁾.

ومن وقوع (كلمة) موقع الجمع قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
 عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (غافر: 6)، فقد قرأ نافع وابن عامر
 بالجمع (كلمات)، وحقَّتْهم في ذلك أنَّ (كلمة) تقع على المفرد والجماعة
 لكنها قد تُجْمَع إذا أُريدَ بها الأجناس كما في قوله تعالى: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ
 رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْفَاقِينَ﴾ (التحریم: 12)، أي: بِشَرَائِعِهِ؛ لأنَّ الكتب قد
 ذكرت⁽³⁾.

ولعلَّ السَّرَّ في إفراد الكلمة في آية آل عمران أعلاه كونها في معرض
 دعوة أهل الكتاب إلى التفاهم والحوار، فليس الأليق - في هذا المقام -
 أن تتعدَّد الكلمات، وتتشعب نقاط الحوار، بل كلمة واحدة. أما عندما كان
 آدم في معرض الاستغفار، والإنابة إلى ربِّه، فإنَّ ذلك كان موقف تضرُّع
 ومناجاة طويلة، فناسب في ذلك المقام أن تُجْمَع (كلمة) على (كلمات)، فقال
 تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 37).

(1) ديوانه، ص 40؛ جمهرة اللغة، ص 350؛ خزانة الأدب، ج 7/ 559؛ شرح أبيات
 سيبويه، ج 1/ 134؛ شرح اختيارات المفضل، ص 1588؛ الكتاب، ج 1/ 209؛
 المقتضب، ج 2/ 173.

(2) الإمام أبو حفص عمر بن علي الحفصي، الباب في علوم الكتاب، ص 295.

(3) الحجة في القراءات، ج 1/ 627.

ولما كان إبراهيم خليل الله (عليه السلام) في معرض الاختبار والابتلاء من لدن ربه سبحانه، فقد ناسب أيضاً أن تتعدد الكلمات حتى تثبت بذلك قوة جناب الخليل، ويظهر جلده، واستحقاقه للإمامة؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (البقرة: 124). وحين كان المولى في معرض بيان كثرة كلماته، وأنها لا تنفذ، جمع الكلمة، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ (الكهف: 109). وكما في قوله تعالى: (لقمان: 27). هذا، والله أعلم.

21 - الإشارة ب(منه) بعد الصّدقات

قال تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ (النساء: 4).

الإشكال في هذه الآية الإشارة إلى (الصّدقات) وهي جمعُ تأنيث، بضمير المذكر المفرد (منه). وفي بيان ذلك أقوال:

أولاً: الضمير عائدٌ على اسم غير مذكور:

- ذهب بعضهم إلى أنّ الضمير يعود على اسم غير مذكور صراحةً في الآية، فقال بعضهم إنه يعود على (الصّداق) المدلول عليه بلفظة (صدقاتهن). على ذلك، فقد ذهب هذا الفريق إلى تفضيل التذكير في الضمير؛ حتى ينصرف المعنى إلى (الصّداق) ولا يشمل هبة الصّداق كلّها، يقول الزّمخشري: «ويجوز أن يكون تذكير الضمير؛ لينصرف إلى الصّداق الواحد فيكون متناولاً بعضه ولو أنّت لتناول ظاهره هبة هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه»⁽¹⁾. ويذهب كذلك أبو حيّان إلى تحسين تذكير الضمير ليشار بذلك إلى كلّ امرأة على حدة، يقول: «حسن تذكير الضمير لأن معنى «فإن طبن» فإن طابت كلّ امرأة، فلذلك قال: (منه)،

(1) الكشف، 1/ 235.

أي من صداقها، وهو نظير قوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ لِمَنْ مَثَكَا﴾ أي: لكل واحدةٍ منهنَّ، ولذلك أفرد مَثَكَا⁽¹⁾.

- ذهب فريق آخر إلى أنَّ الهاء تعود على اسم غير مذكورٍ صراحة، مفهوم من السياق، وهو (المال). وتقدير الكلام: وآتوا النساء مَالَهُنَّ.
- وذهب الراغب وابن عطية إلى أنَّ الهاء تعود على (الإيتاء) المدلول عليه بلفظة (آتوا)، وتقدير الكلام: فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْإِيْتَاءِ.

ثانياً: الضمير عائدٌ على اسمٍ مذكور:

- ذهب آخرون إلى أنَّ الهاء تعود على (الصدقات) وقد سوَّغ تذكيرها لأنَّ واحد الصداق يسدُّ مسدَّ الجمع، فيجوز أن يقال: (وآتوا النساء صداقهنَّ) دون اختلالٍ ظاهرٍ للمعنى. ومن نظائر ذلك قولهم: هو أحسنُ الفتيان وأجملُهُ. فلو قيل: هو أحسن فتى، لصحَّ المعنى وسليم.
 - وذهب آخرون إلى أنَّ الهاء تعود على (الصدقات) لكن الضمير يكون من باب حمل الضمير على اسم الإشارة، وقد يشار به مفرداً مذكراً إلى أشياء تقدَّمت عليها. ومما ذكروا من نظائر ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (آل عمران: 15)، مشيراً باسم الإشارة (ذلك) إلى أشياء كثيرة. فيجوز إيقاع اسم الإشارة للواحد وللإثنين، ولو جاء التثنية على التثنية بقوله (مِنْ ذَيْنِكَ) لجاز أيضاً. وقول رؤية مرتجراً:
- فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقُ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلِيْعُ الْبَهَقِ⁽²⁾
- حيث أجرى الضمير في (كأنه) مجرى اسم الإشارة، وهو في معرض الإشارة إلى الخطوط الجمع.

(1) البحر المحيط.

(2) ديوانه، ص 509، أساس البلاغة، ص 509؛ الأشباه والنظائر، ج 5/ 63؛ تخليص الشواهد، ص 53؛ خزانة الأدب، ج 1/ 88؛ شرح شواهد المغني، ج 2/ 761؛ المحتسب، ج 2/ 154؛ مغني اللبيب، ج 2/ 178.

وفي الآية إشكال آخر محتمل ألا وهو إفراد النفس، فهل جمع لكونه وصفاً لجماعة الإناث؟ وفي بيان ذلك أقوال⁽¹⁾:

- ذهب بعض نحويي الكوفة إلى جواز الجمع والإفراد في هذا الموضع فيقال: (فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً أو أنفُساً)، كما تقول: (ضقتُ به ذراعاً وذراعاً وأذرعاً)؛ لأنه منسوب إليك وإلى من تخبر عنه فلا بأس أن يُكتفى في ذلك بالواحد عن الجمع، ويقوي ذلك أمن اللبس في أن إفراد (نفس) لا يوهم أنه ليس بمعنى جمع في هذه الآية لأنه مسبوق بالحديث عن جمع.

- وذهب أبو جعفر النحاس (ت، 338هـ)، إلى أن الصواب في ذلك عنده أن (النفس) وقع موقع الأسماء التي تأتي بلفظ الواحد مؤدية معناه إذا ذكر بلفظ الواحد^(*).

22 - الإشارة بـ(ذلك) المفرد بعد ذكر الرُّسل الجمع

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (النساء: 150).

المراد بالآية أن علماء أهل الكتاب ورجال الدين منهم يريدون أن يتخذوا من الإيمان بمحمد ﷺ، في قرارة أنفسهم، وجحد أمره بين عوامهم طريقاً وديناً⁽²⁾. أما محل الاستشهاد في الآية ففي إفراد اسم الإشارة هنا (ذلك)،

(1) تفسير الطبري، ج 4/ 244.

(*) تفسير الطبري ج/ 243.

من الخصائص البلاغية في هذا الموضع إسناد فعل النفوس إلى أصحاب النفوس حيث قال: (طبن نفساً)، والأصل: طابت نفوسهن. وهو أسلوب كثير الورد في كلام العرب، فيقولون: ضقت بهذا الأمر ذراعاً وذرعاً، وقررت بهذا الأمر عيناً، والمعنى ضاق به ذرعي وقرت به عيني.

(2) القرطبي، ج 6/ 5.

فلم يثن وإن كان مسبوقاً بأمرين، وهما الإيمان ببعض أنبياء الله، والكفر ببعض الآخر، فكان الأظهر أن يشار إلى هذين الأمرين باسم الإشارة المثني؛ فيقال (بين ذينك).

وقد يحتمل اسم الإشارة (ذلك) المذكر الدلالة على المؤنث كما في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود: 118، 119).

فقد اختلف المفسرون في معاد الضمير على أقوال⁽¹⁾:

- قيل الإشارة راجعة على الاختلاف. أي: لأجل الاختلاف خلقهم، واللام بمعنى الصيرورة^(*). وعلى هذا التفسير، لا يكون في الآية أي إشكال في عود الضمير على الاختلاف لأنه اسم مذكر.

ومثال ذلك في الشعر قول أبي قيس بن الأسلت الأنصاري:

إذا نُهي السَّفيه جري إليه وخالف، والسَّفيه إلى خلاف⁽²⁾

(1) القرطبي، ج 9/ 115.

(*) اللام في اسم الإشارة (ذلك)، لام العاقبة أو لام المآل (أو لام الصيرورة في اصطلاح الكوفيين)، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فَالنَّفْطَةُ مَالٌ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (القصص: 8)، إذ لم يكن داعي فرعون وآله في التقاط موسى أن يكون لهم عدوًّا وحزناً، غير أن مآل الالتقاط صار إلى هذا. ومما ورد منه في الشعر قول الشاعر: لِدُّوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابٍ (ينظر: رسالتان في اللغة، ج 1/ 22).

وقول الآخر:

فَلِلْمَوْتِ تَغْذُو الْوَالِدَاتُ سَخَالَهَا كَمَا لَخْرَابِ الدُّورِ تُبْنِي الْمَسَاكِنَ

ينظر: مغني اللبيب، ج 1/ 282.

(2) الأشباه والنظائر، ج 5/ 179؛ إعراب القرآن، ص 902؛ أمالي المرتضى، ج 1/ 203؛ الإنصاف، ج 1/ 140؛ خزانة الأدب، ج 3/ 364؛ الخصائص، ج 3/ 49؛ الدرر، ج 1/ 216؛ شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص 244؛ مجالس ثعلب، ص 75؛ المحتسب، ج 1/ 170؛ همع الهوامع، ج 1/ 65.

فالضمير في (إليه) راجع على السَّفه المفهوم من كلمة (السَّفيه)، وإن كان غير مذكور.

- وقيل الإشارة للرحمة، أي: للرحمة خلقهم المدلول عليها بقوله (رَحِمَ). وعلى هذا التفسير يكون الإشكال في دلالة اسم الإشارة المذكر على المؤنث. وقد قدّم العلماء تعليقاتٍ عدّة في بيان سبب عدم تأنيث اسم الإشارة (ذلك) وذكروا أنّه قد يكون واحدًا من عدّة أمور:

- أنّ كلمة (الرحمة) مصدر، والمصدر يذكر ويؤنث. يقول ابن جني: «ولقوة المصدر، فإنّ دخول التاء عليها لا يحولها إلى التأنيث. والأصل في المصادر التذكير، والتاء فرع الأصل، والأصول لقوتها يُتصرّف فيها والفروع لضعفها يُتوقّف بها، ويقصر عن بعض ما تسوِّغه القوة لأصولها»⁽¹⁾.

- وقالوا إنّ تأنيث الرحمة غير حقيقي، والمؤنث غير الحقيقي جائزٌ تذكيره.

- كما قالوا إنّ الرحمة بمعنى (الفضل أو الخير) ولمّا حُمِلت على معنى الفضل، أخذت جنسه، وأشير إليها باسم الإشارة (ذلك).

- وقيل اسم الإشارة للاختلاف والرحمة، غير أنّه لم يثن بالتذكير أو التأنيث؛ لجواز الإشارة إلى شيئين متضادين باسم الإشارة المفرد. وممّا ذكروا من نظائر ذلك من الآيات القرآنية الآتية:

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَائٍ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ (البقرة: 68).

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: 67).

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: 110).

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: 58).

ومن تشنية اسم الإشارة قوله تعالى: ﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (القصص: 32). حيث ثنى (ذا) على (ذانك) العائد على قوله (اسألك يدك) وقوله (واضمم إليك جناحك).

23 - الإشارة بـ(به) بعد السَّمْع والأبصار والختم على القلوب

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (الأنعام: 46). في الآية السابقة عاد الضمير في (به) على أشياء: سمع، أبصار، ختم على القلوب... وعلى ذلك، فإن إفراده مذكراً يشير إشكالاً في معاد الضمير، فهل هو عائد على واحدٍ دون سائر المذكورات، أم هو عائد عليها جميعاً، وكيف ساغ عود الضمير مفرداً على مجموعة أشياء؟

- قالوا الضمير في (به) عائد على السَّمْع المذكور أولاً، ويندرج ما بعده من المذكورات تحته. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: 62) حيث إنَّ الهاء في قوله (يُرضوه) عائدة على الله، ورضا رسول الله مندرجة تحت رضا الله⁽¹⁾.

- وقيل تعود الهاء على جميع ما ذكر غير أنها وُحِّدَتْ ذهاباً بها مذهب اسم الإشارة، ويشار به مفرداً مذكراً إلى أشياء تقدّمت عليه. ومن نظائر ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (آل عمران: 15)، مشاراً باسم الإشارة (ذلك) إلى أشياء كثيرة.

ومنه قول رؤية مرتجزاً:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقُ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلِيْعُ الْبَهَقِ
حيث أجرى الضمير في (كأنه) مجرى اسم الإشارة.

- وقيل إن الهاء تعود على (الهدى) المدلول عليه بالمعنى. وتقدير الكلام: فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِالْهُدَى.

24 - وصف (سُور) الجمع بـ(مثله) المفرد المذكر

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَاهُ قُلُوبًا فَاتُّوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ (هود: 13، 14).

- في هذه الآية، (*) ورد قوله (مثله) وهو نعت لما سبقه أي (سُور)، وههنا وصف الجمع بالمفرد، وكان المحتمل أن يجمع النعت فيقال: أمثاله. لتوضيح هذا الإشكال، أشار العلماء إلى عدة أمور وتفسيرات هي:
- أن لفظ (مثل) - وإن كان لفظاً مفرداً - يوصف به المثنى والجمع والمؤنث. فمن وصف المثنى به قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ﴾ (المؤمنون: 47). ومن وصف الجمع به قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ (الكهف: 110).

(*) هذه الآية من آيات التحدي في القرآن الكريم، والتَّحْدِي مطالبة النبي منكري نبوته بالإتيان بمثل ما أتى به. وآيات التحدي هي: (البقرة: 23)، (يونس: 38)، (هود: 13-14)، (الإسراء: 88)، (الطور: 33 - 34).

أما من حيث درجات التحدي، فإنها قد تفاوتت من الإتيان بالقرآن مجموعاً، إلى الإتيان بعشر سُور، فالإتيان بسورة واحدة مفتراة. وتجدر الإشارة إلى أن الترتيب التزولي لهذه السُور مع مقارنتها بدرجات التحدي قد يبدو - في ظاهره - غير منسجم في بعض الآيات. ففي سورة يونس (آية: 38)، قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ وقد عجز العرب عن الإتيان بتلك السورة، فكيف جاز بعد ذلك في سورة متأخرة عن الآية السابقة أن يقال ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ﴾؟ فالتدرج ينبغي أن يكون من الأصعب إلى الأسهل في التحدي، وهو يحقق قدرًا كبيرًا من إفحام الخصم ومعاجزته وتبكيته ولكنه غير متحقق في ظاهر هاتين الآيتين. ومن أوجه الإجابات عن هذا التساؤل ما أشار إليه المبرّد أن التحدي في سورة يونس كان للإتيان بسورة واحدة موازية للقرآن الكريم في الإخبار عن المغيبات، والأحكام، والوعد والوعيد. ولما عجزوا عن الجمع بين تلك الخصائص؛ جاء التحدي في سورة هود بالإتيان بعشر سُور بدون تلك الخصائص، وإنما بالاكْتِفَاء بالصياغة البلاغية فحسب. ينظر: الباب في علوم الكتاب، ج 10/449.

- وذهب آخرون إلى أنَّ لفظة (مثل) مصدر في هذا الموضع؛ لذلك لم تطابق الموصوف في التثنية، وحكم المصدر معلوم في عدم مطابقتها للموصوف.
- وقيل إنَّ سبب الإفراد كونُ المراد بـ(مثل) المماثلة في البشريَّة، وليس المراد به الكميَّة؛ فجاز -والحال كذلك- الإفراد.
- وقال آخرون لأنَّه اكتفى بالواحد عن الاثنين، وتلك ظاهرة كثيرة الورد في الأسلوب القرآني وفي كلام العرب.
- ويجوز أن يطابق في العدد كما في قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلُورِ الْمَكْنُونِ (الواقعة: 22، 23). وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (محمد: 38). حيث جاء بلفظة (مثل) مطابقة في العدد لضمير الجماعة في فعل (يكونوا)⁽¹⁾.

25 - عطف (الشَّمائل) الجمع على (اليمين) المفرد

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَتِيُوا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ﴾ (النحل: 48).

الملحوظ في هذا الموضع أن الآية الكريمة عطفت المفرد (اليمين) على الجمع (الشَّمائل) وهما جهتان متقابلتان ليس بينهما تفاوت، ومن المعروف أنَّ من عادة العرب في كلامهم مواجهة الواحد الواحد، فيقال للرجل: خُذْ عَنْ يَمِينِكَ، ويقال: (عن اليمين والشَّمال)، أو (عن الأيمان والشَّمائل). وما جاء مخالفاً لذلك فلمعنى واعتبار خاص، كما في قوله تعالى:

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾

(لقمان: 19). بإضافة المفرد إلى الجمع (صوت + الحمير) ففي تفسير ذلك قالوا إنَّ الحكمة في هذه الإضافة أنَّ لكل جنسٍ من المخلوقات صوتاً خاصاً به من بين سائر المخلوقات، فكأنَّ في إفراد الصَّوت هنا إشارةً إلى هذا النوع الخاصِّ

(1) التبيان في إعراب القرآن، ج 2/ 150.

بالحمار، وكأنَّ الآية تقول: إِنَّ أَنْكَرَ أَصْوَاتِ الْأَجْناسِ، صوت هذا الجنس من المخلوقات⁽¹⁾. فالصَّوت المفرد هنا إشارة إلى هذا الصَّوت الخاصِّ بفصيلة الحمار من بين سائر الحيوانات.

أما مواجهة الواحد الجمع في آية النحل السابقة ففيها أقوال:

- قيل إنَّ لفظ (مَا) مفردٌ في لفظه، يجوز أن يكون جمعاً في معناه، فردَّ القرآن الكريم (اليَمين) على لفظ (مَا)، وردَّ (الشَّمائل) على معناه، وهو في هذا الموضع، كأنَّه قال: عن يمين ما خلق، ثم رجع إلى معناه في الشَّمائل.

- وقيل: لأنَّ معنى الكلام: أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ، يتفياً ظلال ما خلق من شيء عن يمينه، أي: ما خلق وشمائله⁽²⁾.

- وقال الزَّمخشري لأنَّ معنى اليَمين، وإنَّ كان واحداً، معنى الجمع. وكان يجوز أيضاً قوله: عن الأيمان والشَّمائل، (بجمع كليهما)، أو عن اليمين والشَّمال، (بإفراد كليهما)، كما يجوز: عن الأيمان والشَّمال، أو عن اليمين والشَّمائل (بجمع أحدهما وإفراد الآخر)، ومن ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: 45). والمراد الأدبار.

ومن الشعر قول جرير يهجو عمرو بن لُجاء التيمي:

الْوَارِدُونَ وَتَيْمٌ فِي ذُرَا سَبِيٍّ قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ⁽³⁾
الشَّاهد في هذا البيت أنَّ الشَّاعر لم يقل: (جُلود الجواميس) على الجمع.

- وقيل جاز ذلك لأنَّ من عادة العرب أنَّه إذا اجتمعت علامتان في شيء

(1) زاد المسير، ج 6/ 323.

(2) الطبري، 14/ 117، 116.

(3) الطبري، ج 14/ 117؛ القرطبي، ج 10/ 112؛ لسان العرب، ج 6/ 120. ويروى أيضاً: تدعوك تيم وتيم في قرى سباء...

واحد، أن تجمع إحداهما، وتُفرد الأخرى. وذَكَرُوا من نظائر ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ (البقرة: 7). بجمع (قلوبهم) وإفراد (سمعهم). وقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ (المائدة: 16). وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (الأنعام: 1).

أما السَّر في إفراد (اليمين) وجمع (الشَّمال)، فقد ذهب بعضهم إلى أن الشَّمْس إذا طلعت وأنت متوجِّهٌ إلى القبلة، انبسط الظلُّ عن اليمين، ثم في حالٍ يميل إلى جهة الشَّمال، ثم حالات، فلأجل ذلك سمَّاها المولى (شمال) بالجمع⁽¹⁾. وهو تعليل بعيد.

وقد ورد عطف الواحد على الجمع في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ (النحل: 78).

فبالإضافة إلى ما يمكن قوله من الآراء السابقة حول عطف المفرد (السَّمع) على الجمع (الأبصار) في هذه الآية، فإنَّ للشيخ الشعراوي (رحمه الله) تعليلاً وجيهاً في بيان الحكمة في إفراد السَّمع وجمع الأبصار في آيات القرآن الكريم وفي هذا الموضع، فبدأ أولاً ببيان السَّر في تقديم السَّمع على البصر، فقال إنَّ الحكمة في ذلك كون الأذن هي أوَّل آلة إدراكية تؤدي وظيفتها فور ولادة الإنسان؛ لأنَّك إنَّ أشرت بأصبعك إلى عيني طفلٍ مضى على ولادته أيام لا يتأثر، ولكنه يتأثر وينفعل بصوتٍ صادرٍ حوله؛ لذلك قدم السَّمع في آيات القرآن الكريم على البصر.

أما إفراد السَّمع وجمع البصر في القرآن الكريم فقد علَّل ذلك بالأمر نفسه؛ حيث ذهب إلى أنَّ الإنسان يستقبل بأذنه أصواتاً متعدِّدة في وقتٍ واحد، ولكن مجال رؤيته محدود، والأصوات تصل إلى أذن الإنسان من كلِّ مكان دون أن يستطيع منعها. أما البصر فبإمكان الإنسان أن يزيح نظره عن أيِّ

شيء لا يريد رؤيته، ويضيف الشيخ الشعراوي قائلاً: «ولذلك يأتي السمع مفرداً، والأبصار متعددة، لأن هذا يرى شيئاً وهذا يرى شيئاً، لكنك بالأذن تسمع نائماً أو متيقظاً، وتأتيك الأصوات ويتوحد المدرك من السمع، فهي آلة الاستدعاء والإيقاظ». لذلك حين تحدث القرآن عن أصحاب الكهف وأن المولى القدير أراد أن ينمهم ثلاثمائة سنة وتسعاً، ضرب على آذانهم حتى لا توقظهم أصوات الرعود والبروق والحيوانات وغيرها⁽¹⁾.

26 - الإشارة إلى (الأنعام) الجمع بهاء التذكير المفرد (بطونه)

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِطُونِهِ﴾ (النحل: 66).

تقرر القاعدة العامة في الفعل المسند إلى المؤنث أن تلحقه تاء مجزومة، نحو: جاء عليٌّ، وجاءت فاطمة. وقد تسقط تلك التاء اكتفاءً بالاسم عن العلامة، نحو: قرأ عائشة⁽²⁾. ويُعامل الجمع غير العاقل معاملة الاسم المفرد المؤنث، فيُسند الفعل إليه بالتاء الساكنة، ويُشار إليه بالهاء. ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ (الأحزاب: 10) وقوله

- (1) تفسير الشعراوي، (القاهرة: أخبار اليوم، د. ت.)، مج 8/ 4865.
- (2) قال سيبويه: «وإنما حذفوا التاء لأنهم صار عندهم إظهار المؤنث يكفيهم عن ذكرهم التاء...». لذلك قرئت آيات كثيرة بالتاء تارة، وبالياء تارة أخرى كما في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ (مريم: 90، الشورى: 5)، قرئت (يكاد). وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (طه: 133)، قرئت بالياء والتاء. وجاءت آيات كذلك بالتاء في أفعال وتركها في آيات أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (آل عمران: 86) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (البقرة: 213، 253). حيث أتى الفعل المسند إلى (البينات) بدون تاء. أما في آيات أخرى، فقد أتى الفعل بالتاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ (البقرة: 209)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اخْذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ (النساء: 153) وقيل إن سبب التذكير في المواضع السابقة على حمل (البينة) معنى (بيان)، أو أنه مصدر حقه التذكير. أما ذكر التاء، فباعتبار لفظ الاسم، أي (بينة)، أو بحملها على معنى (حجة)، ومعنى الآية، فقد جاءتهم حجة واضحة وهي رسل الله صلوات الله عليهم.

تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (النحل: 5).
فالأفعال (زاغت، بلغت، خلقها) يشير فيها الضمير المفرد المؤنث إلى جماعة
إناث غير عاقلة.

وعلى ذلك، فإنَّ في الآية السابقة إشكالاً وهو الإشارة إلى جماعة غير
العاقل بضمير المفرد المذكر، لا بضمير المفرد المؤنث، حيث قال
(بُطُونِه)، ولم يؤنث الضمير على (بُطُونِهَا).

وفي بيان ذلك أقوال، منها:

- قيل إنَّ الواحد والجمع فيه سواء، وهو نظير اللبن والألبان،

ومنه قول الراجز:

إذا رأيت أنجمًا من الأسد جبهته أو الخراة والكتد
بال سهيل في الفضيخ ففسد وطاب ألبان اللقاح فبرد
والشاهد في هذا الرجز أنَّه عنى بقوله (فبرد) معنى اللبن المفرد لا
الجمع، فلو أراد الجمع لأعاد الضمير على (الألبان) بالتاء في الفعل فيقول:
فبردت. ومعنى البيت أنَّ الفضيخ، وهو نوع من الرطب يُعصر ويُبذ، يفسد
عند طلوع سهيل فكأنه بال فيه⁽¹⁾.

- ويمكن أن يعدَّ من باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة على وزن
(أفعال)، مثل: ثوب أسمال، ولأجل ذلك جاز عود الضمير عليه
مفردًا، ومن العرب من يقول: هو الأنعام.

وكما هو معروف، فإنَّ تذكير (نعم) جائز، ومنه قول حصين الحارثي:

[رجز]

أكل عام نعم تحوونه يلقحه قوم وينتجون⁽²⁾

(1) جمهرة الأمثال، 2/ 191.

(2) الكتاب، ج 1/ 65؛ الخزائن، ج 1/ 196؛ الإنصاف، ج 1/ 62؛ الكشف، ج 2/ 615؛
البحر المحيط، ج 5/ 493.

حيث أشار إلى النعم بالهاء المفرد المذكر بقوله: (تحوونه وينتجونه).
ومن أفراد (النعم) قول الشاعر:

تركنا الخيل والنعم المفدى وقلنا للنساء بها: أقيمي⁽¹⁾
حيث وصف (النعم) بقوله (المفدى) ولم يؤنثه فيقول: (المفداة)، فدلّ
ذلك على أنه اعتبر الاسم مفرداً، لا جمعاً.

- وقيل إنَّ الهاء عائدة على (ما) مبهم، غير مذكور، وتقدير الكلام: مما
في بطون ما ذكرنا.

ومن التذكير قول الأسود بن يعفر النهشلي: [كامل]

إنَّ المنية والحثوف كلاهما يوفي المخارم يرقبان سوادي⁽²⁾
حيث لم يقل: (كلتاهما) على التأنيث.

- وقيل إنه من باب تضمين اللفظ معنى لفظ آخر، كما في قول الصلتان
العبدى: [كامل]

إنَّ السَّماحة والمروءة ضُمَّنا قَبْرًا بِمَزَوْ عَلَى الطَّرِيقِ الواضِحِ
حيث ضُمَّن معنى (السَّماحة) و(المروءة) معنى (الكرم)⁽³⁾. وقيل: إنه لم
يقل (ضُمَّنا)، لأنَّ المصادر تذكّر وتؤنث⁽⁴⁾.

وقول عروة بن حزام: [طويل]

وعَفْرَاءُ أَدْنَى النَّاسِ مَنِّي مَوْدَّةً وَعَفْرَاءُ عَنِّي الْمَعْرِضُ الْمُتَوَانِي
إذ أراد بمحبوبته (عفراء) معنى: الشَّخص أو الإنسان أو نحوهما.

(1) الجمل لابن عصفور، ج 2/396؛ روح المعاني، ج 14/176؛ البحر المحيط،
ج 5/493؛ الدر المصون، ج 4/342.

(2) الخزانة، ج 1/405؛ شرح شواهد المغني، ج 2/553؛ البحر المحيط، ج 6/308.

(3) الإنصاف في مسائل الخلاف، ج 2/763.

(4) الجمل في النحو، ج 1/293، وينسب البيت لزياد الأعجم، ديوانه 54؛ والأغاني،
ج 15/308؛ أمالي المرتضى، ج 1/72؛ سمط اللآلي، ص 921؛ الشعر والشعراء،
ج 1/438؛ المقاصد النحوية، ج 2/502؛ وهو بلا نسبة في: الإنصاف، ج 2/763؛
شذور الذهب، ص 220.

ومن تضمين لفظ معنى لفظ آخر في التَّنْزِيلِ الحكيم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ (الأنعام: 78)، أي الطالع. وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (النمل: 35)، أي: جاءت⁽¹⁾. أمّا ما ورد في قوله تعالى: ﴿تُشْفِقُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ (المؤمنون: 21) فقليل إنه يحتمل أحد وجهين:

- أن يكون جمع تكسير للمفرد (نعم)، نحو: جَبَل (ج: جبال)، وعلى ذلك أنت الضمير مطابقة لجمع التّكسير.
- أن يكون اسمًا مفردًا في معنى الجمع.

27 - الإخبار عن جماعة الأنبياء بـ(نبيًا) المفرد

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (مريم: 49).

يتبيّن في سياق هذه الآية أن الحديث عن جماعة من الأنبياء (عليهم السّلام)، وقد أخبر عنهم المولى سبحانه، وقال (وكلا جعلنا نبيا)، فأخبر عن الجماعة بالواحد، وكان المنتظر أن يجمع الاسم المنصوب (نبيًا) على أنبياء. كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (الأنبياء: 72)، بجمع (صالحين)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لُحْيَةٍ قَانِتُونَ﴾ (البقرة: 116)، بقوله (قانتون) بالجمع.

أما في توجيه أفراد الاسم (نبيًا) في آية مريم السابقة، ففيه أقوال، منها:

- قيل وحّد لأنّ لفظ (كلّ) موحد، فكان الأفراد على اعتبار اللفظ لا المعنى. ويُراد بـ(كلّ) هنا: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب⁽²⁾. وقد أفرد

(1) الطبري، ج 14/131-133.

(2) الطبري، ج 16/93.

إمّا للدلالة على الجنس، وعدم اللبس، أو لأنه في الأصل مصدر،
فإفراؤه في اللفظ بمنزلة جمعه.

ومن نظائر ذلك قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ (البقرة: 285). حيث لم يقل: آمَنُوا بالجمع. ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الرعد: 2) فقال: يجري، باعتبار لفظ (كل). وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (الإسراء: 84). بإفراد الفعل (يعمل)، وإفراد الضمير في (شاكلته). ومنه أيضاً: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ (طه: 135). بإفراد متربص. ونظائره كثيرة كما في: (النور: 41)، وفي (ص: 14)، و (ق: 14).

ولعل السر في إفراد (نبي) في هذه الآية - والله أعلم - أن الأنبياء جميعهم كنفس واحدة في العقيدة والرّسالة، واتّحاد طريقتهم، واتّفاق كلمتهم. وأيضاً، فإن الآية لا تشير إلى أشخاص الأنبياء بقدرها تشير إلى صفة النبوة فيهم، وما دامت تلك الصّفة مماثلة فيهم جميعاً، فلا يضير أن يبقى الأسلوب على الإفراد.

ومن إطلاق (كل) على المثني:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 130)، وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ (فاطر: 12). والحديث عن البحرين: العذب الفرات، والمالح.

ومن إطلاقه على الجمع:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ (الأنعام: 84)، وقوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ (الأعراف: 46). وقوله: ﴿وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لُؤْفِقْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (هود: 111)، ونظائر ذلك في: (الأنبياء: 33)، وفي (الروم: 36)، وفي (يس: 32).

بناءً على تلك الشواهد، فإن (كلّ) وإن كان يفيد الجمع في معناه، فإن لفظه يضاف إلى الواحد وإلى الاثنين كثيراً، إما باعتبار لفظه أو باعتبارات بلاغية أخرى.

28 - وصف الجماعة بـ(جسداً) المفرد

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (الأنبياء: 8).

وردت لفظة (جسداً) مفردة، بعد جمع ذكور؛ إذ الحديث عن جماعة الرُّسل (صلوات الله عليهم)، والقاعدة النحوية العامة تقتضي المطابقة في العدد بأن يوصف المفرد بالمفرد، والجمع بالجمع، فلم يتحقق ذلك في ظاهر هذه الآية. ومن التعليلات في ذلك:

- قيل: وحّد لأنّه اسم جنس⁽¹⁾.
- ذهب بعضهم إلى أنّه مفرد بمعنى الجمع، وحُذِفَ منه المضاف، وتقدير الكلام: ذوي أجساد⁽²⁾.
- ويجوز في هذه الآية أن يكون الفعل (جعلناهم) متعدّياً لواحد، ويكون له حالان هما (جسداً)، والفعل المضارع (لا يأكلون). ويبقى الضمير (هم) مفعولاً للفعل (جعلنا). ويبدو أن هذا التفسير أقربها إلى الصواب، وأوضحها؛ لأنّ معرض الحديث في نفي صفة الجسدية الملكية عن الرُّسل.

29 - الوصف بـ(طفلاً) المفرد في سياق خطاب الجمع (نخرجكم)

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ

(1) البغوي، ج 3/ 239.

(2) التبيان في إعراب القرآن، ج 2/ 131.

ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴿(الحج: 5)﴾. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (غافر: 67).

محلُّ الإشكال في الآيتين السابقتين ورود (طفل) بالإنفراد دون الجمع، وهو في معرض خطاب موجه إلى جماعة بضمير (كُم) الملحق بالأفعال السابقة على (طفلاً). ومن الأقوال الواردة في بيان هذا الإشكال ما يأتي:

- قيل إنه في الأصل مصدر؛ لذلك لم يجمع أو أنه من باب إقامة الواحد مقام الجمع⁽¹⁾. ومن ذلك قول القطامي: [وافر]

كَأَنَّ نُسُوعَ رَحْلِي حِينَ ضَمَّتْ حَوَالِبَ غُرَزًا وَمَعَى جِيَاعًا⁽²⁾
فالشاهد في هذا البيت أَنَّ الشاعر أقام الواحد مقام الجمع، حيث قال (مَعَى) في موضع (أَمْعَاء)، ووصفه بوصف الجمع (جِيَاع). ومن ذلك أيضًا قول الشاعر: [كامل]:

يَلْحِينَنِي فِي حَبِّهَا وَيَلْمُنَنِي إِنَّ الْعَوَازِلَ لَسَنَ لِي بِأَمِيرٍ
والشاهد هنا أيضًا إقامة الواحد مقام الجمع؛ حيث قال (أَمِير)، وهو في معرض الخبر عن جماعة العوازل⁽³⁾. وكان المتوقع أن يقول: إن العوازل لسن لي بأميرات.

ويقول الشاعر أيضًا:

كُلُّوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعَفُّوا فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَانُ خَمِيصٍ⁽⁴⁾

(1) التبيان في إعراب القرآن، ج 2/ 140.

(2) ديوانه، ص 41؛ الأشباه والنظائر، ج 4/ 198؛ الإيضاح، ص 229؛ تاج العروس، ج 5/ 253 (غرز)؛ لسان العرب، ج 5/ 386.

(3) القرطبي، ج 12/ 11.

(4) أسرار العربية، ج 1/ 203؛ تلخيص الشواهد، ص 157؛ خزانة الأدب، ج 7/ 537؛ الدرر، ج 1/ 152؛ شرح أبيات سيويه، ج 1/ 374؛ شرح المفصل، ج 5/ 8؛ الكتاب، ج 1/ 210؛ المحتسب، ج 2/ 87؛ المقتضب، ج 2/ 172؛ همع الهوامع، ج 1/ 50.

حيث جعل (بطن) المفرد موضع (بطون) الجمع.

وقيل إن الإفراد هنا أريد به الجنس أو أريد به: ثم نُخْرِجُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ طِفْلاً⁽¹⁾. ومِمَّا ساقوا لذلك من الأمثلة في التَّنْزِيلِ الحكيم قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: 69)، أي: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ. وَعَدُّوا مِنْ ذَلِكَ أَيْضاً قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ (هود: 65). فقالوا إِنَّ الْأَصْلَ: تَمَتَّعُوا فِي دِيَارِكُمْ.. غير أَنَّ معنى الكلام: لِيَتَمَتَّعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فِي دَارِهِ. وقيل إِنَّ الْمَرَادَ بِالذَّارِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْبَلَدُ؛ لِذَلِكَ لَزِمَ الْإِفْرَادُ⁽²⁾.

ومن شواهد إقامة المفرد مقام الجمع في الشعر قول عامر الخصفي:
[وافر]

هُمُ الْمَوْلَى وَإِنْ جَنَفُوا عَلَيْنَا وَإِنَّا مِنْ لِقَائِهِمْ لَزُور⁽³⁾
فالمولى ههنا مفردٌ في موضعِ الجمعِ (الموالي) لأنَّه خبر لجماعة الذُّكُورِ (هم)⁽⁴⁾.

- أما المبرد فإنه يذهب إلى أَنَّ (طفلاً) في الآية الكريمة اسمٌ يُسْتَعْمَلُ مُصَدَّرًا كَالرُّضَا وَالْعَدْلِ، فيقع على الواحد وعلى الجمع، ويقالُ مَثَلًا: غُلَامٌ طِفْلٌ، وَغُلَمَانٌ طِفْلٌ، وَجَارِيَةٌ طِفْلٌ، وَجَارِيتَانِ طِفْلٌ، وَجَوَارِ طِفْلٌ. كما يُوْنَّثُ فيقال: طِفْلٌ: طِفْلَانِ، وَطِفْلَةٌ: طِفْلَتَانِ، وَأَطْفَالٌ، وَلَا يُوْنَّثُ الْجَمْعُ (طِفْلَاتٌ)⁽⁵⁾.

ومِمَّا ذَكَرَ مِنَ الْآيَاتِ نِظَائِرَ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِي

(1) البيضاوي، ج 5/100.

(2) القرطبي، ج 9/60.

(3) تاج العروس، ج 1 ج 5/408 (ولي)؛ لسان العرب، ج 9/33 (جنف).

(4) القرطبي، ج 2/270، 272.

(5) القرطبي، ج 12/12. وقيل أصل (الطفل) الانجذاب واللين، فيقال: طفلت الشمس للغروب، أي: مالت إليه وانجذبت نحوه. ومنه قيل للذي ينجذب إلى الطعام: طِفْلِي. (الخصائص، ج 2/118، 119).

لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ ﴿النور: 31﴾. وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ (المؤمنون: 67)، حيث إنَّ كلمة (سامِرًا) مفرد بمعنى الجمع (سمار)، وهو الجماعة يتحدثون بالليل^(*). ومما يعضد ذلك ورود قراءة على (سُمرا) جمع سامِر، مثل: شاهد (ج: شُهد)⁽¹⁾. وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: 29). والمرادُ به هنا الجمع (الجمع)⁽²⁾.

هذا، وقد ذهب ابن جني إلى أنَّ المقصد البلاغي وراء إفراد (طفل) في الآية، تصغير شأن الإنسان والتقليل من أمره، يقول: «حُسْن لفظ الواحد هنا لأنه موضع تصغير لشأن الإنسان وتصغيره، وتحقير لأمره، فلا فرق بين ذكر الواحد لذلك لقلته عن الجماعة، ولأنَّ معناه أيضاً: نخرج كلَّ واحدٍ منكم طفلاً»⁽³⁾.

يذهب بعض الباحثين إلى تلمُّس تعليلٍ بلاغيٍّ في إيثار المفرد في هذه المواضع، وإيثار الجمع في آية النور، وهو تعليلٌ شبيهٌ بما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُنْفِقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: 74) حيث قالوا إنَّ سرَّ التعبير بالمفرد لدى الحديث عن إخراج ابن آدم من بطن أمِّه طفلاً، أن الأطفال عندما يخرجون من بطون أمهاتهم يكونون شديدي الشَّبه بعضهم ببعض، ولا يكون هناك بينهم تميُّز واضحٌ في القسَمات أو الأحاسيس أو العواطف والميول والتصرُّفات.. فلما كانوا كأنَّهم، من شدَّة الشَّبه، صورة واحدة، جاء التعبير القرآني بالإفراد تلميحاً دقيقاً إلى هذه السَّمة المشتركة بينهم.

(*) يقال: قومٌ سُمرا أو سَامِر، وهما سيَّان. وقيل وحَّد لأنَّ (سامِراً) في الآية، بمعنى الوقت. وذكر من شواهد ذلك قول الشاعر:

مَنْ دُونَهُمْ إِنْ جِئْتَهُمْ سُمرا عَزَفَ الْقِيَانُ وَمَجْلَسُ غَمْرٍ

والمعنى هنا (إِنْ جِئْتَهُمْ لَيْلًا). (ينظر: القرطبي، ج 12/ 136-137).

(1) التبيان في إعراب القرآن، ج 2/ 151.

(2) القرطبي، ج 17/ 167.

(3) المحتسب، ج 2/ 267.

أما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ (النور: 59) حيث أُوثر الجمع على المفرد، فقد يكون ذلك بسبب أن الأطفال، حين بلوغهم، يتمايزون في الأشكال، وتتنوع ميولهم وعواطفهم، وتتحدد في كل واحدٍ منهم فروق فردية تحدد ذاتيته وشخصيته، وتمييزه -في الوقت نفسه- عن غيره من الأطفال. ومراعاةً لهذا الاختلاف بين الأفراد؛ كان التعبير القرآني بالجمع دون المفرد أنسب في هذا الموقف. هذا والله أعلم⁽¹⁾.

30 - الإخبار عن جمع المؤمنين بـ(إماما) المفرد

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: 74).

في هذه الآية، يدعو الصالحون ربهم بأن يمنحهم جملة أمورٍ منها أن يجعلهم للمتقين إماماً، يهدون الناس إلى صراط الله العزيز الحكيم، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور. والمعلوم أن الصالحين جماعة، فما سبب إشارتهم إلى أنفسهم بضمير الأفراد في لفظ (إماماً) دون الإشارة بالجمع (أئمة)؟

في بيان سبب إفراذ لفظ الإمام ذهب المفسرون إلى أقوالٍ، منها:

- قال بعضهم إنه جمعٌ يُطلق على الواحد وما فوقه، ويكتفى فيه بالمفرد عن الجمع، فيقال مثلاً: أصحاب محمدٍ إمامٌ أو أئمة للناس. ومن نظائر ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ (الحج: 5)⁽²⁾. ومعنى الآية: اجعل كل واحدٍ منّا إماماً⁽³⁾.

- وذهب بعض البصريين إلى أنه جمع، كما تقول: كلهم عدول، أو أنه مصدر مثل: صيام وقيام. وعلى ذلك لا يجمع.

(1) طبق، عبد الجواد محمد. دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، (دار الأرقم، ط1، 1413هـ/1993م)، ص199.

(2) التبيان في إعراب القرآن، ج2/165.

(3) البحر المحيط، ج6/517.

- قال بعضهم بل (الإمام) جمع (آم) اسم فاعل من الذي يؤمُّ الناس، كصائم، وقائم. والمعنى: واجعلنا قاصدين للمتقين⁽¹⁾.
- وقيل هو على الحكاية، كما تقول جواباً على سائل: مَنْ أميركم؟ هؤلاء أميرنا (بمعنى أمراؤنا) على الحكاية⁽²⁾. ولا نرى ذلك؛ حيث لعدم وجود قرينة واضحة عليه، وإن كان السياق في ذكر دعاء المؤمنين. ومن نظائر هذا الاستخدام في الشعر قول الشاعر: [كامل]:
يَا عَاذِلَاتِي لَا تَرِدْنَ مَلَامَتِي إِنَّ الْعَوَاذِلَ لَسَنَ لِي بِأَمِيرٍ⁽³⁾
والشاهد في هذا البيت أفراد لفظ (أمير)، وهو خبر للعواذل الجمع، وكان حقّه أن يقال (بأميرات) مطابقة للجمع.
- ذهب فريق آخر إلى أن (إماما) جمع إمامة، أي أنه على وزن (فعالة) الذي جمعه على (فعال)، نحو: قلادة: (ج: قلاد).
- وذهب بعضهم إلى تعليل ذلك تعليلاً بلاغياً بالقول إن السر في عدم الجمع اتّحاد كلمة الأئمة المهتدين، واتّفاق عقيدتهم، فهم جماعة ولكن طريقتهم واحدة؛ لذلك حُسِّن أن يختار لهم لفظ الأفراد. يقول الزمخشري: «أرادوا: اجعلنا إماماً واحداً لاتّحادنا واتّفاق كلمتنا»⁽⁴⁾. ومنه قوله تعالى على لسان موسى وأخيه هارون: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: 16). حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن السرّ في أفراد (رسول) اتّحاد موسى وهارون في الشريعة والهدف، فكأنهما رسول واحد.
- وبعد، فقد أثر القرآن الكريم في مواضع أخرى التعبير بالجمع دون المفرد في لفظة (إمام) كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (الأنبياء: 73).

(1) البيضاوي، ج 4/ 229.

(2) الطبري، 54/ 19؛ والقرطبي، 83/ 13. ويروى: يُلْحِنَنِي فِي حَبِّهَا وَيُلْمَنِي ...

(3) الخصائص، ج 3/ 174؛ شرح شواهد المغني، ج 2/ 561؛ مغني اللبيب، ج 1/ 232.

(4) الكشف، ج 3/ 303.

وقد عُلِّل هذا الإيثار بأن الحديث في هذا المقام عن إبراهيم وأنبياء آخرين (عليهم السلام). وبما أن كلَّ نبيٍّ إمامٌ مستقلٌّ إلى قومه في الهداية وفي فعل الخيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وسنَّ شرائعه التفصيلية الخاصة به وبقومه حسب ما أوحى الله إليه، فقد كان إيثار الجمع دلالةً على هذا التنوع، وإن كان الأنبياء يتفوقون على الأصل العامِّ ألا وهو التوحيد لله تعالى.

والأمر كذلك، حيث تحدَّث القرآن الكريم عن أئمة الكفر والطغيان، وأمر نبيّه بمقاتلتهم، وإخلاء طريق الهداية أمام الشعوب أثر القرآن الكريم صيغة الجمع، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَلِيلًا أَيْمَةً الْكُفْرُ﴾ (التوبة: 12). فكلُّ واحدٍ من رؤوس الكفر إمامٌ في نفسه، كلُّ له طريقته في التّضليل والطغيان، والصدُّ عن سبيل الله. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْتَكَاَرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ (القصص: 41) لذلك يقدم كلُّ واحدٍ منهم قومه يوم القيامة إلى جهنم وبئس المصير.

31 - إفراد (الذَّنْب) وذنوب ابن آدم كثيرة

قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (غافر: 3).

قد يرد سؤال في هذا الموضع: لِمَ لَمْ يجمع الذَّنْب على (الذنوب)؛ حيث إن العبد لا يذنب ذنباً واحداً وإنما يذنب ذنوباً كثيرة؟ أجيب عن ذلك بأنَّ (الذَّنْب) لم يجمع على (الذنوب)؛ لأنَّه أريد به الفعل. أما قوله تعالى: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، فقليل إنَّه جمع (توبة) كما يُجمع (دُومَة) على (دُوم)، و(عُومَة) على (عُوم)⁽¹⁾. وكما يُجمع (تمر) على (تمر)⁽²⁾.

وممَّا ذكروا من اللطائف في هذه الآية أنَّ العطف جيء به هنا لرفع توهم تلازم غفران الذَّنْب وقبول التَّوْب، فهما مفهومان متغايران، ووصفان

(1) فتح القدير، ج 24 / 41.

(2) اللباب في علوم الكتاب، ج 16 / 10.

مختلفان. أما الآية بعدها: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾⁽¹⁾. فقد ترك العطف بين الصفتين الأخيرتين دلالة على التلازم بينهما، وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر. أما القطع بين هاتين الصفتين وما قبلهما من الصفتين الأوليين، فدلالة على أنه ينفرد كل منهما عن الآخر.

ويقول الزمخشري في توضيح ذلك: «فإن قلت: ما بال الواو في قوله: (وقابل التوب)؟ قلت: فيها نكتة جليلة، وهي إفادة الجمع للمذنب والتائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيقبلها فيكتبها له طاعة من الطاعات، وإن لم يجعلها محاة للذنوب كمن لم يذنب كأنه قال: جامع المغفرة والقبول»⁽²⁾.

32 - إفراد (منتصر) و (الدبر) وهما خبران عن جمع

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ ﴿٤٤﴾ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدُّبْرُ﴾ (القمر 44، 45).

يشير المشركون المغرورون إلى أنفسهم في هذا الموضع بأنهم لا يُقَهَرُونَ لكثرة عددهم، وقوة عسكرهم، لكن القرآن الكريم يرد عليهم وينبئ رسوله بأنهم سوف يهزمون ويؤلون هاربين من الفئة المؤمنة القليلة الغالبة بأمر الله تعالى.

والإشكال في هذا الموضع إفراد كلمة (منتصر) وكلمة (الدبر) مع العلم بأنها تشير إلى جماعة حقهم أن تجمع الصفات المضافة إليهم. وفي تفسير هذا الإشكال أقوال:

أولاً: لفظة (منتصر)

- أن كلمة (منتصر) أفردت اتباعاً لرؤوس الآي، والفواصل السابقة عليها، فلو جمعت لكانت الفاصلة نوناً واقعة بين فواصل مختلفة عنها. (النذر، الزبر، الدبر، وأمر...).

(1) الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ج 1/ 143.

(2) الكشف، ج 3/ 413.

- أن المراد بقولهم: (جميع منتصر) أن كل واحد منهم غالب منتصر، وهو مثل قولك: كلهم عالم، أي: كل واحد منهم عالم. وعليه كان ردُّ المولى سبحانه عليهم بقوله: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ﴾. أي: سيُهزم كل واحد منكم، ولن يبقَ لرجل منكم مفخرة ولا حيلة. وتلك مبالغة في المغالبة والقهر.

ثانياً: لفظة (جميع)

- أن لفظة (جميع) على قطع الإضافة، فكأنهم قالوا: نحن جميع الناس، ولا ناس سوانا، ونحن كثرة غالبية. فلما حُذِف المضاف إليه (الناس)؛ عَوَّض عنه بالتَّنوين، وأفرد (منتصر) مراعاةً للفظ (جميع) الذي يحتمل الكثرة والاتِّفاق⁽¹⁾.

ثالثاً: لفظة (الدُّبر)

- قيل إنَّ سبب إفراد (الدُّبر) في هذه الآية، أنَّ كلا الاستعمالين جائز، فلو قال: (ويولِّون الأدبارَ) لجاز ذلك أيضاً. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ﴾، (الأنعام: 45)، والمراد: فقطع أدبار القوم، اكتفاءً بالواحد عن الجمع⁽²⁾. ويجوز أن يكون الإفراد مراعاةً لرؤوس الآي ونظام الفواصل.
- وجاء (الدُّبر) مفرداً في آيات منها: (الأنفال: 16)، و(يوسف: 25). كما ورد جمعاً في آيات منها: (آل عمران: 111)، و(النساء: 47)، و(المائدة: 21)، و(الأنفال: 50)، و(الحجر: 65)، و(الإسراء: 46)، و(الأحزاب: 15)، و(محمد: 25، 27)، و(الفتح: 22)، و(الحشر: 12).

33 - عطف (نهر) المفرد على (جَنَّات) الجمع

- قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ (القمر: 54).
- موضع الإشكال في هذه الآية أن التَّنزيل الحكيم تحدَّث عن المتقين وما

(1) تفسير الرازي، ج 1 ج 5/413.

(2) إعراب مشكل القرآن، ج 2/786.

هم فيه من النعيم المقيم، فبيّن أنهم في جناتٍ، وعطف على ذلك باسم مفرد فقال (نهر)، فهل في الجنة نهرٌ واحدٌ أم أنهار؟ وما سبب الإفراد هنا، وقد جمعت في مواضع أخرى كثيرة في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (آل عمران: 198). والعادة عطف المفرد على المفرد، والجمع على الجمع وهكذا، فيقال: (في جنّات وأنهار) (*).

ذهب العلماء إلى تعليلات عديدة لهذا الإفراد، منها:

- قيل إنه لمراعاة نظام الفواصل، حيث وقعت الآية بين مجموع آياتٍ تنتهي بفاصلة الرء، وهي في كلمات بوزن موحد هو (فعل) فلو جُمع (نهر) على (أنهار) لاختلّ وزن الفواصل وإيقاعها.

- وقيل إنه من باب الاستعارة وذلك بتشبيه النهر بالنور والضياء، فكأن النور المنتشر ماءً متدفق. أي أن النهر هنا معنى مجازي.

- ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى معنى مشابه لهذا ببيان أن علة إفراد النهر في هذا المقام أن الظرفية المشار إليها في الآية ظرفية مجازية، بينما في المواضع الأخرى ظرفية حقيقية كما في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (الصف: 12)، يقول:

«والذي ألاحظه في هذا المقام أن الظرفية في قوله سبحانه: (نهر) ظرفية مجازية بينما الظرفية في (جنات) حقيقية، ولما كانت الأنهار تابعة وملازمة لها بدليل الآيات الأخرى مثل ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لم يعد حرف الجر

(*) من مواضع ورود (الأنهار) للدلالة على معناها الحقيقي، أي على الأنهار في الدنيا المواضع الآتية: (البقرة: 74؛ 266؛ والأنعام: 6؛ والرعد: 4؛ وإبراهيم: 32؛ والنحل: 15؛ والإسراء: 91؛ والفرقان: 10؛ والنمل: 61؛ والزخرف: 51؛ ونوح: 12). أما سائر المواضع فدالة على أنهار الجنة. وورد مفرداً دالاً على النهر الحقيقي في الدنيا في موضعين هما: قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ (البقرة: 249). وقوله: ﴿كَلِمَاتٍ الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْطَاهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ (الكهف: 33).

(في) الظرفية مع الأنهار جمعاً في القرآن الكريم، وإنما وردت باعتبار التَّحْتِيَّة للجنات، ولما قُصِدَ بالظرفية هنا نعيم ومتعة الأنهار، لأنَّ المتقين لا يكونون في نهر حقيقي، كان التعبير دالاً على المقصود على طريق المجاز بتصوير تمكُّنهم من نعيم ومتعة النهر بتمكُّن الظرف من المظروف، وكأنَّ هذه المتعة قد شملتهم وغمرتهم، وهذا المعنى المجازي يتحقَّق بورود المفرد، ولا يتوقَّف تحقُّقه على الجمع، لكن لو أورد المفرد في مقام الجمع فقليل مثلاً (يجري من تحتها النهر) لما كان المفرد وافياً بالمراد في مقام إظهار النعيم، لأنَّ هناك فرقاً كبيراً (بين) أن يكون تحت الجنات نهر واحد، أو مجموعة من الأنهار، والله أعلم⁽¹⁾.

وعلى كلٍّ، فإن إيراد المفرد في هذا المقام -في حدِّ ذاته- لهُو قَمَّةُ البلاغة، حيث فتح النص لقبول الاحتمالات والوجوه الكثيرة المقبولة في تفسير هذه الآية.

ومثل ذلك قوله تعالى في وصف هول يوم القيامة وغليان نار جهنم: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (المرسلات: 32).

إذ يصف المولى عزَّ وجلَّ ما أعدَّه للمكذِّبين من العذاب الذي يحارُّ في وصفه العقول، فأخبر أن المكذِّبين يؤمرون يوم القيامة بالانطلاق إلى ما كانوا به يكذبون في الدنيا، فيؤمرون بالانطلاق إلى ظلِّ لهبٍ جهنم العظيم، وهو -للمفارقة- لا يظللُّهم، ولا يمنع عنهم حرَّ لهب جهنم، وترمي إليهم اللَّهبُ بشرٍ كأنَّه القصر المشيد. ومن عادة العرب تشبيه الناقة الضَّخمة أو الشَّيء العظيم بالقصر. من ذلك قول الشاعر:

فوقفتُ فيها ناقتي وكأنَّها فدنُّ لأقضي حاجة المتلوم

حيث شبَّه الشاعر ناقتَه في الضَّخامة والصَّلابَة بالقدن، وهو القصر.

الإشكال في هذا الموضع أنَّ الشرر جمع، وقد شُبِّهت بالقصر، وهو في

(1) طبق، عبد الجواد محمد. دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، مرجع سابق، ص 200-2001.

صورة مفرد، وكان المتوقع أن يقال: (بَشَرٍ كَالْقُصُورِ) بالمطابقة بين المشبه والمشبّه به في العدد، حيث يشبه عادةً الواحد بالواحد بالمفرد والكثير بالكثير. فما مسوغ ذلك؟

- قيل أفرد (القصر) توفيقاً لرؤوس الآي، وهو نظير قوله تعالى: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: 45). حيث لم يجمع (الدبر) مراعاةً لفواصل الآي.

- وقيل أفرد (القصر) لأنّ القصر والقصور سيّان في الجمعيّة.

- وقيل إنّ (القصر) هنا بمعنى الغليظ من الأشجار، وأحدثها: (قَصْرَة)، نحو: جَمْرَة، ج: جَمْرٌ⁽¹⁾. وقرئ بفتح العين (القصر) وهو أعناق النخل. وجاء تشبيه ألوان الإبل بالصُّفْر، والمراد به السُّود، والعرب تسمي السُّود من الإبل (صُفْراً). ومن ذلك قول الأعشى:

تلك خَيْلي منها وتلك رِكابِي هَنّ صُفْرٌ أولادها كالزَّبِيبِ⁽²⁾

- وقيل إنّ السّرّ في إفراد القصر، كونُ المرادِ بالتّشبيه ههنا إنّما هو الحالة، ومعنى الكلام: ترمي بِشَرٍ كَعِظَمِ الْقُصُورِ، لذلك لم يلزم الجمع، وذكروا من نظائر ذلك قوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (الأحزاب: 19) ولم يقل المولى عزّ وجلّ (كعيون الذي يُغشى عليه من الموت)؛ إذ المرادُ في التّشبيه الفعلُ لا العينُ⁽³⁾. ويمكن أن يُعدّ ذلك أيضاً من باب حذف المضاف المكرّر، وتقدير الكلام: كدوران عيون الذي يغشى عليه من الموت. كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ (طه: 96) أي: من تراب أثر حافر فرس الرسول. واللغة العربيّة تنفر من كثرة المتضايقات⁽⁴⁾.

(1) الكشف، ج 4/ 671.

(2) ديوانه، ص 219؛ خزانة الأدب، ج 2/ 464؛ لسان العرب، ج 6/ 130؛ المخصص، ج 2/ 105.

(3) الطبري، ج 29/ 241.

(4) الخصائص، ج 2/ 363.

المبحث الثالث: التثنية في موضع المفرد أو الجمع

34 - الإشارة إلى الموعودين بـ(اللذان) المثني، دون الجمع

قال تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: 16).

من عادة العرب - في معرض البيان على الوعيد على فعلٍ أو الوعد عليه - جعلُ أسماء الموعودين جمعاً أو مفرداً؛ لأنَّ الواحد يدلُّ على جنسه، فيقولون مثلاً: الذي يفعل كذا وكذا فله كذا وكذا.. والذين يفعلون كذا وكذا فلهم كذا وكذا من الثواب أو العقاب. وهذا الأسلوب كثير الورد في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (الليل: 15، 16)، وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون: 4، 5).

ويُعدُّ هذا الأسلوب ظاهرة متواردة في الحديث النبويّ أي جعلُ الإشارة في معرض الوعيد إلى جماعة موعودين، بصرف النظر عن فاعل المنكر فرداً أم جماعة، ومن ذلك قوله ﷺ: «لينتهين أناسٌ عن ودعهم الجمعات أو ليختمنَّ الله على قلوبهم ثم ليكوننَّ من الغافلين»⁽¹⁾. وقد ورد كثيراً قوله ﷺ: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا...»⁽²⁾. ولهذا الأسلوب الخطابي أثره الإيجابي في معرض النهي والزجر عن المنكرات، حيث يخفف من حدة المواجهة مع المخالف، ويستر عليه، ويحفظ عليه كرامته وأنفته؛ فيعود عن فعلته بانقيادٍ وطيب نفس، وتقدير لموقف الزاجر منه.

(1) صحيح مسلم، (ح: 865).

(2) ينظر مثلاً: صحيح البخاري، (ح: 444، 717، 2584)؛ وصحيح مسلم، (ح: 1401، 1504، 1694).

أما في الآية السابقة، فقد خولف هذا الأصل؛ حيث جيء بصيغة التثنية في الإشارة إلى الموعودين بالعقاب إلى أن يتوبوا عن رذيلة الزنا ويصلحوا. ولا تجوز التثنية في هذا الموضع إلا في حالة واحدة، وهي: أن يكون الأمر فعلاً لا يمكن صدوره إلا من مشاركة من شخصين مختلفين، كالزنا مثلاً، فيجوز حينئذ أن يُثنى الفعل⁽¹⁾. وعلى ذلك، فإن مجيء الاسم الموصول المثنى (اللذان) والأفعال المسندة إليها، قد روعيت فيه هذه الدققة التعبيرية.

35 - ورود (بهما) المثنى بعد (أو) الدال على التخيير بين شيئين

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: 135).

القاعدة: يقتضي العطف بـ(أو) التخيير وعدم المطابقة؛ لأن الحكم في عود الضمير، والإخبار لأحد الشئيين أو أحد الأشياء المعطوفة بـ(أو). فيقال مثلاً: زيد أو عمرو أكرمته. ولا يجوز قولك: أكرمتهما، لأن معنى (أو) حينئذ ينتفي؛ إذ المكرم لا بد أن يكون أحدهما دون الآخر. قرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا) بجعل (كان) تامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾. وعلى ذلك لا إشكال في توجيه الآية. أمّا بإعمال (كان) في القراءات الأخرى، فإن ذلك محل إشكال في تعليل تثنية الضمير في الآية، وكان ظاهر الكلام أن يقال (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى به). وللعلماء في ذلك خمسة أوجه⁽²⁾:

- الوجه الأول: أن (أو) هنا بمعنى (الواو)، وهو قول الكوفيين. وبذلك لا وجه للاعتراض على تثنية الضمير في (بهما)، لكن هذا التفسير محل نظر؛ لصعوبة تحقق معنى الاشتراك في الوقت نفسه بين حالتي الغنى والفقر.

(1) الطبري، ج 4/ 296.

(2) روح المعاني، 5/ 168؛ والبيان في إعراب القرآن، 1/ 197.

- الوجه الثاني: أَنَّ الضمير في (بِهِمَا) لا يعود على الغني والفقير، وإنما على جنسَي الغني والفقير، وحينئذ لا تكون الجملة «فالله أولى بِهِمَا» جواباً للشرط، وإنما جوابه الجملة المقدرة «الله أولى بجنسَي الغني والفقير».
- الوجه الثالث: أَنَّ الضمير في (بِهِمَا) عائدٌ على الخصمين، كأنه قال: إن يكن الخصمان غنياً أو فقيراً فالله أولى بكل منهما.
- الوجه الرابع: أَنَّ الضمير في (بِهِمَا) عائدٌ على معنى الغنى والفقْر لا على الغني والفقير المذكورين، والتقدير: فالله أولى بغنى الغني وفقْر الفقير.
- الوجه الخامس: أَنَّ «أو» دالة على التفصيل، وَأَنَّ الضمير في (بِهِمَا) في تلك الحالة، عائدة على المشهود له والمشهود عليه، وذلك باعتبار أحوال كل من المتخاصمين: فقد يكون المتخاصمين غنيين، وقد يكونان فقيرين، وقد يكون أحدهما غنياً والآخر فقيراً. وعلى هذا الاعتبار تكون (أو) لتفصيل ما أُبهم من تلك الأحوال المذكورة.

36 - الإشارة إلى السموات والأرض بالمتنى

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: 17).

كان المتوقع في هذه الآية أن يسند الظرف إلى جماعة الإناث غير العاقل فيقال (وما بينهما) باعتبار الحديث عن السموات والأرض. أوضح العلماء في توجيه إسناد الضمير إلى الاثنين ما يأتي:

- أَنَّ المراد بالتثنية هنا النوعان والصنفان، أي أَنَّهُ أراد بـ(وما بينهما): ما بين هذين الصنفين أو النوعين من الأشياء، فاعتبر السموات وما فيهن نوعاً واحداً، واعتبر الأرضين وما فيهن نوعاً واحداً أيضاً. ومن نظائر ذلك في الشعر قول الراعي النميري: [كامل]

طَرَقَا فَتِلْكَ هَمَاهِمِي أَقْرِيهِمَا قُلُوصًا لَوَاقِحَ كَالْقِسِيِّ وَحُولا⁽¹⁾
 الشَّاهِدُ أَنَّ الشَّاعِرَ أَشَارَ إِلَى الْاِثْنَيْنِ بِقَوْلِهِ (فَتِلْكَ)، وَكَانَ الْمَحْتَمَلُ أَنْ
 يَقُولَ (فَتِلْكُمَا)، وَهُوَ فِي الْإِخْبَارِ عَنْ شَيْئَيْنِ، وَقَدْ ثَنَّى اسْمَ الضَّمِيرِ فِي
 (أَقْرِيهِمَا) رَجوعاً إِلَى مَعْنَى الْكَلَامِ⁽²⁾.

وَمِنْ نِظَائِرِ آيَةِ الْمَائِدَةِ السَّابِقَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾
 (الأنبياء: 30).

وَالْمُرَادُ: كَانَتِ السَّمَوَاتُ ذَاتَ رِتْقٍ، مُلْتَحِمَةً، فَفَتَّقَهَا الْخَالِقُ إِلَى أَفْلَاقٍ
 وَأَجْرَامٍ، وَكَانَتِ الْأَرْضُ كَذَلِكَ كُتْلَةً مُلْتَحِمَةً، لَا فَرْجَةَ فِيهَا، فَفَتَّقَهَا اللَّهُ
 إِلَى طَبَقَاتٍ وَأَقَالِيمٍ⁽³⁾.

فَالْإِشْكَالُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ كَوْنُ الضَّمِيرِ فِي (كَانَتَا) عَائِداً عَلَى السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ، وَهُوَ ضَمِيرٌ مثنًى وَالْمَتَقَدِّمُ عَلَيْهِ جَمْعٌ، وَكَانَ الْمَحْتَمَلُ أَنْ يَقَالَ:
 (كُنَّ). أَمَّا كَلِمَةُ (رَتْقًا)، فَقَدْ أَفْرَدَتْ لِأَنَّهَا فِي الْأَصْلِ مُصْدَرٌ، أَوْ لِأَنَّهَا عَلَى
 حَذْفِ مُضَافٍ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: ذَوَاتِنِي رَتْقًا.

فَسَّرَ الْعُلَمَاءُ تَثْنِيَةَ الضَّمِيرِ فِي هَذَا الْفِعْلِ عَلَى النِّحْوِ الْآتِي:

- يَرَى الزَّمَخْشَرِيُّ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ اعْتِبَارِ السَّمَوَاتِ بِأَجْمَعِهَا عَلَى حِدَةٍ،
 وَالْأَرْضَيْنِ بِأَجْمَعِهَا أَيْضاً عَلَى حِدَةٍ، يَقُولُ: وَإِنَّمَا قَالَ (كَانَتَا) دُونَ
 (كُنَّ)، لِأَنَّ الْمُرَادَ جَمَاعَةَ السَّمَاوَاتِ، وَجَمَاعَةَ الْأَرْضَيْنِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ:
 لِقَاحَانَ سَوْدَاوَانَ، أَيْ: جَمَاعَتَانِ. فَعَلَ فِي الْمَضْمَرِ مَا فَعَلَ فِي
 الْمَظْهَرِ⁽⁴⁾.

(1) ديوانه، 216؛ تهذيب اللغة، ج 5/384؛ جمهرة اللغة، ص 570، تاج العروس،
 (مادة: همم)؛ لسان العرب، 12/620.

(2) الطبري، ج 6/163؛ والقرطبي، ج 6/119.

(3) تفسير البيضاوي، ج 4/91.

(4) الكشف، ج 3/9.

- وأوضح ذلك أبو البقاء العكبري (ت 616هـ)، بأسلوب آخر، إذ قال إنه أراد الصنفين والجنسين. ويقرب هذا التعليل أن يكون أوجه التعليقات في هذا المقام، خاصة أن السموات والأرض قد وصفتا بأنهما كانتا رتقاً. أي أنه اعتبر السموات السبع -وهي رتق- جزءاً، واعتبر الأرضين السبع وهي كذلك في المرحلة الرتقية جزءاً منفرداً، ثم أشار إلى هذين الجزأين المنفصلين بضمير الاثنين. وقد عُدَّ من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ (فاطر: 41)⁽¹⁾. فالسموات نوع، والأرضون نوع آخر.

وفي أقوال العرب كثيرٌ من هذا الأسلوب، كقولهم: أصلحنا بين القومين، ومرّت بنا غنمان أسودان. باعتبار كل فريق قوماً، وباعتبار كل قطع غنما. ومن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلي: [كامل]

إِنَّ الْمَنِيَّةَ وَالْحُتُوفَ كِلَاهُمَا يَوْفِي الْمَخَارِمِ يَرْقُبَانِ سَوَادِي⁽²⁾
فقال (كلاهما) لأنه أراد النوعين: نوع المنيّة ونوع الحتوف.

ومنه قول القطامي (عمرو بن شَيْم الثعلبي):

أَلَمْ يَحْزَنْكَ أَنَّ حِبَالَ قَيْسٍ وَتَغْلِبَ قَدْ تَبَايَنَتَا انْقِطَاعاً⁽³⁾
كان الظاهر أن يقول (تبأينت) لمراعاة الجمع في (حبال) غير أنه راعى النوع: نوع حبال قيس، ونوع حبال تغلب. والحبال هنا مجاز المراد به: الصّلات بين القبيلتين.

ومثال الآية السابقة قوله تعالى في معرض الحديث الزلزلة والهدّة الشديدة التي تقع للأرضين والجبال يوم القيامة. ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ (الحاقة: 13، 14).

فكان المحتمل أن يقول (فدُكَّكن) إشارة إلى جماعة الإناث غير

(1) معاني القرآن، ج 2/ 634.

(2) الخزانة، ج 1/ 405؛ شرح شواهد المغني، ج 2/ 553؛ البحر المحيط، ج 6/ 308.

(3) القرطبي، ج 13/ 63؛ البحر المحيط، ج 6/ 308.

العاقل، والسّرُّ في ذلك - حسب رأي الفراء - اعتبار الأرض كُتْلَةً واحدة، والجبال كُتْلَةً أخرى، ثم الإشارة إلى هاتين الكتلتين بضمير الاثنين⁽¹⁾. ويقول أبو أسيدة الديبيري: [طويل]

وإنّ لنا شَيْخَيْن لا يَنْفَعَانِنَا غَنِيَّيْنِ لا يجدي علينا غِنَاهُمَا
هُمَا سَيِّدَانَا يَزْعُمَانِ وَإِنَّمَا يَسُودَانِنَا إِنْ يَسَرَتْ غَنَمَاهُمَا⁽²⁾
والشاهد في هذا البيت ثنية الغنم (غَنَمَاهُمَا)، مع أنّ المذكورين يملكان
أغناماً كثيرة، لكن الشاعر اعتبر مجموع أغنام كلٍّ من الشَّيْخَيْن على حدة،
مجموعةً واحدةً، ثم أشار إلى هاتين المجموعتين بضمير الاثنين. ومثل ذلك ما
ورد في حديث ابن عمر عن النبي ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين
الغنمين، تعير إلى هذه مرّة، وإلى هذه مرّة»⁽³⁾. فأشار النبي ﷺ إلى قِطْعَيْنِ
من الغنم بصيغة المثنى، وأشار إلى كلِّ قِطْعٍ بصيغة المفرد (إلى هذه). باعتبار
كلِّ قِطْعٍ مجموعةً واحدةً.

(1) القرطبي، 264/18.

(2) أوضح المسالك، ج 2/59؛ الدرر، ج 2/255؛ شرح التصريح، ج 1/254؛ لسان
العرب، ج 5/296 (يسر)؛ المقاصد النحوية، ج 2/403.

(3) صحيح مسلم، (ح: 2784)؛ وسنن أبي داود (ح: 1651). وصححه الألباني.

المبحث الرابع: الجمع في موضع المفرد

37 - التَّمييزُ الجمع (أسباطاً) بعد العدد اثنتي عشرة

قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْرِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَّهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعَتَهُمْ اثْنَتَىٰ عَشَرَ أَسْبَاطًا أُمَمًا...﴾ (الأعراف: 159، 160).

في هذه الآية ورد مميّز العدد فوق العشرة جمعاً، أي مميّز العدد (12)، خلاف الأصل المعروف في تمييز الأعداد؛ لأنّ الأعداد فوق العشرة يكون تمييزها مفرداً منصوباً، من ذلك في القرآن الكريم مميّزاً للعدد (12).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ (التوبة: 36). وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ (المائدة: 12).

ومما ورد مع غير العدد (12) مما هو فوق العشرة: قوله: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر: 30)، أي: تسعة عشر ملكاً.

إنّ هذه القاعدة لم تراغ في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿اثْنَتَىٰ عَشَرَ أَسْبَاطًا﴾. حيث جمع المميّز جمع تكسير، وعدل عن إفراده مفرداً منصوباً. فما علّة مجيئه جمعاً؟ وما علّة تأنيث العدد (12) على الرغم من أنّ تمييزه مذكّر؟

- يجيب الزمخشري، عن هذا التساؤل ويعلّل ذلك بأنّه من باب وضع (أسباطاً) موضع (قبيلة)، فلو أفرد (أسباطاً) انسجاماً مع القاعدة لما تحقّق فيه المعنى المراد، لأن المراد بالآية: وقطّعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة تضم أسباطاً لا سبطاً واحداً. وعلى الرغم من وضع (سبط) موضع (قبيلة)، فإنّ التّنزيل الرّبانيّ جمع حتى يزيل الوهم المحتمل في كون الأسباط اثنتي عشرة فقط. فهم أسباط كثيرون، وسياق الآية يدلّ على ذلك في مثل كلمة (أُمَمًا)، وكلمة (كلّ أناس). والسّبط: أولاد الولد، وكان بنو

إسرائيل اثنتي عشرة قبيلةً من اثنتي عشرة ولداً من ولد يعقوب (عليه السلام)⁽¹⁾.

- ويرى الحوفي (أبو الحسن، ت 430هـ)، أنه يجوز أن يكون على حذف تمييز العدد، والتقدير: اثنتي عشرة فرقة. و (أسباطا) نعت لفرقة، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه. أما تأنيث العدد (12) مع وقوعه على الأسباط المذكور، فلأنه بمعنى: الفرقة أو الأمة.

ومن نظائر وصف التمييز المفرد بالجمع مراعاةً للمعنى قول عنترة:
فيها اثنتان وأربعون حلوبةً سوداً كخافية الغراب الأشحم⁽²⁾
والشاهد قوله (سوداً) وكان الأظهر أن يقول (سوداء) صفةً للاثنتين والأربعين حلوبةً.

- أما الإمام البغوي، (ت، 516هـ)، فيذهب إلى أن في الكلام تقديماً وتأخيراً تقديره: وقطعناهم أسباطاً أمماً اثنتي عشرة.

نذهب إلى أن الرّاجح في هذه المسألة ما ساقه الزمخشري؛ لوضوحه وبُعده عن التّكلف، وربطه المباشر بتوضيح المراد من الآية، وواقع حال بني إسرائيل القبليّة. يقول أبو حيان: «وهذه كلّها تقادير متكلّفة، والأجرى على قواعد العرب القول الذي بدأنا به»⁽³⁾. إشارةً إلى قول الزمخشري.

38 - ضمير مجموع في (ملئهم) وضمير مستتر مفرد في (يفتنهم)

قال تعالى: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (يونس: 83).

الإشكال في هذه الآية إفراد الضمير المستتر في (يفتنهم)، وهو مسبوق

(1) الكشف، ج 2/ 159.

(2) ديوانه 193؛ الحيوان، 3/ 425؛ خزانة الأدب، 7/ 390؛ شرح شذور الذهب، 325؛ المقاصد النحوية، 4/ 487.

(3) البحر المحيط، ج 4/ 407.

بأسماء، فكأنَّ الضمير المفرد عاد على جمع دون أن يطابق تلك الجموع السابقة عليه.

- يرى بعض الكوفيّين أنّه جاز ذلك لأنَّ الملك إذا ذُكر لخوفٍ أو سفر ونحوهما، فإنَّ الذَّهن يذهبُ - عادةً - إليه وإلى حاشيته وعساكره معه، وقد يكون أراد بذلك فرعون وآله، ثم حذف (آل فرعون)، ومن نظائر ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ (يوسف: 82)، أي: أهل القرية.
- ويذهب بعض البصريّين إلى ترجيح أنَّ الهاء والميم عائدتان على (الذرية)، أي: آمنوا وهم خائفون من فرعون، ومن ملاٍّ من ذريّتهم هم، حيث كان في بني إسرائيل من يتبع فرعون⁽¹⁾.
- وقيل: جاز الإخبار عن فرعون بالجمع في قوله: (وملئهم) لأنَّ فرعون كان جبارًا، والجبار يُخبر عنه بلفظ الجمع.
- ومثل ذلك قيل إنّه أفرد الضمير في هذا الموضع فقال (أَنْ يَفْتِنَهُمْ)؛ لأنّه أخبر عن فرعون، وأنَّ قومه كانوا على مثل ما كان عليه، فلم يكن أهل مصر يرون غير ما يرى فرعون، وعلى ذلك جاز أن يُسند الفعل إليه وحده دون سائر قومه.

39 - المراد بضمير (كُمْ) في (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ) أهو للنبي أم للكفار؟

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَٰهَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (هود: 13، 14).

يتحدّى القرآن الكريم في هذه الآية المشركين الذين زعموا بأنَّ القرآن مفترى من عند محمد ﷺ أن يأتوا بعشر سور من مثل سور القرآن الكريم، وأن يستعينوا في ذلك بمن شاؤوا من شركائهم. وفي حال عدم استجابتهم لهذا

التَّحْدِي، لا هم ولا شركاؤهم، يتَّضح أن القرآن إنما هو تنزيلٌ من عند الله، ولا يبقى أمام المعاندين خيارٌ إلا التَّسليم والإيمان بالله وبرسوله.

الإشكال في هذه الآية مرجع الضمير في (لكم) الجمع. فهل الضمير عائدة على النبي ﷺ، أم على الكفار المعاندين؟ في بيان ذلك عدّة احتمالات في مرجع الضمير: احتمال كون الخطاب في قوله (لكم)، موجّهاً إلى النبي ﷺ خاصّة، واحتمال كونه موجّهاً له ولأصحابه، واحتمال كونه موجّهاً لكفار مكّة المعاندين.

- فإذا كان الخطاب مراداً به النبي ﷺ فإنّ لفظ الخطاب جمعٌ يراد به مفرد، فكأنه قال: قل لهم يأتوا بعشر سُورٍ مفترياتٍ... فإن لم يستجيبوا لك يا محمد؛ فاعلم أنّما أنزل هذا القرآن بعلم الله.

- وإذا كان الخطاب موجّهاً إلى النبي ﷺ وأصحابه، فإنّه قد أتى على أصله، وخوِطب الجمعُ بضمير الجمع، ولا إشكال في الآية.

- أما إذا كان الخطاب مراداً به الكفار، فإنّه كذلك جمعٌ خوِطب به جماعة، غير أن الخطاب يكون للنبي ﷺ، ويكون الخطاب الإلهي من قوله: «قل... (حتى قوله) فهل أنتم مُسلمون» حكاية لما سيقوله النبي ﷺ للكفار، فيكون معنى الآية هكذا: قل لهم، يا محمد، يأتوا بعشر سُورٍ مثله مفترياتٍ، ويدعوا مَنْ استطاعوا من دُون الله... فإن لم يستجِبْ لهم تلك الأصنام في الإعانة على معارضة القرآن، فقل لهم، يا محمد: اعلّموا أنّما أنزل هذا القرآن بعلم الله....

والبلاغة في هذه الآية -والله أعلم- قبولها لهذا التَّعدُّد القرائي، مما يجعل المخاطبين جميعاً مؤمنين وكفّاراً، في دائرة الاهتمام والعناية بالخطاب القرآني.

40 - الإخبار بالفعل (بما كانوا يصنعون) بعد ذكر القرية الآمنة

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: 112).

ابتدأت هذه الآية بالحديث عن ضرب الله مثلاً بالقرية التي كان أهلها آمنين مطمئنين من العدو والجوع، والمخاوف، وكانت تحيا في رغد العيش الذي كان يأتيها من كل مكان دون جهدٍ وكدٍّ مماثل منها. لكن القرية كفرت بأنعم الله، ولم تؤدِّ واجب الشُّكر بالطاعة، واتباع الرُّسل؛ فعمَّهم الله بالجوع والخوف، ومرارة العيش جزاءً على كفرانهم. وهذا مضروبٌ لأهل مكة ولغيرها من القرى والمدن إلى يوم القيامة في التحذير من سخط الله ومن كفران أنعمه والغفلة عن حفظها ورعايتها.

ابتدأت الآية بالحديث عن أهل القرية، لكنَّها عدلت عنهم واختتمت بالإشارة إلى أهلها بقوله (كانوا يصنعون)، فلو أتى الكلام على منوال ما ابتدأ به؛ لقال (كانت تصنع). فاحتمل أن يكون ههنا إسناد الضمير إلى اسم غير سابق عليه، وعود الضمير على اسم غير سابق عليه مردودٌ في اللغة. فما تفسير هذا الإشكال؟

قيل إنَّ مسوِّغ ذلك معرفة السامعين بالمراد منه، أي أنَّ الحديث - وإن كان عن القرية - فإنَّه في حقيقته عن أهلها القاطنين بها. ومن نظائر ذلك، قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَّتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (الأعراف: 4). وله نظائر كثيرة⁽¹⁾.

لعلَّ في أسلوب الفعل (كان + يفعل) في آية النحل السابقة قيمةً بلاغيَّةً خاصَّةً، وهي في إفادته أنَّ فعل الكفران بأنعم الله قد وقع لأكثر من مرَّة واستمرَّ لمُدَّة من الزَّمن، وأنَّ مؤاخذه المولى لأهل القرية لم تكن إلا بعد إمهالٍ، ومدٍّ لهم في الأجل، ولعلَّ ذلك لم يكن مستفاداً لو أتت الآية على (بما صنعت) مثلاً. والله أعلم.

41 - ورود التَّمييز (سنين) جمعاً بعد العدد مائة

قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (الكهف: 25).

(1) القرطبي، 14/177.

وردت قراءة الأخوين (حمزة والكسائي) لهذه الآية على (ثلاثمائة سنين) بإضافة (مائة) إلى (سنين)⁽¹⁾. أما القراء الباقون، فقد قرأوا بتنوين مائة، باعتبارها بدلاً من (ثلاثمائة) أو عطف بيان له⁽²⁾. والإشكال في هذه الحالة، ورود معدود العدد (100) على الجمع، والقاعدة أن العدد (مائة) يكون معدودها مفرداً مجروراً بالإضافة كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٌ﴾ (البقرة: 261)، بجرّ كلمة (حبة) مفردة ومضافةً إلى العدد مائة، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا تِلْكَ مِائَةُ عَامٍ ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ (البقرة: 259)، بإفراد عام.

فإذا كان على القراءة الأولى فلفظة (سنين) تعدّ جمعاً في موقع مفرد، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (الكهف: 103)، حيث وقع (أعمالاً) موقع (عملاً).

أما في تعليل ورود (سنين) على الجمع دون الإفراد في القراءة الأخرى، ففي ذلك أقوال⁽³⁾:

- يذهب الفراء إلى أن من العرب من يضع (سنين) موضع (سنة) المفرد، أي أن الواحد والجمع فيه سواء، وهو نظير اللبن والألبان، وعلى هذا الاعتبار، لا إشكال في كون المعدود مفرداً أو جمعاً في هذه الآية.
- ذهب أبو البقاء إلى أنه لما كانت (سنين) بدلاً من (مائة) وهي - أي المائة - في معنى الجمع؛ لزم أن تكون جمعاً مثل المبدل منه. ولا يجوز أن يكون (سنين) في هذه الآية تمييزاً وهو منون، وإنما يرد ذلك في ضرورة الشعر، كقول الربيع بن ضبع:

إذا عاش الفتى مئتين عاماً فقد ذهب اللذأة والفتاء⁽⁴⁾

(1) الحجة في القراءات، ص 416، الكشف، ج 2/ 712. وورد في قراءة ابن مسعود بالإفراد (ثلاثمائة سنة).

(2) مشكل إعراب القرآن، 1/ 440.

(3) أبو حفص عمر الحنبلي، الباب في علوم الكتاب، ج 12/ 346.

(4) خزانة الأدب، ج 7/ 379؛ شرح التصريح، ج 2/ 273؛ الكتاب، ج 1/ 208؛ أدب الكاتب، ص 229؛ أوضح المسالك، ج 4/ 225.

فلولا الضرورة لَلَزِمَهُ أَنْ يجعل (مائتين) على الإضافة بحذف النون فيقول: (مائتي عاماً).

- أنه جواب لسؤالٍ مضمّر، سألَه متلقُّو الوحي حين نزول الآية، حيث رُوي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾، قال بعضهم: أيّاماً، أو شهوراً، أو سنين؟ فنزل قوله: (سِنِينَ). فتعدُّ هذه الكلمة بمفردها جملةً قائمةً منفصلةً عما قبلها بكونها إجابةً عن سؤالٍ مطروح، ومتابعةً لكلام سابق.

42 - مجيء الفعل (ارجعون) المسند إلى الجمع بعد خطاب المفرد

- قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (المؤمنون: 99).
- الخطاب ههنا موجّه إلى المولى سبحانه، وهو فردٌ أحد، والقاعدة أن يسند الفعل الأمر إلى ضمير الواحد، إذا أريد به خطاب الواحد.
- للعلماء في تعليل إسناد الفعل هنا إلى ضمير الجمع ثلاثة أقوال هي:
- أن الخطاب على سبيل التّعظيم، وقد جرت العادة في مخاطبة العظماء والملوك بأن يخاطبوا أو يتحدّثوا عن أنفسهم بضمير الجمع تعظيماً، وهو كثيرٌ في القرآن الكريم في حديث المولى سبحانه عن نفسه بضمائر الجمع، «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ».
 - وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (الصافات: 75). يقول الزمخشري في ذلك: «والجمع دليلُ العظمة، والمعنى: إِنَّا أَجْبَنَاهُ أَحْسَنَ الإجابة، وأوصلها إلى مراده وبُغيته من نُصْرَتِهِ على أعدائه، والانتقام منهم بأبلغ ما يكون»⁽¹⁾.

ومما ورد من ذلك في الشعر قول العرجي: [طويل]

(1) الكشف، ج 4/37.

فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أُطْعَمْ نُقَاخاً وَلَا بَرْدًا⁽¹⁾
فخاطب الواحدة بلفظ جماعة الذكور. ولعلّ إشار الجمع في هذا
الموقع بالذات، كان الغرض منه التّسّتر على المحبوبة، وتعمية أمرها على
الوشاة والعاذلين.

وقول الشّاعر:

أَلَا فَارْحَمُونِي يَا إِلَهَ مُحَمَّدٍ فَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلًا فَأَنْتَ لَهُ أَهْلٌ⁽²⁾
ففي الشطر الأوّل من البيت خاطب الشّاعر المولى عزّ وجلّ مسنداً الفعل
(فارحمني) إلى واو الجماعة، ثم عاد في الشّطر الأخير إلى مخاطبة المولى
بضمير الخطاب للواحد فقال (أنت).

- وقيل إنّه من باب الانتقال من مناداة ربّه إلى مخاطبة ملائكة ربّه، ويكون
ههنا حذف لمضاف، تقديره: (ملائكة ربّي ارجعوني). وهو الذي عاد
عليه الضمير في الفعل. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا
بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (الأعراف: 4)، والضمير فيه أي قوله (هم
قائلون) عائد على المضاف المحذوف، وتقدير المحذوف: (أهل).

- يرى آخرون أنّ ذلك إشارة إلى تكرير الفعل، فكأنّ الكافر قال: ارجعني،
ارجعني، ونظير ذلك ما قالوه في تعليل إسناد الفعل إلى ضمير الاثنين في
قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (ق: 24)، أنّه بمعنى: ألق،
ألق، فشئى الفعل دلالة على هذا التكرير⁽³⁾. ويبدو أنّ القول الأوّل أقوى
الأقوال الثلاثة، وأقربها إلى الصّواب لظهوره، وتضافر الشّواهد عليه.

(1) ديوان العرجي، ص 109؛ ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 315؛ التنبيه والإيضاح،
ج 1/ 292؛ تاج العروس، ج 7/ 361 (نقح)؛ تهذيب اللغة، ج 14/ 105؛ ديوان الأدب،
ج 1/ 102؛ مقاييس اللغة، ج 1/ 243. ويروى البيت أيضاً للحارث بن خالد المخزومي.

(2) الكشف، ج 3/ 55؛ البحر المحيط، ج 6/ 421.

(3) التبيان في إعراب القرآن، ج 2/ 960.

المبحث الخامس: الجمع في موضع التثنية

43 - إضافة (الأيدي) بالجمع إلى السَّارِق والسَّارِقَة المثنى

قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة: 38).

ذُكِرَ السَّارِقُ والسَّارِقَة في هذه الآية، وُجُمِعَ اليَد في الآية كذلك، تُرى فهل يعني ذلك قطع أيدي السَّارِق والسَّارِقَة الأربعة، أم يعني قطع اليدين منهما؟ علماً بأنَّ الفردَينَ لهما -عادةً- أربعة أيدي؟ وَلِمَ لم يقل: يَدَيَّهِمَا لإرادة قطع يَدَي السَّارِقَيْنِ؟ في الإجابة عن ذلك عدَّة آراء:

- يذهب الخليل بن أحمد الفراهيدي والفراء إلى أنَّ أعضاء الإنسان، إذا أُضيفت إلى اثنين جُمِعَت، فيقال: حَلَقْتُ رُؤُوسَهُمَا، وَأَشْبَعْتُ بَطُونَهُمَا. وبدهيَّ أن لكل فردَين رأسين وبطنين. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحریم: 4) (*). كما يجوز التثنية والإضافة، (فاقْطَعُوا يَدَيَّهِمَا). وهو الأصل، ومن ذلك قول خطام المجاشعي:

مَهْمَهَيْنِ قَذْفَيْنِ مَرَّتَيْنِ ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التَّرْسَيْنِ⁽¹⁾
والشَّاهد في هذا البيت (ظُهُور) حيث جمعها، وهي مضافة إلى اثنين (التَّرْسَيْنِ). فيُجَعَلُ الاثنان على لفظ الجمع إذا كانا متَّصِلَيْنِ، نحو: ما أحسنَ

(*) ويعترض أبو حيان على التسوية بين (أيديهما) و (قلوبهما) في الآيتين؛ لأنَّ وضع الجمع موضع التثنية يطرُد فيما كان اثنين من شيئين كالقلب والأنف، والوجه الظَّهر... أما في (أيديهما) ففي كلِّ واحدٍ منهما شيئان اثنان كالأذنين واليدين والفخذين وغيرهما من الأعضاء الثنائية في الإنسان. وفي هذه الحالة لا يطرُد وضع الجمع موضع التثنية، وإنَّما يحفظ ولا يقاس عليه. (النهر الماد، ج 2/ 241).

(1) التحرير والتنوير، 1/ 4478.

رؤوسهما. فالرأس وسائر الأعضاء لا تنفصل عن الإنسان وهو في تمام خلقته. أما إذا كانا منفصلين، فلا يجوز، نحو: أفراسهما وغلماهما.

- أما سيبويه، فإنه يقول بجواز الجمع إذا كان الاسم مفردًا وأريد به التثنية، لأن التثنية - في الأصل - جمع، وحكى عن العرب: وضعا رحالهما، أي: رحلي راحلتيهما⁽¹⁾. على الرغم من أن الرحال غير متصلة بأصحابها، وليست جزءًا من صاحب الرحل.

- ويستنبط القرطبي من جمع الأيدي أن فصاحته كامنة في أن الجمع يُراد به الأيدي والأرجل، وهي أربعة في كل شخصين، فلو قال (فاقطعوا أيديهم) لاختلف المراد، ولكان المعنى: فاقطعوا أيديهم الأربعة (اثنتان في السارق واثنتان أخريتان في السارقة)، وهذا المعنى غير مراد البتة في هذا الموضع، فالسارق والسارقة هنا ليس المراد به شخصان بالتعيين، وإنما هما اسمًا جنس، يعمان كل سارق وسارقة، وفي هذا غاية البلاغة⁽²⁾.

44 - إسناد (يستوون) إلى الجمع، وهو مسبوق بمثلين لرجلين

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل: 75).

في هذه الآية، تقدّم الفعل المضارع المسند إلى واو الجماعة اثنان وهما: العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والذي رزقه الله من فضله فهو ينفق منه... فكان المتوقع أن يثنى الفعل مطابقةً لهذين الاسمين، فيقال: (هل يستويان). وفي بيان ذلك أقوال:

- جُمع الفعل (يستوون) باعتبار اسم الموصول (من) السابق عليه، وهو

(1) المفصل في صناعة الإعراب، ج 1/ 233.

(2) القرطبي، ج 6/ 173.

اسم يصلح للواحد والاثنين والجمع⁽¹⁾. ومن حيث الجنس، فإنَّ (مَنْ) يصلح للمذكر والمؤنث، لأنَّه اسم مبهم⁽²⁾.

- جُمع الضمير في الفعل المضارع (يَسْتَوُونَ) لأنَّ المراد بالآية جنس العبيد والأحرار، وذلك مدلولٌ عليه بقوله (عَبْدًا)، وقوله (مَنْ رَزَقْنَاهُ).

وفي مواضع أخرى لم يتقدَّم الفعل (مَنْ)، ولكن تقدَّمه أكثر من اسمين، فجاء الفعل على التثنية دون الجمع. ومن ذلك قوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود: 24). فهنا ذكر أربعة صفات، لكنَّها في الحقيقة اثنان هما الأعمى الذي يقابله البصير، والأصم الذي يقابله السميع، فلكلِّ فريق صفتان.

ومن المواضع التي ورد فيها الفعل (يستوي) وفاعله ضمير جماعة الذكور الواو، وقد سبقه (مَنْ) المواضع الآتية:

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (التوبة: 19).

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (السجدة: 18)، فجمع لأنَّه أراد جميع المؤمنين، وجميع الفاسقين، ولم يرد مؤمنًا واحدًا، ولا فاسقًا واحدًا بعينه. كما أنَّه أراد جنس الرِّجل العبد، وجنس الرِّجل الحرَّ في الآية الأولى⁽³⁾. وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإنَّ (مَنْ) تطلق على المذكر والمؤنث، والواحد وما فوقه. ومن إطلاقه بمعنى الجمع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (الأنبياء: 19).

وحين ظهر -والله أعلم- أنَّ القرآن الكريم قد أراد شخصين بعينهما، ولم يتقدَّم الفعل (يستوي) ضمير (مَنْ)، ثنى الضمير المشار العائد عليهما في الفعل (يستويان). كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: 29).

(1) البغوي، ج 3/78.

(2) القرطبي، 10/148.

(3) البغوي، ج 3/503.

45 - إسناد (معكم) إلى الجمع في خطاب موسى وهارون

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِبَنَاتِكُمَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ (الشعراء: 10-15).

في الآيات السابقة، يطمئن المولى العزيز القهار قلب رسوله موسى بالثبات، ويردعه عن الخوف، ويحثه على مواجهة الطاغية فرعون، والخطاب هنا موجه إلى موسى وأخيه هارون الذي دعا موسى ربه أن يشركه في مهمة الرسالة ودعوة فرعون وبني إسرائيل؛ فجاء الخطاب على ضمير المثنى في معظم أحواله، غير أن الإشكال قد يظهر في إسناد ضمير الخطاب الجمع (مع+كُم) إلى اسم المعية، وكان المحتمل إسناده إلى ضمير الاثنين، فيقال (إننا معكما مستمعون). كما قال في آية: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه: 46). فما سبب هذا الإسناد إلى الجمع دون التثنية؟

قيل: جمعه باعتبار موسى وهارون وبني إسرائيل⁽¹⁾. ويحتمل أن يكون (معكم) مراداً به موسى وهارون عليهما السلام؛ لأن الاثنين جمع. كما يحتمل أن يكون المراد موسى وهارون والآيات، وهناك احتمال آخر أن يكون المراد موسى وهارون، ومن أرسل إليهم. وعلى كل حال، فإن موسى وهارون طرفان أساسيان في هذا الخطاب⁽²⁾. ولا ضير في مخاطبتهما بضمير الجمع.

ولعل السر في جمع الضمير في (معكم) تطمين قلب موسى وأخيه هارون، وإشعارهما أنهما ليسا اثنين فحسب، وإنما هما جماعة، سواء تألفت هذه الجماعة منهما وقومهما، أم منهما فحسب، فمهمة الرسالة، ومواجهة الطواغيت من المهمات الصعبة التي تحتاج إلى إعداد نفسي متين للمرسل إليه، حتى يقوى على الإقدام على أداء رسالته. ومن صور المساندة

(1) البغوي، ج 3/ 382.

(2) معاني القرآن، ج 5/ 67.

النَّفْسِيَّةُ أَنْ يَسْتَشْعِرَ الشَّخْصَ أَنَّهُ فِي جَمَاعَةٍ تَوَيَّدَهُ وَتَسَانَدَهُ، وَلَا يَشْعُرُ بِالوَحْدَةِ وَالنَّبْذِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي هذه الآية أيضاً قوله تعالى: ﴿فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ (طه: 47)، حيث أشار موسى وهارون إلى أنفسهما بضمير المفرد.

قيل إنَّ السَّرَّ في عدم تثنية (رسول) في معرض الحديث عن موسى وهارون، أَنَّهُ أَرَادَ بَرَسُولَ، المصدر (رِسَالَة) أي: ذوو رسالة ربِّ العالمين. وعلى هذا الاعتبار أفرد (رسول)، لأنَّ حقَّ المصدر الإفراد.

- ومما ورد من ذلك في الشعر قول كثير: [طويل]

لَقَدْ كَذَبَ الْوَأَشُونَ مَا فَهَتْ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ
أي: وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرِسَالَةٍ⁽¹⁾.

أما في آية (سورة طه: 47) أعلاه، فإنَّ (رسول) جاء بمعنى (مُرْسَل)؛ لذلك ثني،

- ويقول أبو عبيدة: يجوز أن يقع (رسول) للاثنتين والجمع. تقول العرب: هذا رسولي، وهذان وهؤلاء رسولي ووكلي. وهو بمنزلة (عُدُو). الذي يستوي فيه المؤنث والمذكر، والمفرد والجمع⁽²⁾.

(1) ديوانه، ص 115؛ تهذيب اللغة، ج 12 / 391؛ تاج العروس، (رسل)؛ ديوان الأدب، ج 1 / 395؛ مجاز القرآن، ج 2 / 84.

يقول يونس بن حبيب وأبو عبيدة: من وَحَّدَ (الرَّسُولَ) ذهب به إلى معنى الرُّسَالَة. واحتجَّ يونس بقول الشاعر:

فأبلغ أبا بكر رسولاً سريعاً فما لك يا ابن الحضرمي وما لي؟
والشاهد - عنده - أنَّ الشاعر أراد رسالة سريعة. كما احتجَّ بقول عباس بن مرداس:
ألا من مبلغ عني خفافاً رسولاً بيت أهلِكَ مُنتهاها
(يراجع: المذكر والمؤنث، ج 1 / 290).

(2) البغوي، ج 3 / 382؛ القرطبي، ج 13 / 93. وإذا جُمع (رسول) جمع تكسير فالمراد به جماعة الإناث، ومن ذلك قول الشاعر:

لو كان في قلبي كقدرِ قلامه فضلاً لغيركِ قد أتاهَا أُرْسُلي
وللتدليل على أنَّ الرسول هنا يشار به إلى جماعة الإناث قيل لأنَّ رسول الرَّجُل إلى المرأة لا يكون عادةً إلا امرأة مثلاً.

- وقيل إنَّ معنى (رسول) في هذه الآية: كلُّ واحدٍ منَّا رسول ربِّ العالمين، ولعلَّ السَّرَّ في ذلك - والله أعلم - أن يُعتبر فرعون ويقدَّر رحمة الله تعالى به في بعث رُسُولَيْنِ اثْنَيْنِ إليه وحده.

- قيل إنَّ (رسول) جمع لإجراء الاثنَيْنِ مجرى الجماعة، أو أنَّ سبب الإفراد الاكتفاء بأحدهما عن الآخر، لاتِّفَاقهما في الأمر والرَّسالة، وكون شريعتهما واحدة، فيكون موسى الأصل، وهارون تبعاً له⁽¹⁾. يقول الزمخشريُّ: «ويجوز أن يوحد، لأنَّ حكمهما - لتساندهما، واتِّفَاقهما على شريعة واحدة، واتِّحادهما لذلك، وللأخوة - كان حكماً واحداً، فكأنَّهما رسول واحد»⁽²⁾. ويسانِد ذلك استخلاف هارون موسى في قومه حين ذهب لمناجاة ربِّه أربعين ليلةً. ولعلَّ السَّرَّ في ذلك أيضاً إشعار فرعون أنَّه أمام شخصين على قلب رجلٍ واحدٍ، وأنَّه لا ينفع معهما أيُّ محاولة في المراوغة، والتَّوَدُّد إلى أحدهما؛ لضرب الآخر كما هو فعل الجبابة في التَّخلص من الخصوم. هذا والله أعلم. ويتكرَّر التَّراوح بين المثنى والجمع في قصَّة موسى وأخيه هارون وقومهما كما في قوله تعالى:

من التَّراوح بين المثنى والجمع أيضاً في قصَّة موسى وهارون، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ (الصافات: 114-117).

يذكر المولى أنعمه ومِنَّه على نبيِّه موسى وأخيه هارون (عليهما السَّلام) وقومهما، حيث تفضَّل عليهما بالنبوة والرَّسالة ونجَّاهما وقومهما بني إسرائيل من اضطهاد فرعون وجنوده الأشداء، بل نصرهما وقومهما على فرعون الجبار وجنوده، وآتاهما التَّوراة الحاوي للأحكام والشرائع البيِّنة، وهداهما وقومهما الصراط المستقيم، إلى غير ذلك من النعم الكثيرة.

(1) التبيان في إعراب القرآن، ج 2/ 167.

(2) الكشاف، ج 3/ 311.

وفي هذه الآية وذِكر المنن الإلهية التي شملت موسى وأخاه وقومهما، نجد أن بعض تلك المنن كانت خاصّة بموسى وأخيه كالرّسالة والنّبوة، وبعضها عامّة لهما ولبنّي إسرائيل كالنّجاة من عذاب فرعون، والنّصر عليه، والغلبة على الأعداء المهذّدين لكيانهم. لكن الإشكال في هذا المقام يكمن في الانتقال من الحديث عن الاثنين إلى الجماعة في قوله ﴿وَنَصَرْنَهُمْ فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ فما مسوّغ التراوح بين المثنى والجمع في هذا الموضع ذكر المفسّرون واللّغويون في تعليل العدول عن التثنية في هذا الموضع سببين، وهما⁽¹⁾:

- أن الاثنين في الأصل جمع، وعلى ذلك فإنّ عود ضمير الجمع على الاثنين إنما هو باعتبار هذا الأصل.
 - أنّه من قبيل التعبير عن الواحد أو الاثنين بلفظ الجمع، وهو كثير في تعابير العرب وأساليبهم. ومن نظائر ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ (الطلاق: 1) في خطاب النبي ﷺ، غير أنّنا نرى أنّ الخطاب هنا بضمير الجمع للإشعار بأن الحكم ليس من خصائص النبي ﷺ، وإنما هو تشريع عام لجميع المسلمين. وعدّوا منه قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (الأنبياء: 78)، إشارة إلى داود وسليمان⁽²⁾. وهما بالطّبع فردان، لكن الضمير عاد عليهما جمعاً. ومن مخاطبة المفرد بلفظ الجمع قول العرجي أو عمر بن أبي ربيعة:
- [طويل]

فإن شئت حرمتُ النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً
والشاهد في البيت مخاطبة الشّاعر محبوبته بضمير الخطاب الجمع، فالسياق يدلّ على أنّ الشّاعر يحدث أنثى واحدة معروفة بعينها، ولكنه أشار إليها بقوله (سواكم)، وهو ضمير جمع للذكور.

أمّا النّحاس، فإنّه يذهب إلى أنّ المراد بالآية: وبالضمير في (كانوا)،

(1) القرطبي، ج 15/114؛ معاني القرآن، ج 2/390؛ الدر المصون، ج 4/566.

(2) زاد المسير، ج 1/426.

موسى وهارون (عليهما السلام)، وقومهما بدليل سبق هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾⁽¹⁾.

ولعلّ هذا الرأي الأخير أصوب الآراء في تفسير هذه الآية، وتعليل مجيء الفعل والخبر جمعاً؛ لأنّه يقرن الآية بما سبقها، وينظر إليها في سياقها العام، وفي الآية لمحة لطيفة إلى أنّ النصر والغلبة ليست للنبي المرسل خاصّة، ولكنه للجماعة المؤمنة. «أنتم الغالبون».

46 - الإخبار عن (فريقان) بالفعل (يختصمون) المسند إلى الجمع

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (النمل: 45).

أشار في هذه الآية إلى تخاضم فريقين: فريق نبي الله صالح والذين آمنوا معه من جانب، وفريق قومه الكافرين. كان المتوقع في هذه الحالة اعتبارهم جميعاً مجموعةً، ووصف هذين الفريقين بوصف المثنى، وذلك بعلامة التثنية في الفعل (يختصمون)، فيكون ذلك نظيراً لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء: 30). حيث عدّ السموات وما فيها مجموعةً على حدة، والأرضين وما فيها مجموعةً أخرى، وأخبر عن المجموعتين بعلامة التثنية في الفعل.

أما تعليل جمع الصفة في (يختصمون)، فللعلماء في ذلك أقوال، منها:

- أنه من باب اعتبار المعنى دون اللفظ، لأنّ الفريقين جماعة في حقيقتها. وذكروا من نظائر ذلك قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ (الحج: 19). وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ (الحجرات: 9).

- ذهب آخرون إلى أنه اختير الجمع ههنا مراعاة لرؤوس الآي؛⁽²⁾ لأنّ الفاصلة

(1) معاني القرآن، ج 6 / 53.

(2) البحر المحيط، ج 7 / 82.

وردت ضمن مجموعة من الفواصل السابقة لها واللاحقة بها على النحو الآتي:
(مسلمين، كافرين، العالمين، يختصمون، تستعجلون، تُرحمون،
تُفتنون، لا يصلحون، لصادقون...). فالفواصل كلها على منوال الياء
الساكنة والنون، أو الواو الساكنة والنون، وهما علامة الجمع، فلو أتى بالألف
الساكنة والنون (علامة التثنية)، لأحدث ذلك نشاراً في انسجام الفواصل.

ولعل إلحاق ضمير الجمع بوصف المثنى ههنا فيه لطيفة معنوية دقيقة، ألا
وهي الإشارة إلى تشتت شمل القوم، وتفرق كلمتهم، فبدل أن يستفيدوا من بعث
الرّسول إليهم ليجتمعوا إلى كلمة سواء، ويعبدوا ربّاً واحداً، إذا هم - فجأة -
يختصمون فيما بينهم، ويفترقون شذراً مذر. وهذا المعنى المشار إليه آنفاً مستفاد
من آيات التّخاصم السابقة (الحج: 19، والحجرات: 9). فكان الأنسب أن
يشار إلى المتخاصمين، ويوصفوا بما يُشعر بالشّتات، وتشعب مذاهبهم.

47 - إسناد الاسم (طائعين) جمعاً إلى السّماء والأرض

قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: 11).

في الآية السابقة، تُني الضمير في (قالتا) وجمع في (طائعين)، وههنا
محلّ الإشكال، حيث تفاوت الضميران في العدد، وهما يشيران إلى شيء
واحد، وكان المحتمل أن يثنى الحال، إمّا على اللفظ (طائِعَيْنِ / طائِعَتَيْنِ) أو
أن يُجمع على المعنى (طائعات)، باعتبار السماوات والأرضين جمع إناث.
ومن الأقوال في بيان ذلك:

- ذهب الفراء إلى أنه أخبر عنهما جمعاً باعتبار أنها سماوات وأرضون
ومن فيهما، والمراد: أتينا نحن أهل السماوات والأرض طائعين.
فالطاعة التي استجابت لها السماوات والأرض ليست خاصة بهما، إذ
تشمل جميع دواب الأرض والسماوات من جنّ وإنس، وملائكة ونجوم،
وشجر وجبال... وعلى هذا الاعتبار غلب جماعة الذكور أي الجمع
المذكر السالم على المثنى المذكر (طائِعَيْنِ)، أو المؤنث (طائِعَتَيْنِ)، أو

الجمع المؤنث السالم (طائعات)⁽¹⁾.

- وذهب بعضهم إلى أنه من باب إنزال غير العاقل منزلة العاقل. قال أبو جعفر النحاس: الأحسن في تأويل هذه الآية ما ذهب إليه جلّ التّحويين ألا وهو أن المولى عزّ وجلّ لما أخبر عن السّماوات والأرض بأفعال العقلاء، جاء فيها بما يكون للعقلاء من ضمير⁽²⁾. أو أن المولى عزّ وجلّ لما كلفهما بما يُكلّف به العقلاء، ناسب ذلك أن يخبر عنهما بما يُخبر به عن العقلاء⁽³⁾.
- أما ثنية الضمير في (قالتا)، والحديث عن السّماوات والأرض، فقد قيل إنّ علّة ذلك اعتبار السماوات السّبع سماءً، وجعل الأرضين السّبع أرضاً، ثم التعبير عن ذلك كلّهُ بالثنية باعتبار الفرقتين أو المجموعتين المذكورتين. ومن نظائر ذلك قول القطامي: [وافر]

ألم يحزنك أن حبال قومي وقومك قد تباينت انقطاعاً⁽⁴⁾
 ويعترض أبو حيان على هذا الرّأي، ويرى فيه تكلفاً لا داعي له، لأنّ السماء والأرض لم يذكرهما جمعاً في الآية قبل الضمير، وإنما قال: (إلى السّماء)، و(للأرض)، على الأفراد، ولذلك حُسّن الإشارة إليهما بضمير الثنية⁽⁵⁾.

48 - خطاب الثقلين بالجمع (لكم)، وخطاب الإنس والجن بالجمع

قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ (٣١) ﴿فَإَيَّ آيَةٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٢) يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن: 31-33).

(1) عبد الجواد، محمد طبق. دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، ص 204. نقلاً عن: علي النجدي ناصف، مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة، ص 130-131، دار المعارف، القاهرة. د. ت.

(2) معاني القرآن، ج 6 / 251.

(3) الطبري، ج 24 / 99؛ والقرطبي، ج 15 / 344.

(4) القرطبي، ج 13 / 63؛ البحر المحيط، ج 6 / 308.

(5) البحر المحيط، ج 7 / 487.

وَجَّهَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْخَطَابُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَتَحَدَّاهُمْ أَنْ يَنْفِذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنْ اسْتَطَاعُوا، وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ جَنْسَانِ مُخْتَلِفَانِ، لَكِنَّ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَقُلْ: (إِنْ اسْتَطَعْتُمَا) عَلَى التَّثْنِيَةِ خُطَاباً لِلْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ خَاطَبَهُمَا مُشِيراً إِلَيْهِمَا بِالثَّقَلَيْنِ. وَفِي إِضْاحٍ هَذَا الْإِشْكَالِ أَقْوَالٌ، مِنْهَا:

- قِيلَ إِنَّ سَبَبَ الْجَمْعِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، كَوْنُ الثَّقَلَيْنِ (الْإِنْسِ وَالْجِنِّ) فَرِيقَيْنِ، وَكُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمَا جَمْعٌ فِي ذَاتِهِ؛ فَأُشَارَ إِلَيْهِمَا بِالْجَمْعِ مَرَاعَاةً لِهَذَا الْإِعْتِبَارِ⁽¹⁾. وَذَكَرُوا مِنْ ذَلِكَ أَيْضاً قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا خَصَمَانِ ائْتَصِمَا فِي رِبِّكُمْ﴾ (الحج: 19)، أَيْ فَرِيقَانِ خَصَمَانِ، وَقَوْلُهُ أَيْضاً: ﴿فَإِذَا هُمُ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (النمل: 45). فَفِي كُلِّ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاضِعِ جَازَ الْإِخْبَارُ عَنِ الْمَثْنَى بِالْجَمْعِ أَوْ إِضَافَتُهُ إِلَى الْجَمْعِ، وَلَوْ جَاءَ الْإِخْبَارُ بِالتَّثْنِيَةِ لَجَازَ أَيْضاً.

وَلَعَلَّ اخْتِيَارَ الْجَمْعِ - فِي آيَةِ الرَّحْمَنِ - كَانَ أَبْلَغَ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْإِفْرَاطِ فِي الْكَثْرَةِ الَّتِي تَسْتَدْعِي تَعَدُّدَ الْحَيْلِ وَالسُّلْطَانِ، لِمَحَاوَلَةِ الْخُرُوجِ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَكُلَّمَا كَانَ النَّاسُ مُجْتَمِعِينَ، وَلَأَرَائِهِمْ مُتَدَاوِلِينَ، انْتَفَعَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَتَعَاوَضَتْ خَبَرَائِهِمْ، وَتَكَامَلَتْ تَجَارِبُهُمْ، فَيَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ الْبِنَاءُ وَالْقُوَّةُ وَالْإِبْتِكَارُ. وَلَأَجَلَ ذَلِكَ نَفَى الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ حِينَ تَحَدَّى الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَخْلُقَ أَصْنَامَهُمْ ذَبَاباً، وَفِي هَذَا التَّحْدِي وَرَدَتْ جُمْلَةٌ مُوْغَلَةٌ فِي التَّحْدِي بِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ)، فَالاجْتِمَاعُ وَالْكَثْرَةُ رَكِيزَةٌ أُسَاسِيَّةٌ فِي الْبِنَاءِ، وَوَرَدَ كَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء: 88)، وَهِيَ الَّتِي نَرَى أَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ أَلْمَحَ إِلَيْهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فِي الْإِشَارَةِ إِلَى الْاِثْنَيْنِ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ وَهُوَ فِي مَعْرَضِ تَحْدِي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي الْخُرُوجِ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذَلِكَ النُّفُوذُ الْمَنْوُوطُ بِالسُّلْطَانِ، وَلَا يَتَأَتَّى هَذَا السُّلْطَانُ إِلَّا إِذَا اجْتَمَعَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ، وَأَتَى كُلُّ ذِي عِلْمٍ بِمَا لَدَيْهِ.

(1) القرطبي، ج 17/169.

أما الجمع في الآيات الأخرى، فإنَّ الحكمة فيها - والله أعلم - إبراز حالة الانشقاق والاختلاف بين الفرق المتخاصمة، فالخصمان - وإنَّ كانا اثنين في شخصهما - فإنَّهما كثرةٌ كاثرة في الرأْي، واختلاف القلوب، ووجهات النَّظر، تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتَّى. أما الحبيبان المتوافقان، فإنَّهما قلبٌ واحدٌ، لا يضرُّهما اختلاف جسديهما.

49 - إضافة القلوب الجمع إلى الضمير (كما) المثني

قال تعالى: ﴿إِنْ نُّؤَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التَّحْرِيم: 4).

محلُّ الإشكال في هذه الآية الكريمة ورود كلمة (قلب) على الجمع مضافاً إلى الاثنين، والخطاب موجَّه إلى اثنين من أمَّهات المؤمنين هما: حفصة وعائشة رضي الله عنهما، فلمَ جُمع قلب وليس لهما في الأصل إلاَّ قلبان؟ ولمَ لم يقل: قلبكما بالتثنية كما هو الظاهر في مخاطبة الاثنين؟

- قيل إنَّ من عادة العرب أنَّهم إذا ذكروا شيئين من اثنين، جمعوهما؛ خشية الإشكال. وفي حديث الرَّجلين اللذين مرَّا بالنبِيِّ ﷺ وهو مع زوجته أم المؤمنين صفية (رضي الله عنها) بليل؛ فكاد الشَّيطان ينزع في قلوبهما، فقال لهما النبي ﷺ: على رِسلكما إنَّما هي صفية بنت حُيي.. وفيه: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئاً»⁽¹⁾. والشاهد جمع القلب وإضافته إلى الرَّجلين.

- وقيل إذا اجتمعت الإضافة والتثنية في لفظ، فلفظ الجمع ألْيَق به،⁽²⁾ يقول الألوسي في ذلك: «والجمع في (قُلُوبِكُمَا) دون التثنية لكراهة

(1) صحيح البخاري: فرض الخمس، (ح: 2870)؛ صحيح مسلم: السلام، (ح: 4041)؛ سنن أبي داود: الصوم، (ح: 2113)؛ سنن ابن ماجه: الصيام، (ح: 1769)؛ مسند أحمد: باقي مسند الأنصار، (ح: 2563)؛ سنن الدارمي: الصوم، (ح: 1714).

(2) القرطبي، 189/18.

اجتماع تثنيّتين مع ظهور المراد. وهو في مثل ذلك أكثر استعمالاً من التثنية والإفراد⁽¹⁾. ومما خولف فيه هذا الأصل قول أبي ذؤيب الهذلي: [كامل]

فتخالَسَا نَفْسَيْهِمَا بِنَوَافِذِ كَنُوفِذِ الْعُبُطِ الَّتِي لَا تُرْقَعُ⁽²⁾
حيث ثنى النفس وأضافها إلى الضمير المثني. وفي ذلك يقول ابن عصفور لا يجوز التثنية إلا لضرورة. مثل قول الشاعر: [طويل]

حَمَامَةٌ بَطْنِ الْوَادِيَيْنِ تَرْتَمِي سَقَاكِ مِنَ الْغُرِّ الْغَوَادِي مَطِيرُهَا⁽³⁾
والأحسن في ذلك كله الجمع أو الإفراد، ومن ذلك قول خطام المجاشعي:

وَمَهْمَهَيْنِ قَذْفَيْنِ مَرَّتَيْنِ ظَهَرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ الثَّرَسَيْنِ⁽⁴⁾
فثنى الظهر؛ لضرورة الشعر، ثم جمعها على الأصل.

- وقيل إنما جمع الاثنين في قوله (صغث قلوبكما)؛ لأن لكل إنسان قلباً واحداً، وما ليس في الإنسان منه إلا واحد، كالرأس، والبطن، واللسان، فإنه يجوز أن يجعل الاثنان فيه بمنزلة الجمع ولفظه⁽⁵⁾.

- قيل يجوز؛ لأن الواحد في هذا الموضع يؤدي معنى الجمع⁽⁶⁾. وأن الجمع كذلك يؤدي معنى التثنية.. يقال: ضربت رأس زيد، وضربت

(1) روح المعاني، ج 28/152.

(2) الدرر، ج 1/158؛ شرح اختيارات المفضل، ص 1726؛ شرح أشعار الهذليين، ج 1/40؛ لسان العرب، ج 6/65 (خلس)؛ همع الهوامع، ج 1/51. والعبط، جمع عبط، وهو ما ينحر لغير علة.

(3) ينسب هذا البيت للشماخ، ديوانه، ص 438؛ المقاصد النحوية، ج 4/86. وينسب لمجنون ليلي، ديوانه ص 113؛ كما ينسب لتوبة بن الحمير في: الأغاني، ج 11/198؛ الدرر، ج 1/154؛ الشعر والشعراء، ج 1/435؛ وبلا نسبة في: شرح الأشموني، ج 3/403؛ المقرب، ج 2/129؛ همع الهوامع، ج 1/51.

(4) المفصل في صنعة الإعراب، ج 1/233؛ التحرير والتنوير، 1/4478.

(5) التبيان في إعراب القرآن، ج 2/264.

(6) البغوي، ج 4/264.

رؤوس الزَّيْدَيْن، بجمع الرأس بدلاً من (رَأْسِي الزَّيْدَيْن). ويقال: ضربنا منهم الرأس، وضربنا منهما الرأس والرؤوس، وضربنا منهم الرؤوس، والسَّرُّ في ذلك كراهة العرب إضافة المثنى إلى مثنى آخر⁽¹⁾. وكونُ المثنى -في الأصل- جمعاً. وكذلك فإنَّ أَمَنَ اللِّبْس من المسوِّغات ههنا؛ إذ ليس للواحد إلاَّ رأس واحد⁽²⁾.

وقد ثنى الشاعر الفرزدق (الفم) مضافاً إلى ضمير الاثنين حين قال في ذمِّ الدُّنْيَا، وهجاء إبليس وابنه: [طويل]

هُمَا نَفْسًا فِي فِيٍّ مِنْ فَمَوَيْهِمَا عَلَى النَّابِجِ الْعَاوِي أَشَدَّ رَجَامٍ⁽³⁾
وقوله أيضاً: [بسيط]

كَلَاهُمَا حِينَ جَدَّ الْجَرِيُّ بَيْنَهُمَا قَدْ أَقْلَعَا وَكَلَا أَنْفَيْهِمَا رَابِي⁽⁴⁾
فجاء في البيت الأوَّل بمثنى (فَم) مضافاً إلى الضَّمير (هما). كما جاء بمثنى (أنف) مضافاً إلى الضَّمير نفسه، وهو في كلتا الحالتين قد أضاف مثنى إلى مثنى. ومثله قول أبي ذؤيب (في بيت سابق أنفاً) في تشية النفس مضافاً إلى ضمير الاثنين: فَتَخَالَسَا نَفْسَيْهِمَا بِنَوَافِذِ... البيت⁽⁵⁾.

ومن مواضع جمع الشَّيْئَيْن المضافَيْن إلى اثنين في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمًا﴾ (الأعراف: 27). بإضافة الجمع

(1) ابن خالويه، الحسين بن أحمد. ما ليس في كلام العرب، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (مكة المكرمة: ط2، 1399هـ / 1979م)، ص339، 340.

(2) اللباب في علل البناء والإعراب، ج1/99.

(3) أسرار العربية، ص235؛ الأشباه والنظائر، ج1/216؛ الإنصاف، ج1/345؛ تذكرة النحاة، ص143؛ جمهرة اللغة، ص1306؛ جواهر الأدب، ص95؛ خزانة الأدب، ج4/460؛ 464؛ سر صناعة الإعراب، ج1/417؛ شرح شواهد الشافية، ص115؛ شرح شافية ابن الحاجب، ج3/215؛ المقتضب، ج3/158؛ ح المقرب، ج2/129؛ ح مع الهوامع، ج1/51.

(4) ديوان الفرزدق، ص34؛ الأشموني، ج1/78؛ التصريح، ج2/43؛ الإنصاف، ج2/447؛ الخصائص، ج2/421؛ شرح المفصل، ج1/54.

(5) ابن خالويه، المصدر السابق، ص216. و (العُبْط): جمع عبط، وهو ما يُنَحَّر لغير عِلَّة.

إلى المثنى، ولم يقل (لبسِيهما)، وقد تفسّر هذه الآية على أن اللباس بمعنى الجمع حقيقة وليس مثنى؛ لأنّ ما يلبسه أهل الجنة فيه سعة ووفرة، ولعل لأجل ذلك وردت لفظة (لباس) مجموعة في أكثر مواضع القرآن الكريم في الإشارة إلى لباس أهل الجنة.

وللدكتور صلاح الخالدي التفاتة دقيقة في هذا الموضع هي أنّ الحكمة في العدول عن التثنية (قلباكما) إلى الجمع كون القلب في (صغوه) وانحداره كأنّ له مراحل وحالات متعددة تختلف عن حالته السويّة، فكان الأولى في تلك الحالة أن يُشار إلى الاثنين بالجمع. يقول: «وكأنّ القلب في عملية صغوه وانحداره، ليس قلباً واحداً، بل عدّة قلوب، ولو لاحظ أحد الفروق بين القلب في مراحل ودرجات صغوه وانحداره لوقف على ذلك، ولاحظ تأثير الانحدار المتسارع والمعصية فيه. ولو التقيت للقلب عدّة صور، تمثل كل صورة درجة من درجات انحداره، لوجدت فروق... لهذا المعنى، وردت القلوب في الآية مجموعة، وكأنّ كل واحدة منهما ملكت أكثر من قلب، من خلال أثر الصغوه والميل للقلب في مراحل صغوه. والله أعلم»⁽¹⁾.

وتلك الالتفاتة - على الرغم من دقّتها - محلّ نظر ومؤاخذه، إذا ما أخذنا في الاعتبار انطباق العلاقة القائمة بين القلب الحقيقي بصفته عضواً محسوساً، وتأثره بالمعصية. صحيح أنّ ضربات القلب تزيد أو تنقص بحسب الظروف النفسية للإنسان، ولكن هل ينحرف عن موضعه علواً وهبوطاً؟ وهل المراد في هذه الآية القلب الحسي؟ إذا ما أجيب عن هذين التساؤلين بالإيجاب، فإنّ هذه الالتفاتة من الدكتور صلاح الخالدي ينبغي أن تُعتبر اكتشافاً إعجازياً جديداً من أوجه الإعجاز القرآنيّ المتعدّدة مما هو مرهونٌ بطول التدبّر في آيات الذكر الحكيم.

(1) لطائف قرآنية، (دمشق: دار القلم، ط 1، 1412هـ/ 1992)، ص 130-131.

الفصل الرابع

إشكالات في الجنس

المبحث الأول: التذكير في موضع التأنيث

أولاً: صيغة (فاعلين) وصفاً للمؤنث

50 - ضمُّ مريم إلى الرَّاكعين المذكَر المجموع

قال تعالى: ﴿يَمْرِيءُ اقْتَتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران: 43).

في هذه الآية جُمِعَ الاسم جمع مذكَر سالمًا، والمولى في معرض توجيه الأمر إلى مؤنث، وكان المتوقع أن يجمع الاسم جمعًا سالمًا للإناث. فيقال: (واركعي مع الراكعات) (*).

- قيل إنَّ الغرض في هذا الجمع أن يكون أعمَّ وأشمل، وليدخل فيه الرِّجال والنِّساء، فلو جُمِعَ جمع تأنيث لاختصَّ بالنِّساء، فكان ظاهر الكلام مشروعية تعبد مريم (عليها السَّلام) مع النِّساء فحسب⁽¹⁾.

ومثل الآية السابقة، قول المولى عزَّ وجلَّ حين ضرب للمؤمنين مثلاً بمريم وإيمانها وصلاحتها فقال: ﴿وَكَاثَ مِنَ الْفٰئِنِينَ﴾ (التحریم: 12). فأخبر عنها بإضافتها إلى جماعة الذُّكور.

(*) من لطائف التَّقديم والتَّأخير في هذه الآية الكريمة، قولهم إنَّ تقديم السجود - في هذا الموضع - على الرُّكوع إنما هو لفضل السجود على الرُّكوع؛ فأقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد. أما في آياتٍ أخرى، فقد تقدَّم الرُّكوع على السُّجود في نحو قوله تعالى: ﴿أَن طَهَّرَا بَيْتَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: 125)، وكما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾. (الحج: 77)، فتقديم السجود على الركوع بالزَّمان والرُّتبة والطَّبع؛ لأن السجود انتقالٌ من علوٍّ إلى خفض، والعلو - بالطَّبع - من حقِّ القائم قبل الانخفاض. ينظر: الفصول المفيدة، ج 1/ 117.

(1) البغوي، ج 1/ 301؛ الواحدي، ج 1/ 210.

- وفي تعليل حديث للعدول عن التأنيث إلى التذكير يشير الدكتور صلاح الخالدي إلى أن ذلك قد يكون بسبب تحمل مريم المشاق، ومواجهتها المجتمع بأكمله بعزم ورباطة جأش، وقوة إيمان مما لا يقوى عليه إلا الرجال الشجعان. «إن إيمانها وتصديقها، يكاد يشبه إيمان القانتين وتصديقهم، كادت تملك مثل ما عند القانتين من إيمان وثبات وشجاعة وجرأة وثقة ويقين. وكادت تشبه القانتين في هدوء أعصابهم، وطمأنينة قلوبهم، وعظم مواقفهم. لأجل وجوه الشبه هذه بينها وبين القانتين، ناسب أن تُدرج فيهم، وأن تتحوّل الكلمة التي تخبر عنها من جمع المؤنث السالم إلى جمع المذكر السالم، والله أعلم»⁽¹⁾.

نخشى أن نفهم من هذا التعليل أن قوة الإيمان والصبر على المكاره، ومواجهة الشدائد مقصورة على جنس الرجال. وقصارى ما يقال في ذلك أن الإيمان والصبر حالات نفسية يرتقي فيها الإنسان إلى أعلى عليين بصرف النظر عن جنسه. وفي تاريخ البشرية ما لا يحصى من الرجال والنساء على السواء ممن وقفوا مواقف صامدة، وتغلبوا على صروف الدهر، ورؤوس القهر والطغيان. ولعل أقرب ما يقال هنا إن معرض الحديث عن صفة القنوت لله، وتحقيق تلك الصفة في مريم الإنسان، لا مريم الأنثى؛ ولأجل ذلك جيء بجماعة الذكور احترازاً من أن يتوهم كون الحديث عن الجنس لا الصفة في حد ذاتها، فالذكورة والأنوثة - كما نرى - غير ملتفت إليهما في هذا السياق. أما في قوله تعالى مثلاً: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَاطٍ تَبَيَّنَ عَيْدَاتٍ﴾ (التحریم: 5) فإن معرض الحديث عن الصفة + الجنس، فكان طبيعياً إيراد صفة الجمع المؤنث السالم (مسلمات مؤمنات قانتات). والله أعلم.

51 - وصف الكواكب والنجوم بـ(ساجدين)

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: 4).

(1) لطائف قرآنية، ص 146، 147.

أخبر عن جماعة مَنْ لا يعقل بصفة جماعة مَنْ يعقل، وكان المحتمل القول (رأيتها لي ساجدات)، أو (رأيتهن). وتعليل ذلك - فيما ذهب إليه أكثر المفسرين - أنه لما أسند إلى غير العقلاء فعل العقلاء، أخبر عنها بخبرها. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: 40). فأسند الفعل يسبح إلى الواو والتون.

ولعل في إسناد هذه الصفة إلى ضمير العقلاء في سورة يوسف، إشارة لطيفة إلى حقيقة المرئي في المنام، حيث تشير الكواكب الأحد عشر إلى إخوة يوسف، والشمس والقمر إلى أبويه، ولما كانت تلك الأشياء في الحقيقة إشارة إلى عقلاء ذوي شرف، ناسب أن يسند إليها ضمير العقلاء، وتوصف بأوصافهم. والله أعلم.

وعُدَّ من ذلك أيضاً قوله تعالى:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: 11). ففي بيان علّة إسناد ضمير جماعة العقلاء إلى غير العقلاء:

- ذهب الفراء (ت207هـ) إلى أنه أخبر عنهما جمعاً باعتبار أنها سماوات وأرضون ومَنْ فيهما، والمراد: أتينا نحن أهل السماوات والأرض طائعين. فالطاعة التي استجابت لها السماوات والأرض ليست خاصة بهما، إذ تشمل جميع دواب الأرض والسماوات من جنّ وإنس، وملائكة ونبوم، وشجر وجبال... وعلى هذا الاعتبار غلب جماعة الذكور على المثنى المذكر (طائعتين)، أو المؤنث (طائعتين)، أو الجمع المؤنث السالم (طائعات)⁽¹⁾.

- وقال أبو النحاس: الأحسن في تأويل هذه الآية ما ذهب إليه جُلُّ

(1) عبد الجواد، محمد طبق. دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، ص204. نقلاً عن: علي النجدي ناصف، مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة، ص130-131، دار المعارف، القاهرة. د. ت.

النَّحْوِيِّينَ أَلَا وَهُوَ أَنَّ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا أَخْبَرَ عَنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِأَفْعَالِ الْعُقَلَاءِ، جَاءَ فِيهَا بِمَا يَكُونُ لِلْعُقَلَاءِ مِنْ ضَمِيرٍ⁽¹⁾. وَأَفْعَالِ الْعُقَلَاءِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ هِيَ: السُّجُودُ، وَالطَّاعَةُ وَالتَّسْبِيحُ لِلَّهِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ.

- أَمَّا الْكَسَائِي (ت 189 هـ)، فَإِنَّهُ أَجَازَ فِي كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يَجْمَعَ بِالْوَاوِ وَالنُّونَ، (فِي حَالَةِ الرَّفْعِ) أَوْ الْيَاءِ وَالنُّونَ (فِي حَالَةِ النَّصْبِ)، وَهُوَ قَوْلٌ ضَعِيفٌ.

52 - ضُمَّ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ إِلَى (الْخَاطِئِينَ) الْمَذْكُورِ الْمَجْمُوعِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: 29).

تَمَثَّلَ هَذِهِ الْآيَةُ، الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ، إِذْ ضُمَّتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ إِلَى جَمَاعَةِ الْخَاطِئِينَ الذُّكُورِ، وَيَنْطَبِقُ عَلَيْهَا كُلُّ مَا قِيلَ فِي الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ مِنْ تَعْلِيلٍ، وَخِلَاصَةٍ ذَلِكَ أَنَّ عِلَّةَ ذِكْرِ جَمَاعَةِ الذُّكُورِ، أَنَّهُ لَمْ يُقْصَدِ بِالْخَبَرِ هُنَا الْإِخْبَارُ عَنِ النِّسَاءِ أَوْ جِنْسِ الْفَاعِلِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِهِ الْإِخْبَارُ عَمَّنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْقَوْمِ الْخَاطِئِينَ⁽²⁾. وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: إِنَّمَا قَالَ (مِنَ الْخَاطِئِينَ) تَغْلِيظًا لِلذُّكُورِ عَلَى الْإِنَاثِ⁽³⁾.

وَبَعْدَ، فَتَجَدَّرَ الْإِشَارَةُ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِلَى ظَاهِرَةٍ فَرِيدَةٍ فِي الْبِنَاءِ الْقِصَصِيِّ لِهَذِهِ السُّورَةِ أَلَا وَهِيَ ظَاهِرَةُ (الْخَطَأِ) بِوَصْفِهَا مَحَوْرًا مَوْضُوعِيًّا تَدُورُ حَوْلَهُ أَحْدَاثُ الْقِصَّةِ، وَيَتَلَبَّسُ بِهِ الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ الْقِصَصِيَّانِ، وَيَتَحَدَّدُ بِسَبَبِهِ الصَّرَاعُ بَيْنَ شَخْصِيَّاتِ الْقِصَّةِ، وَيَقْدَرُ الْانْزِلَاقُ فِي (الْخَطَأِ) أَوْ الْانْفِكَافِ مِنْ إِسَارِهِ يَشْعُرُ شَخْصِيَّاتُ الْقِصَّةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِرَاحَةِ الضَّمِيرِ، وَاسْتِعَادَةِ الْإِتْرَانِ النَّفْسِيِّ. وَمِنْ تِلْكَ الْحَالَاتِ:

إِخْوَةُ يُوسُفَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ تَلَبَّسَ بِالْخَطَأِ، وَوَقَعَ فِي فِتْنَةِ إِخْوَةِ يُوسُفَ؛

(1) معاني القرآن، ج 6 / 251.

(2) البغوي، ج 2 / 422.

(3) الكشف، ج 2 / 421.

إذ توهموا أن إبعاد يوسف عن مسرح الأحداث يُخلي لهم الجو، ويعيد قلب أبيهم إليهم، وبذلك أخطأوا الحساب، وما درّوا أن التفريق بين المحبين يؤجج نار الحب، ويذكي لوعة الشوق. وهكذا كانت خطة إبعاد أحد المحبين خطأ في حق كل منهما، وقد اعترف إخوة يوسف بهذا الخطأ، واعتذروا عن فعلتهم، مرةً ليوسف: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: 91)، وأخرى لأبيهم: ﴿قَالُوا يَتَابْنَا أَسْتَغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (يوسف: 97).

امرأة العزيز: إذا كان خطأ إخوة يوسف يمثل القاعدة التي ارتكزت عليها أحداث القصة للانطلاق، فإن خطأ امرأة العزيز يمثل المحرك الذي دفع بالأحداث والشخصيات إلى التآزيم، فالصراع، فالحل ونهاية القصة. فلولا خطأ امرأة العزيز لما قدر الله أن يقع يوسف في محنة السجن، ويجتمع بصاحبه، ولما قدر له أن يعيش معهما ويشاركهما عن كثب، حتى يقفا على صدقه الذي نص عليه صاحبه ساقى الملك: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ (يوسف: 46). ونصت عليه أيضاً امرأة العزيز عند الاعتراف: ﴿وَإِنَّهُمْ لَمِنَ الصِّدِّيقِينَ﴾ (يوسف: 51). ورب ضارة نافعة، فقد كان هذا الخطأ المحك الذي تجلّى به صدق يوسف، وأفضى به إلى أن يجعله الملك على خزائن الأرض.

النسوة في المدينة: كان خطأ النسوة الحكم على امرأة العزيز بالضلال، وعدم الالتفات إلى الطبيعة البشرية الضعيفة، وقد حكمن عليها دون علم واعتبار لمدى الظرف الذي جرّها إلى محاولتها النكراء، وكانت امرأة العزيز حصيفة حين هيأت الظرف، وأخضعهن للتجريب، ووضعهنّ وجهاً لوجهٍ للإغراء، فما كان منهنّ إلا الاعتراف بمثل ضعفها وإعذارها في تجربتها النفسية، وحين اعترفن بلسانٍ واحدٍ بقولهنّ: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلّٰهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: 31) أعلنت انتصارها عليهنّ إذ قالت: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ (يوسف: 32).

المفندون: وهم سائر قرابة يعقوب وهم الذين كذبوه حين أخبرهم أنّه

يجد ربح يوسف حين كان البشير حامل قميص يوسف في طريقه إلى يعقوب لبشارته، وقد ظهر صدق يعقوب، وخطأ الذين فندوه في قوله دون أن يستندوا في تكذيبهم له إلى أساس من العلم ركين، وإنما استندوا إلى تهمة قديمة ألصقوها بالشيخ ووصموه بها: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ (يوسف: 95). ولا شك أنهم تابوا إلى أنفسهم، واستصغروا أنفسهم حين تحققت نبوءة الشيخ في وضوح النهار، وحق للشيخ النبي أن يؤنبهم في سرعة إنكارهم لما لا علم لهم به، ويقول لهم: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: 96).

اعتماداً على محورية الخطأ في هذه القصة، فإن الظن يقوى لدينا أن وصف امرأة العزيز بأنها من (الخاطئين) إيماءة لطيفة إلى أن هذا الخطأ يتلشى أمامه جنس مرتكبه أو -بالأحرى- من يحاول ارتكابه، وفي تلك الحالة، يجاء بوصف محايد يشمل الذكور والإناث. هذا والله أعلم.

53 - الإخبار عن الأعناق ب(خاضعين)

قال تعالى: ﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء: 4).

الإشكال في هذه الآية جمع (خاضعين) جمع سلامة، لأنه - في أصح الأقوال - خبر عن (أعناقهم)، وجمع السلامة خاص بالعقلاء، فكان الأصل أن يجمع هذا الخبر جمع تكسير مثل المخبر عنه فيقال (خاضعة).

يذهب فريق من العلماء إلى أنه أريد أصحاب الأعناق، فحذف (الأصحاب) وأقيم (الأعناق) مقامهم، لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها - حتماً - خاضعون. وهكذا جعل الفعل أولاً للأعناق (فظلت)، ثم جعلت الصفة (خاضعين) للأعناق.

- وقال الأخفش إنها صفة للمضمَر في الأعناق، وهو (هُم)، ضمير جماعة الذكور.

- قيل إنما ذُكِّرَ للمجاورة، ومن عادة العرب أن المؤنث إذا جاور المذكر، أو أضافوه إليه، فإنهم يذكرونه، وكذلك إذا أضافوا المذكر إلى المؤنث أنثوه. ومن ذلك قوله الأعشى: [طويل]

وتشَرَّقَ بالقولِ الذي قد أذَعَتْهُ كما شَرَقَتْ صَدْرُ القَنَاةِ من الدَّمِ⁽¹⁾
والشاهد في هذا البيت أنه أنث الفعل المسند إلى الصدر، وهو فاعل مذكر، وعلة ذلك أنه أضاف المذكر إلى المؤنث؛ فاكسب جنسها.
- وقيل بل أراد جميع البدن، والتقدير: فظللوا لها خاضعين. فلما عُبرَ هنا عن جميع البدن بالعنق، جازَ تذكيره، ووصفه بصفة التذكير، وذكرُوا أَنَّ السَّرْفِي ذكر العنق كونه محلَّ الخضوع في الإنسان. يقول الزمخشري: «أصل الكلام: فظللوا لها خاضعين، فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله، كقوله: ذهبت أهل اليمامة، كأنَّ الأهل غير مذكور»⁽²⁾.

العنق لا يعني الجارحة:

- ذهب فريق آخر إلى أنه أرادَ بـ(الأعناق) الجماعات، وليس معناه في هذه الآية الجارحة المعروفة في الإنسان، كما يُقال: جاء القومُ عنقًا عنقًا، أي: جماعاتٍ جماعات. وذكرُوا منه قول الشاعر: [مجزوء الكامل]

أَنَّ الْمِـرَاقَ وَأَهْلَهُ عُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا⁽³⁾
- قال مجاهد (ت104هـ)، أريدَ بـ(الأعناق) الرؤساء والكبراء، ومعنى

(1) ديوانه، 173؛ الأشباه والنظائر، ج5/255؛ خزانه، ج5/105؛ الدرر، ج5/19؛ شرح أبيات سيويه، ج1/54؛ كتاب سيويه، ج1/52؛ المقاصد النحوية، ج3/378؛ الخصائص، ج2/417؛ مغني اللبيب، ج2/513؛ المقتضب، ج4/197؛ همع الهوامع، ج2/49.

(2) الكشف، ج1/873.

(3) ابن يعيش، ج4/32؛ البحر المحيط، ج7/5؛ جمهرة اللغة، ص251؛ والخصائص، ج1/279؛ شرح المفصل، ج4/32؛ لسان العرب، ج2/106؛ 107؛ المحتسب، ج1/337؛ معاني القرآن، ج2/40.

والبيت السابق على هذا البيت هو:

أبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِي ————— ن أَخَا الْعِرَاقِ إِذَا أَتَيْنَا

الكلام: فظَلَّت كبراًؤهم وعظماًؤهم لها خاضعين، وهو من نظير إطلاق: صُدور، ووجوه على كبراء القوم.

- وقيل أيضاً إنه من باب إنزال ما لا يعقل منزلة العاقل، فحين أسند إلى الأعناق فعل العقلاء، وهو الخضوع والإذعان، عوملت معاملة العقلاء، واكتسبت صفتها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَايتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: 4). وقوله: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: 11)⁽¹⁾.

- وقيل: وصف الأعناق بـ(خاضعين) مراعاةً لرؤوس الآي⁽²⁾. والفواصل المجاورة لهذه الآية على النحو التالي: (المبين، مؤمنين، خاضعين، معرضين..). وعلى ذلك كان الانسجام مجيئها على الجمع السالم المجرور لا على الجمع المكسر (خاضعة)، إذ يحدث ذلك نشازاً إيقاعياً في سياق الفواصل.

54 - ضمُّ امرأة لوط إلى (الغابرين) المذكّر المجموع

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنِ الْفَاسِقِينَ﴾ (النمل: 57). تمثل هذه الآية أيضاً الآيات السابقة في حقّ مريم، وفي حقّ امرأة العزيز، غير أننا نذهب إلى أن لكلّ آية خصوصيّة دلاليّة سوّغت ضمّ الأنثى إلى الذكور كما مرّ بيان ذلك في آية مريم، وفي آية امرأة العزيز. أما في آية امرأة لوط هذه، فنرى أنّ علّة تذكير الخبر هنا، كون الجريمة التي استحقّ القوم بها غضبَ الله وعذابه، كانت جريمة «رجاليّة»، في الأشهر، وإن شمل العقاب النساء والبنين الصغار وغيرهم من المواشي والدواب، وما دام الخبرُ عن الرجال، وهم محور الحديث في هذه القصّة، كان الأولى أن تسند جميع كلمات القصّة إلى الجنس الرجاليّ، لتبقى هذه النّقطة حيّة متحرّكة في جميع مراحل العرّض القصصيّ.

(1) البحر المحيط، ج 6/7.

(2) البغوي، ج 3/381.

واستنباط آخر قد يصح في هذا المقام ألا وهو أن مجيء (الغابرين) على صيغة (فاعل) بمعنى (مفعول)، إيماءة لطيفة إلى جوّ الزيف، والخروج عن الحالة الطبيعيّة التي أودعها الله في الكون والأنفس، وهو خروجٌ أحدثه قوم لوط ما سبقهم بها أحدٌ من العالمين. ففي جريمة «اللواط» المشؤومة، تنقلب الموازين؛ فيغدو الفاعل مفعولاً به، والعكس بالعكس. فالإتيان بصيغة في هذا المقام لا تنبئ عن حقيقتها ومعناها الظاهري، ينبغي أن يُعدّ ذلك قمة الجمال التعبيري الذي يضيف على المعنى رونقاً وبهاءً.

ونحو الآيات السابقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: 222). حيث ذكر المولى سبحانه المتطهّرين وهو في سياق الحديث عن تطهّر للنساء؛⁽¹⁾ إذ هنّ المأمورات بالتطهّر بعد انقطاع الحيض، وكان المتبادر إلى الذهن جمع المتطهّرين على جماعة الإناث انسجاماً مع سياق الآية، والسّر في ذلك أنّه من قبيل ذكر العام، لأنّ ذكر جماعة الذكور يجمع الرجال والنساء، ولو خصّ بذكر المتطهّرات لخرج بذلك الرجال، ولم يكن لهم في التطهّر حظّ، وفي نيل حبّ الله نصيب⁽²⁾.

55 - ضمّ (النفس) المؤنث إلى (السّاخرين) المذكر المجموع

قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (الزّمر: 56).

تحدثت الآية السابقة عن تلك النفس التي تدعو على نفسها بالويل يوم

(1) وقد ذكر المفسّرون أقوالاً في المراد من (المتطهّرين) في هذه الآية: قال مجاهد: المراد بها التّنزّه عن الذنوب والمعاصي. وقال عطاء وغيره: يحب التوابين من الذنوب، ويحبّ المتطهّرين من الأحداث والنجاسات بالماء. وقيل: إن الله يحب الذين لا يأتون أزواجهم في زمان الحيض، ولا يأتونهن في غير المأثى المأمور به، أي ترك الإتيان في الأدبار. والظاهر أنّ السياق القرآني، وما ذكر من روايات في سبب نزول هذه الآية، تؤكّد هذا الرأي الأخير، ففي قصة قوم لوط يقول القرآن الكريم على لسان بعض قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ (الأعراف: 82).

(2) الطبري، ج 2/391.

القيامة، وتتحسّر على تفريطها وتقصيرها في الإيمان، وتندم على السُّخرية من آيات الله ورسوله. وكما هو مقرر، فإنّ (نفس) اسم مؤنث في اللُّغة العربية، ووردت آيات قرآنية عديدة بلفظ (نفس) مؤنثة كما في الآية السابقة، لكن الملفت للنظر الإشارة إلى النَّفس بضمير المذكر تارةً بتذكير الصّفة (الساخرين)، وأخرى بتذكير ضمير الخطاب (جاءتك، كذبت..). فما سبب هذا الانتقال من التّأنيث إلى التّذكير وما مسوّغه؟

- علّل العلماء سبب تذكير (نفس) في الآية السابقة بجملة أمور، منها:
- أنّ علّة تذكير (الساخرين) كون النَّفس تقع على الذّكر والأنثى، فيقال: ثلاث/ ثلاثة أنفُس، كما يُقال: نفسٌ واحد، أي: إنسانٌ واحد. وهو باعتبار اللفظ^(*).
 - أما النّحاس، فيذهب إلى أنّ التّأنيث لا يلزم؛ لأنه قد قال: (أن تقول نفسٌ)، فأنت، ثم وصف بقوله: (لَمِنَ السّاخرين)، ولم يقل: من السّاخرات/ السّواخر، والتقدير: من القوم السّاخرين⁽¹⁾.

(*) قرئت هذه الآية: بلى قد جاءتك آياتي، (بإسناد الفعل إلى ضمير الخطاب المؤنث)، وعلى ذلك يلزم أن يقال: وإن كنتُ لمن السواخر.

(1) القرطبي، 15/ 273.

المبحث الثاني: متفرقات في التأنيث

56 - إيراد (مثله) بعد (سورة) المؤنث

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 23).

وقال أيضاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۖ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: 38).

يكمن الإشكال في هذا الموضع في تحديد معاد الضمير في (مثله)، فهل يعود على السورة؟ وفي تلك الحالة لا بد أن يكون الضمير بالتأنيث. وهل يعود على النبي أم على غيره؟ وفي بيان ذلك ما يأتي:

- ذهب الجمهور إلى أن معنى الآية: فأتوا بقرآنٍ مثل هذا القرآن. والهاء عائدة على القرآن، و (من) زائدة. أي: فأتوا بسورةٍ مثل القرآن⁽¹⁾.

- قال بعض الكوفيّين إن تقدير الكلام: فأتوا بسورةٍ مثل سورته (والهاء عائدة على النبي ﷺ). ثم حذف المضاف (سورة)، وأضيف الهاء إلى (مثل)، ومثلوا لهذا الحذف بقوله تعالى: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ (يوسف: 82) أي: أهل القرية.

- وذهب آخرون إلى رأي مماثل للرأي السابق، لكنهم قالوا إن الهاء تعود على (عبدنا)، والتقدير: فأتوا بسورةٍ كائنة من رجلٍ مثل عبدنا. والصفة الجامعة بين ذاك الرجل المشروط، والعبد النبي، الأمية.

- أمّا الطبري، فيرى أنه من باب مُراعاة المعنى دون اللَّفظ فالكناية (الهاء)

(1) التبيان في إعراب القرآن، ج 1/ 24.

رُوعيَ فيها المعنى، أي معنى (سُورَة)، لا لفظها الذي كان يستلزم أن يكون على (ها: التَّأنيث)⁽¹⁾.

- وينقل القرطبي كون الضمير عائداً على التَّوراة والإنجيل، والمعنى: فأتوا بسورةٍ من كتابٍ مثله، فإنَّها تصدق ما فيه⁽²⁾.

57 - الإخبار عن الأسماء بـ(عَرَضُهُمْ)

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 31).

أشار في هذه الآية إلى تعليم الله آدم وإلهامه مسميات الأشياء. والهاء في (كُلَّهَا) عائدة على (الأسماء) باعتبارها جمع تكسير، لكن الضمير في (عرضهم) العائد أيضا على (الأسماء) ضمير لجماعة الذكور العاقلين، وفي تفاوت الضميرين العائدين على الاسم الواحد إشكال؛ إذ المتوقَّع في هذا المقام أن يقال (ثمَّ عَرَضَها) باعتبار جمع المؤنث غير العاقل.

في تفسير ذلك قيل إنَّ الجمع ههنا من قبيل تسمية غير العاقل بلفظ العاقل، كما إذا جمعت الرِّجال والنساء، غلب الرِّجال، وكُنِيَ عن المجموع بكنيتهم، ولا شكَّ أنَّ الأسماء ههنا قد ضُمَّتْ كُلاً من العاقلين وغير العقلاء؛ فلم يكن بأسٌ في تغليب العاقلين⁽³⁾.

إنَّ هذا الاستخدام بديعٌ من وجهين: أنَّه تشريفٌ للعقل الذي وهبه المولى للإنسان ليميز به بين الخير والشر، ويدرك به عظمة الخالق، وكنه الحياة وقيمتها.

كما أنَّ هذا الاستخدام تشريفٌ للمخلوقات غير العاقلة بتسويتها بالعقلاء في هذا الموضع، وهو موضع تشريف العلم والإشادة به وبأهله، ولا شكَّ أنَّ

(1) الطبري، 117/11.

(2) القرطبي، 274/1.

(3) البغوي، ج 1/61.

كلّ ما يوظّف في هذا المجال من وسائل وموادّ في الاستزادة من العلم، ومعرفة المزيد من أسرار الحياة، وعظمة خالق المخلوقات، يستحقّ التعظيم والاهتمام به. هذا والله أعلم.

58 - الإخبار عن البقر بالفعل (تشابهه) مذكراً

قال تعالى: ﴿قَالُوا آدَعُ لَنَا رَيْكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: 70).

أسند الفعل الماضي مذكراً إلى اسم مؤنث بدليل الإشارة إليها في الآيات الأخرى بالتأنيث بقوله مثلاً: (إنها بقرة).. وفي ذلك قيل:

- ذكر الفعل (تشابهه) لتذكير لفظ (البقر).
- قيل: يجوز تأنيث اسم الجنس وتذكيره، وهما لغتان فصيحتان. فمن التذكير قوله تعالى: ﴿تَنَزَّعُ النَّاسُ كَانْتَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (القمر: 20). ومن التأنيث قوله تعالى: ﴿كَانْتَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، (الحاقة: 7)، فوصف النخل تارة بوصف مذكراً، وأخرى بوصف مؤنث (*).
- يذهب الزجاج إلى أن معناه: جنس البقر تشابهه علينا، فالضمير في الفعل الماضي راجع على هذا الاسم غير المذكور⁽¹⁾.

(*) في تشبيه القوم بأعجاز النخل جمالية بلاغية أشار إليها محمد طبق في قوله: "واختيرت أعجاز النخل دون غيرها من الشجر؛ لأن النخل هو الشجر الوحيد الذي يظل مورقاً طول العام سواء أكان مثمراً أم لا، ولا ينقطع ورقه إلا بقطع رأسه، بخلاف الأشجار فقد تكون فيه حياة وأوراق مع قطع الرؤوس، والمقصود تشبيههم بنوع من الشجر يموت بمجرد قطع رأسه وهو النخل، ولأن حياة النخل مرتبطة ببقاء رأسه ولذلك صوّر الأدمي بالنخلة إذا قُطع رأسه مات. كما صور المؤمن في استمرار عطائه بالنخلة في الحديث المشهور". ينظر: دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، ص 208. وهو يشير إلى الحديث المروي عن النبي (ﷺ): «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجْرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا» صحيح البخاري: كتاب العلم، ح: 59؛ صحيح مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، ح: 5027؛ الترمذي: كتاب الأمثال، ح: 2793.

(1) البغوي، ج 1/ 83.

- وعن المبرد قال: سئل سيبويه عن هذه الآية؛ فقال: كلُّ جمع حروفه أقلُّ من حروف واحد، فإنَّ العرب تذكَّره. ومن ذلك قول الأعشى: [بسيط]
ودَّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مَرْتَحِلٌ وهل تطيقُ وداعاً أيُّها الرَّجُلُ⁽¹⁾
والشاهد قوله (الرَّكْبَ مرتحلٌ) لأنَّ الرَّكْبَ جمع.

59 - إسناد الفعل المذكر إلى (الوصية) المؤنث

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 180).

جاز تذكير الفعل المبني للمجهول، وكون نائب الفاعل (الوصية) مؤنثاً لأسباب:

- أنَّ نائب الفاعل مؤنث تأنيثاً مجازياً وليس حقيقياً، وعليه، يجوز الوجهان.
- أنَّه قد فصل بين الفعل وبين مرفوعه نائب الفاعل بفصل. والفصل هنا بين المؤنث وفعلها بمثابة المعوض من تاء التأنيث. ومن ذلك قولهم: جاء القاضي امرأة. بتذكير الفعل؛ إذ قد فصل بينه وبين الفاعل المؤنث بالمفعول.
- وذهب آخرون إلى أنَّ جواز تذكير الفعل كان بسبب كون (الوصية) بمعنى الإيضاء، فيكون تقدير الكلام: كُتِبَ عليكم الإيضاء، فالتذكير حينئذ باعتبار المعنى.

60 - موافقة العدد لمعدوده في الجنس

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: 234).

(1) الخصائص ج 2/ 476.

في هذه الآية، وردَّ العددُ (عُشْرًا) على التأنيث، والمراد بالعشر هنا (عشرة أيام)، والمقرَّر أنَّ الأعداد من (3) إلى (10) تخالف معدودها في الجنس، فإن كان المعدود مذكراً كان العدد مؤنثاً.. فكيف جاز موافقة العدد (عُشْرًا) لمعدوده هنا؟

ذهب العلماء في تعليل ذلك بقولهم إنه من باب التَّغْلِيْب، فالعرب في الأيام والليالي، إذا اجتمعت، يغلبون الليالي، فيقولون مثلاً: ضُمنَّا عُشْرًا، وهم يعنون بذلك: عشرة أيام.

ومما عدّوه من التَّغْلِيْب قوله النابغة الجعدي: [الطويل]

فطافَتْ ثلاثاً بين يومٍ وليلةٍ وكان النكيرُ أن تُضِيفَ وتُجَاراً⁽¹⁾
كان الأصل أن يقول: ثلاثة، وقد ذكر الأيام، وإنما جاء به على التأنيث؛ لأنه أراد الليالي على التَّغْلِيْب⁽²⁾.

لكن إذا ظهرَ تمييزُ العدد، كان العددُ بخلافه في الجنس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ (الحاقة: 7).

وهذا في غير بني البشر، حيث إنَّ الذُّكُورَ والإناث إذا اجتمعوا غلبَ الذُّكُورُ على الإناث⁽³⁾. يذهب ابن جني إلى رفض هذا القول؛ لأنَّ التَّغْلِيْب أن يجتمع شيئان فيجري حكم أحدهما على الآخر، والليل والنَّهار - كما هو معلوم - لا يجتمعان، وليس ثمَّ تعبيرٌ عن شيءين بلفظ أحدهما. والصحيح عنده أن يقال إنما أرَّخت العرب بالليالي لسبقها، إذ كانت أشهرهم قمريةً، والقمر إنما يطلع ليلاً⁽⁴⁾.

- يرى المبرد أنَّ التاء حذفت من العدد؛ لأن المعدود المذكر إذا ذُكر،

(1) ديوانه، ص 41؛ أدب الكاتب، ص 275؛ إصلاح المنطق، ص 298؛ خزانة الأدب، ج 7/

407، 408؛ كتاب سيبويه، ج 3/ 563؛ لسان العرب، ج 6/ 67؛ (خمس)؛ ج 9/ 211؛

(مادة: ضيف)، ويروى بلا نسبة في: مغني اللبيب، ج 2/ 660؛ المقرب، ج 1/ 311.

(2) الجمل في النحو، ج 1/ 287.

(3) الطبري، ج 2/ 516.

(4) مغني اللبيب، ج 1/ 866.

وجب أن تلحق التاء في عدده، فيقال: صُمنّا خمسة أيّام. أما إذا حذف المعدود لفظاً، فإنّه يجوز في عدده أن تذكر التاء أو لا تذكر، فيقال: صُمنّا من الشهر خمساً. وقد جاء ذلك في الحديث النبوي: «مَنْ صام رمضان ثمّ أتبعه ستّاً من شوالٍ كان كصيام الدهر»⁽¹⁾. وذلك بترك التاء في (ست)، ومعلومٌ بداهةً أن المحذوف هنا هو (أيّام) وهو مذكّر مفردّه.

وقول الشاعر: [طويل]

وإلا فسيري مثل ما سار راكب تيمّم خمساً ليس في سيره يتمّ⁽²⁾
- ذهب آخرون إلى أنّه على سبيل الاستعارة، وذلك أنّه لما كانت أيام التّربّص أيام حزنٍ ومكروهٍ، سُمّيت بالليالي، كقولهم: خرّجنا ليالي الفتنة، وجئنا الكوفة ليالي إمارة الحجاج⁽³⁾.

- حذف التاء في الآية الكريمة مراعاةً لفواصل الآي، وهو حذف حسن في محلّه. وذلك نظير قوله تعالى: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ (طه: 103)، وجاء الاعتراض على هذا الكلام بقول بعضهم إنّ الآية ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ حكاية لاختلاف القوم، إذ اختلف القوم في مدة اللبث، فقال بعضهم: لبثنا عشراً، وقال آخرون: بل لبثنا يوماً واحداً لا غير، فدلّ هذا القول الأخير على أن المراد بـ(عشراً) الأيام لا الليالي،

(1) صحيح مسلم، كتاب الصيام، (ح: 1984)؛ سنن الترمذي، كتاب الصوم، (ح: 640)؛ سنن أبي داود، كتاب الصوم، (ح: 2078)؛ سنن أبي ماجة، كتاب الصيام، (ح: 1706)؛ مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، (ح: 22433)؛ سنن الدارمي، كتاب الصوم، (ح: 1689).

(2) ويروى أيضاً (يتمّ و أمم)، ينسب هذا البيت لعمر بن شأس، ديوانه ص 72؛ وفي لسان العرب، 646/12؛ (مادة: ي ت م)؛ وأما اللي القالي، ج 2/189؛ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص 280؛ وشرح ديوان الحماسة للتبريزي، ج 1/150؛ وتاج العروس، (مادة: ي ت م)، وبلا نسبة في: ديوان الأدب، ج 3/217؛ وجمهرة اللغة، ص 411.

(3) ابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1419هـ/1998)، ج 4/191، 192.

وإلا لما صحَّ أن يقابلها القوم المعترضون بـ(يوم)، أي لا يحسن في المقابلة أن يقول بعض القوم: لبِثنا عشر ليالٍ، فيعترض عليهم آخرون ويقولون: بل يوماً⁽¹⁾. فالجواب من جنس السؤال.

- ومن مواضع الإشكال في العدد المماثلة لما مضى قوله تعالى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الأنعام: 160).

كما سبق، فإن القاعدة العامة في العدد وتمييزه تقرّر أن يكونا مختلفين في الجنس، فإذا كان العدد مذكراً كان المعدود مؤنثاً، والعكس بالعكس. لكن في هذه الآية فإنّ كلّاً من العدد وتمييزه مذكّر. ومن تعليلات ذلك:

● أن المذكر اكتسب من المؤنث التأنيث بسبب الإضافة، وذلك كثير في أساليب العرب، إذ يعطون - عادةً - المضاف حكم ما أُضيف إليه. من ذلك قول ذي الرّمة: [طويل]

مَشِينٌ كَمَا اهْتَزَّتْ رِيَّاحٌ تَسْفَهُتٌ أَعَالِيهَا مَرُّ الرَّبِيعِ النَّوَاسِمِ⁽²⁾
- ذهب آخرون إلى أنه يجوز أن يكون من باب مراعاة المعنى دون اللفظ، حيث روعي فيه المعنى دون اللفظ. ومن ذلك قول النواح الكلابي: [طويل]

وإنّ كلاباً هذه عشرُ أبطنٍ وأنت بريءٌ من قبائلها العشرِ⁽³⁾

(1) أبو حيان، البحر المحيط، ج 2/ 234.

(2) ديوان ذي الرمة، ص 754؛ وخزانة الأدب، ج 4/ 225؛ وشرح أبيات سيبويه، ج 1/ 58؛ والكتاب، ج 1/ 52؛ والمحتسب، ج 1/ 237؛ والمقاصد النحوية، ج 3/ 367؛ ويروى بلا نسبة في: الأشباه والنظائر، ج 5/ 239؛ والخصائص، ج 2/ 417؛ وشرح الأشموني، ج 2/ 310؛ وشرح ابن عقيل، ص 380؛ ولسان العرب، ج 3/ 288؛ (مادة: عرد)؛ و (مادة: صدر)؛ والمقتضب، ج 4/ 197.

(3) الأشموني ج 3/ 620؛ خزانة الأدب، ج 7/ 395؛ الإنصاف، ج 2/ 769؛ الدرر، ج 6/ 196؛ المقاصد النحوية، ج 4/ 484؛ الأشباه والنظائر، ج 2/ 105؛ أمالي الزجاجي، ص 118؛ خزانة الأدب، ج 7/ 395؛ الخصائص، ج 2/ 417؛ شرح الأشموني، ج 3/ 620؛ كتاب سيبويه، ج 3/ 565؛ المقتضب، ج 2/ 148؛ همع الهوامع، ج 2/ 149.

فلم تلحق التاء في العدد (عشر) المضافة إلى (أبطن) وهي مذكرة، لأنها في المعنى مؤنث، أي (القبائل).

وإذا أريد العكس - أي إرادة المذكر بلفظ مؤنث - جاز كذلك مراعاة المعنى دون اللفظ، وإلحاق التاء في عدد المؤنث، وهو مثل قول الحطيئة: [وافر]

ثلاثة أنفُس، وثلاث ذُودٍ لَقَدْ جَارَ الزَّمانُ على عِيالي⁽¹⁾
وقد عُذَّ من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾
(الأعراف: 160). الذي سبق الحديث عنه.

- ويجوز أن يكون التأنيث هنا مراعاة لموصوف محذوف، تقديره: (فله عشر حسنات أمثالها). فحذف الموصوف، وأقيمت صفته مقامه، وهو نظير قولك: مررت بثلاثة نسابات، أي: بثلاثة رجال نسابات⁽²⁾.

- أما تعليل تأنيث (عشر) والإشارة إليها بالهاء، فقليل إنَّ الأمثال خلَّفت حسنات، وتقدير الكلام: فله عشر حسنات أمثالها، وسقوط الهاء من (عشر) دلالة على هذا التأنيث⁽³⁾.

61 - إسناد الفعل جاءه إلى الفاعل المؤنث (موعظة)

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 275).

(1) ديوانه، ص 270؛ الأغاني، ج 2/144؛ الإنصاف، ج 2/771؛ خزانة الأدب، ج 7/367؛ 368؛ 369؛ الخصائص، ج 2/412؛ كتاب سيبويه، ج 3/565؛ وينسب لأعرابي في: الدرر، ج 4/40؛ المقاصد النحوية، ج 4/487؛ كما روي بلا نسبة في: أوضح المسالك، ج 4/266؛ شرح الأشموني، ج 2/620؛ شرح التصريح، ج 2/270؛ مجالس ثعلب، ج 1/304؛ همع الهوامع، ج 1/253؛ ج 2/170.

(2) أبو حفص عمر الحنبلي، اللباب في علوم القرآن، ج 8/533.

(3) زاد المسير، ج 3/160.

الإشكال في هذه الآية أنَّ الفعل (جاء) في الجملة الشرطيّة أو الموصوليّة التي في محلّ رفع بالابتداء، قد أتى على ضمير التذكير المستتر في الفعل الماضي (جاء). أما فاعله فمؤنّث، وكان المتوقّع المطابقة فيقال: (فَمَنْ جاءته موعظة) (*). قيل إنَّ سقوط علامة التأنيث من الفعل المسند إلى الاسم المؤنّث (جاءه + موعظة) لأسباب:

أولاً: تأنيث مجازي: قالوا إنَّ سبب ترك التّطابق بين الفعل وفاعله المؤنّث؛ أنَّ تأنيث (موعظة) غير حقيقيّ، وما ليس بحقيقيّ من المؤنّثات ففيه متّسع، فيُسند إليه ويُخبر عنه بالتذكير.

ثانياً: الحَمْل على المعنى: قيل إنَّ سبب تذكير الفعل (جاءه) كون الوعظ والموعظة سيّين، فيأتي على التذكير باعتبار المعنى، ويأتي على التأنيث باعتبار اللفظ⁽¹⁾.

وقد جاء التذكير في الفعل المسند إلى (موعظة) تارة، وأخرى على التأنيث، فمن التذكير آية البقرة السابقة، ومن التأنيث قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ (يونس: 57)⁽²⁾. يقول الفراء: «إذا كان الفعل في مذهب المصدر مؤنّثاً مثل العاقبة والموعظة والعافية، فإنّك إذا قدّمت فعله قبله أنثته وذكّرته، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ بالتذكير، وقال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بالتأنيث، وكذلك: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾، و(أخذت)، فلا تهابنّ من هذا تذكيراً ولا تأنيثاً»⁽³⁾.

ثالثاً: الفصل بين الفعل وفاعله المؤنّث: كما يمكن تعليل تذكير الفعل بأنه وقع فاصلاً بين الفعل وفاعله المؤنّث بالمفعول وهو الهاء، كقولهم: حضر

(*) قرأ أبيّ، والحسن على الأصل: (فَمَنْ جاءته موعظة)، وعلى ذلك لا إشكال في الآية. ينظر: البحر المحيط، ج 2/ 349.

(1) الخصائص، ج 2/ 412.

(2) البغوي، ج 1/ 69. وقد قرأ أبيّ، والحسن على الأصل: (فَمَنْ جاءته موعظة). البحر المحيط، ج 2/ 349.

(3) معاني القرآن، ج 1/ 356.

القاضي اليوم امرأة⁽¹⁾. وعُدَّ من ذلك قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (البقرة: 180)؛ حيث إن الوصية مؤنثة، والفعل المسند إليها غير مطابق لها في الجنس، وقد وقع ذلك بسبب الفصل بين نائب الفاعل والفعل المسند إليه، وكأنَّ هذا الفاصل عوضٌ عن علامة التأنيث. ويجوز -كذلك- أن يعلَّل سببُ عدم التَّطابق هنا بحمل الوصية على (الإيصاء) فلا يكون في عدم التَّطابق إشكال⁽²⁾.

من شواهد ذلك في الشعر قول جرير: [وافر]

لَقَدْ وَلَدَ الْأَخْيَطُ لَأُمِّ سَوَاءٍ عَلَى بَابِ اسْتِهَاءِ صُلْبٍ وَشَامٍ⁽³⁾
والشاهد قوله (ولَدَ.... أُمُّ) فالفاعل مؤنث حقيقيُّ أسند إليه فعلٌ لم تلحقه أداة التأنيث وذلك بسبب الفصل بينهما. وقيل إنَّ علة التذكير ليس الفصل بين الفعل وفاعله المؤنث ولكن من باب الاكتفاء بدلالة الاسم عن العلامة. ففي البيت السابق أسند الفعل بضمير المذكر إلى المؤنث، لأنَّه الاسم (أُمُّ) واضح الدلالة على التأنيث، بل هو أصل المؤنثات.

وقد جاء الفعل المسند إلى مؤنث مذكراً بدون فصلٍ بينهما في قول الشاعر:

قَامَ أُمُّ الْوَلِيدِ بِالْقَبْرِينِ تَنْدُبُ عَبْدَ الْمَلِكِ وَالضُّحَاكَ⁽⁴⁾
كان حقُّ الكلام أن يقول (قَامَتْ)، ويساند هذا الشاهد القول السابق بأن سبب تذكير الضمير في بيت جرير كان من باب الاكتفاء بدلالة الاسم عن العلامة وليس بسبب الفصل.

وقد فصل بين المؤنث الفاعل وفعله بفاصلٍ، لكن الفعل أنث في قوله

(1) المفصل في صنعة الإعراب، ج 1/ 248.

(2) القرطبي، ج 2/ 258.

(3) ديوانه، ص 549؛ ويروى بلا نسبة في جمهرة اللغة، ص 1308؛ سر صناعة الإعراب، ج 2/ 565. ومن روايات عجز هذا البيت قولهم: مقلدة من الأمات عاراً.

(4) الفراهيدي، الخليل بن أحمد. الجمل في النحو، تحقيق: فخر الدين قباوة، (د.م، ط 5، 1995)، 1/ 293.

تعالى: ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس: 97). كما أنه قد جاء مذكراً في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: 9)، ومثال هذه الآية، الآية الآتية:

62 - إسناد الفعل المذكر إلى الاسم المؤنث (آية)

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِیِ الثَّقَاتِ فِتْنَةً تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: 13).

أسند الفعل (كان) إلى الاسم المؤنث (آية)، وكان حقه التأنيث.

- قيل لأن تأنيث (آية) غير حقيقي، فجاز تذكره.

- وقيل إن (آية) ضمنت معنى (البيان) فردّها التّنزيل إليه، فكأنه قال: قد كان لكم بيان، فذهب إلى المعنى دون اللفظ.

وقد عُدّ من ذلك قول امرئ القيس: [متقارب]

بَرْهَرَهةً، رَوْدَةً، رَخْصَةً كَخُرْعُوبَةِ الْبَانَةِ الْمَنْفَطِرِ⁽¹⁾

الشاهد قوله (المنفطر)، وكان حقه أن يقال (المنفطرة)، غير أن الشاعر

ذهب إلى معنى القضيب، دون لفظ البانة⁽²⁾. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ

قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِيئُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾

(آل عمران: 45) قيل الهاء في (اسمه) عائدة على معنى (ولد)، أي إن الله

يبشرك بولد اسمه المسيح عيسى ابن مريم⁽³⁾.

- ويذهب الفراء إلى أن علّة تذكير الضمير في (كان) كون الصّفة حالت بين

(1) ديوانه، 153؛ تهذيب اللغة، ج 3/275؛ المخصص، ج 10/214؛ ج 11/3؛ ديوان

الأدب، ج 2/87؛ تاج العروس، ج 2/351؛ مقاييس اللغة، ج 2/251.

والبرهرة: الممتلئة المتجرجرة. الرّودة، والرّادة: الناعمة. الخرعوبة: القضيب.

المنفطر: الذي ينفطر بالورق.

(2) القرطبي، ج 4/24، 25.

(3) الطبري، ج 3/269.

الفعل (كان) وبين الاسم المؤنث (آية)، وكلُّ اسم مؤنث حال بينه وبين فعله حائلٌ فجاءتُ تذكير الفعل فيه؛ فسوّغ التذكير⁽¹⁾. كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: 21). (وفي الممتحنة: 4).

ومن فصل الفعل عن فاعله المؤنث قول الشاعر⁽²⁾: [بسيط]
 إِنَّ أَمْرًا غَرَّهُ مِنْكَ وَاحِدَةً بَعْدِي وَبَعْدَكَ فِي الدُّنْيَا لَمَغْرُورُ
 وأصل الكلام (غَرَّته). كما أنَّ الفعل قد أسند إلى المؤنث دون بروز للعلامة فيه، ولم يفصل بينهما بفاصل في قول الصلتان العبدى:

إِنَّ السَّمَاخَةَ وَالْمَرْوَةَ ضَمَّنَا قَبْرًا بِمَرَوْ عَلَى الطَّرِيقِ الْأَوْضَحِ
 وعلة ذلك كونُ الاسمين مصدرًا، والمصادر تذكّر وتؤنث⁽³⁾.
 والحاصل في هذا كلّ جملة أمور:

- أن الفعل المذكّر قد يسند إلى الفاعل المؤنث، وذلك إما للفصل بينهما بفاصل، أو اكتفاء بدلالة الاسم المؤنث عن العلامة.
- أن الفعل قد يفصل بينه وبين فاعله المؤنث لكنّه يؤنث على الأصل.
- أنَّ تذكير الفعل الناسخ (كان) مع الفاعل المؤنث كثير الورد، وسواء فصل بينه وبين الفاعل بفاصل أم لم يفصل بينهما بشيء. ولعلّ ذلك خصيصة من خصائص الأفعال الناسخة.

63 - الإشارة إلى السماوات والأرض وما فيهنّ بـ(هذا)

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: 191).

(1) البغوي، ج 1/182؛ فتح القدير، ج 1/321.

(2) الإنصاف في مسائل الخلاف، ج 1/174؛ وتخليص الشواهد، ص 481؛ والخصائص، ج 2/414؛ والدرر، ج 6/271؛ وشرح الأشموني، ج 1/173؛ وشرح شذور الذهب، ص 224؛ وشرح المفصل، ج 5/93؛ ولسان العرب، ج 5/11؛ واللمع، ص 116؛ وهمع الهوامع، ج 2/171.

(3) الجمل في النحو، ج 1/293.

في هذه الآية الإشارة إلى السماوات والأرض وكل ما فيهما من أفلاك ونجوم، باسم الإشارة المذكر (هذا)، وهي شيئان أو أشياء، يحتوي كل منها على أشياء متفرقة. فالإشكال في هذا الموضع الإشارة إلى المثنى أو الجمع بإشارة المفرد.

في تعليل تلك الإشارة أقوال، منها:

أن السماوات والأرض وما فيها تعدُّ كتلةً واحدةً مجموعة تجوز الإشارة إليها بالإفراد⁽¹⁾.

- أن السماوات والأرض بتأويل هذا المخلوق العجيب. أي: ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً.

ومن الملفت للنظر الإشارة في الأسلوب القرآني إلى الألفاظ المتعلقة بالأفلاك والكواكب بالتذكير من حيث الجنس، وإسناد ضمائر العقلاء إليها. ونميل إلى الرأي الأول الذي يؤول جميع المخلوقات بشيء واحد، ويشير إليها مجتمعةً باسم الإشارة (هذا) لأن المتدبر في خلق السماوات والأرض والنجوم وغيرها من أجزاء الكون يصل إلى حقيقة واحدة هي أن تلك المخلوقات على اختلافها، كتلةً واحدة خلقها المبدع سبحانه بالحق، ولم يخلقها عبثاً وباطلاً، وحينئذ يدعن بالقول: ما خلقت هذا باطلاً؛ إذ هو ينظر إليها نظرة كلية.

64 - الإشارة إلى الشمس المؤنث بضمير الإشارة المذكر (هذا)

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوِّمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: 78).

أشار إلى الشمس باسم الإشارة (هذا) المذكر، ومن ثم وصفها بصفة للذكور (أكبر)، وكما هو معلوم، فإن الشمس مؤنث مجازي يشار إليها

(1) الكشاف، ج 1/227.

بضمير التّأنيث المفرد، فيقال: طلعت الشمس، والشمس طالعة... وقد تضافرت الشّواهد والاستعمالات على ذلك، ومن ذلك في القرآن الكريم المواضع الآتية:

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ (الكهف: 90). فقال (وجدتها تطلع.. دونها) بالتّأنيث، ووقوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير: 1)، وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ (الشمس: 1).

ومما قيل من تعليل لهذا الإسناد ما يأتي:

- التذكير هنا من باب الحَمَل على المعنى أي أنّه أراد باسم الإشارة قوله: هذا الطّالع، أو هذا النّور أو الضياء، فحمل الكلام على هذا المعنى المراد، غير المذكور صراحة⁽¹⁾.

ومن ذلك في الشعر قول الأعشى: [سريع]

قَامَتْ تُبَكِّيهِ عَلَى قَبْرِهِ مَنْ لِي بِعَدَاكَ يَا عَامِرُ؟
تَرَكْتَنِي فِي الدَّارِ ذَا غُرْبَةٍ قَدْ ذُلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرُ⁽²⁾
ومحلّ الشاهد قوله (ذا غُرْبَةٍ)، وهو اسم موصول يرجع إلى المرأة الباكية.

- وقيل لأنّه لما أخبر عنها بمذكّر، أعطيت حكم ذلك المذكّر، وعمِلت معاملته، ومن ذلك قول النابغة الذبياني: [بسيط]

نُبِّئْتُ نَعْمَى عَلَى الْهَجْرَانِ زَارِيَةً سَقِيًّا وَرَعِيًّا لِذَاكَ الْغَائِبِ الزَّارِي⁽³⁾
فحين وصف الشاعر (نعمى) وهي أنثى بوصف الذكور، أشار إليها بإشارة الذكور. كما يجوز فيها اللغتان: التذكير والتّأنيث، وإن كان التّأنيث الأكثر. وقد جُمع بينهما في هذه الآية فأنث في قوله (بازغة)، ثم ذكّر في قوله (هذا أكبر).

(1) البغوي، ج 2/ 111.

(2) الإنصاف، ج 2/ 507؛ الأشباه والنظائر، ج 5/ 177؛ أمالي المرتضى، ج 1/ 71، 72؛ سمط اللّالي، ج 1/ 174؛ شرح المفصل، ج 5/ 101؛ لسان العرب، ج 4/ 608.

(3) ديوانه، ص 202؛ أساس البلاغة، (مادة: زري)؛ وبلا نسبة في العين، ج 7/ 381.

- أما الزمخشري، فإنه يوضح لطيفة أسلوبية في اختيار التذكير في هذه الآية بقوله: «جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد؛ كقولهم: ما جاءت حاجتك، ومن كانت أمك؟ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: 23)، وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التأنيث، ألا تراهم قالوا في صفة الله: علام، ولم يقولوا: علامة، وكان أبلغ احترازاً من علامة التأنيث؟»⁽¹⁾. فاختيار التذكير كان الغرض منه تنزيه المولى -جل شأنه- من شبهة التأنيث، وهذا تعليلٌ وجيه.

- ويذهب بعضهم إلى القول إنَّ التذكير هنا من باب الحمل على اللفظ، أي أنَّ التذكير على اعتبار لفظ (الشَّمْس) لا معناها⁽²⁾.

- أما أبو حيان، فيذهب إلى احتمال كونه حكايةً لكلام إبراهيم، وأن تكون تلك اللغة التي تحدَّث بها إبراهيم (العبرانية أو السريانية) لا تفرق بين المذكر والمؤنث بعلامة ظاهرة، يقول: «ويمكن أن يُقال إنَّ أكثر الأعاجم لا يفرقون في الضمائر، ولا في الإشارة بين المذكر والمؤنث سواء، فلذلك أشار إلى المؤنث عندنا (أي في العربية) حين حكى كلام إبراهيم بما يشار به إلى المذكر، بل لو كان المؤنث بفرج لم يكن له علامة تدلُّ عليه في كلامهم، وحين أخبر - تعالى - عنها بقوله (بازِغَة) و (أَفَلَت) أتت على مقتضى العربية؛ إذ ليس ذلك بحكاية»⁽³⁾.

غير أنَّ أبا حفص الحنبلي يجد في هذا التعليل محلَّ نظر، وذلك أنَّ القرآن لو كان يحكي كلام العجم بعينه، لجاز ذلك، ولكن التعبير عن شيء بلغة العرب، ثم إعطاء حكمه في لغة العجم، محلُّ نظر⁽⁴⁾. وذلك اعتراض وجيهٌ لأن القرآن الكريم قد ساق قصصاً كثيرةً، وحكى عن أصحابها من

(1) الكشف، ج 1/ 366.

(2) الواحدي، ج 1/ 362.

(3) البحر المحيط، ج 2/ 41.

(4) اللباب في علوم الكتاب، ج 8/ 250.

الأعاجم، ولكن الأسلوب القرآني سار في سياق تلك الحكايات وإيراد الأقوال على ألسنتهم على سنن العرب في الكلام، فيُسْتَبْعَدُ أن يحكي القرآن الكريم على لسان إبراهيم (عليه السلام) في هذا الموضع فيخرج عن الأسلوب العربي في مطابقة أجزاء الكلام على حساب لغة إبراهيم التي لا طائل لنا اليوم في الالتزام بقواعدها وأساليبها التي يفترض أبو حيان عدم مراعاتها لقانون التّطابق في الجنس.

65 - وصف الأسماء بـ(الحسنى) المفرد

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: 180)، ومثله في: (الإسراء: 110؛ وطه: 8؛ والحشر: 24).

كان المحتمل في هذه الآية وأمثالها في القرآن الكريم أن تجمع (الحسنى) على (الأحاسن) لكونها نعتاً للأسماء، والنّعت - كما هو معروف - يتبع منعوته في الإعراب، والجنس والعدد بشروطها المعينة.

- قيل في توجيه ذلك إنّ سبب ترك المطابقة كون (الأسماء) تقع عليها هذه، فيقال: هذه أسماء.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ (النمل: 60).

ومن الشعر قول الأعشى:

وسوف يعفنيه إن ظفرت به رب غفور وببيض ذات أطهار
حيث لم يقل الشاعر (ذوات أطهار)، وهو نعت للبيض الجمع المؤنث⁽¹⁾.

ومن موارد ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى:

(1) الطبري، ج 16/ 141.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾ (طه: 18). فعومل (مَارِب) معاملة الاسم المفرد؛ فوصف (بأخرى)، على الرغم من أنه جمع (مَارِبَة) بتثليث الراء، وهي الحاجة. وكان حقها أن توصف بالجمع، فيقال: (مَارِب أُخَر).

- أنه لم يُقل (أُخَر) مراعاة لرؤوس الآي،⁽¹⁾ ومن المعلوم أن مراعاة الفواصل مقدّم على كثير من الخصائص الأخرى.

- وقيل إنه جمع تكسير لغير العقلاء، وجمع التّكسير في غير العقلاء يُعامل معاملة المؤنثة الواحدة.

ومثل الآية السابقة قوله تعالى: ﴿أَيُّنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ (الأنعام: 19) وفي ذلك ذهب الفراء إلى أن علّة إفراد (أخرى) في الآية الكريمة، أن الجموع يلحقها التأنيث، ولذلك لم يقل - والله أعلم - (آلهة أُخَر)⁽²⁾.

ومما ذكروا من نظائر ذلك من الآيات، قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ (طه: 51)، إذ كان المحتمل أن يقول: (الأوّل) أو (الأولين)⁽³⁾.

فالحاصل في هذه المسألة أن جموع التكسير تُعامل معاملة المفرد المؤنث، وأن نسق الفواصل القرآنية توجب الالتزام بهذه القاعدة كلّما وردت فيها صفة سواء أكانت لجماعة الذكور أم للإناث.

66 - الإخبار عن القرى ب(أهلكناهم)

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (الكهف: 59).

(1) أبو حيان، البحر المحيط، ج 6/ 235.

(2) تفسير الرازي، ج 11/ 148.

(3) الطبري، ج 7/ 163.

أشار القرآن الكريم في الآية السابقة إلى القرى بضمير التانيث الواحدة (تلك) كما هو الأصل في الإشارة إلى جمع التكسير المؤنث، ولكن الإشكال في الآية إلحاق ضمير جماعة الذكور (هم) بالفعل (أهلكنا)، وبالمصدر (مهلكهم) وكان المتوقع أن يكون الضمير ضمير إناث للواحدة، فيقال: (أهلكناها و مهلكها). فما سبب كون الضمير ضمير جماعة الذكور دون الضمير المؤنث الواحدة؟

- قيل إنه أقام القرى(*) مقام الأهل؛ فجاز أن يعود الضمير على القرى مرة، وعلى الأهل مرة أخرى.

أما إسناد الضمير إلى الجمع فقليل إنَّ علَّة ذلك حمُّله على القوم، كما يقال: جاءت تميم، بجعل الفعل لبني تميم، لا لتميم، وإلا قيل: جاء تميم⁽¹⁾.

67 - نفي مريم عن نفسها صفة توهّم التذكير

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (مريم: 19، 20).

لم تلحق تاء التانيث بالاسم بغيا، وهو صفة لمؤنث حقيقي، ومن الأقوال في بيان ذلك⁽²⁾:

- إنَّ (بغيا) على وزن (فَعُول) مثل: صبور، وشكور، وهو من الأوزان التي يستوي فيها المذكر والمؤنث. وهي: فَعِيل، وفَعُول، ومِفْعِيل،

(*) ألحقت (ال) التعريف بالقرى ههنا للتعظيم، وعُدَّ منه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ (البقرة: 2). وفي الشعر قول أمية بن الصلت الثقفي:

تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ شيبا بماء فعادا بعد أبوالا
ينظر: الشعر والشعراء، 469؛ العقد الفريد، ج 2/ 23؛ شرح المفصل، ج 78، 104؛
الدر المصون، ج 3/ 312.

(1) الطبري، ج 15/ 271.

(2) أبو حفص عمرو الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ج 13/ 37.

ومِفْعَال، ومِفْعَل (*).

- إنه على وزن (فَعِيل) وليس على وزن (فَعُول)، ولو كان على وزن (فَعُول) كما سبق، لَلَزِمَ من ذلك أن يقال (بَغُو) كما يقال: (فُلان نَهُو عن المنكر)، فالأصل فيه الياء وليس الواو.

(*) هذه مجموعة الأوزان الخمسة التي يستوي فيها المذكر والمؤنث:

- 1- (فَعِيل)، وتأتي صفةً للفاعل أو للمفعول، نحو: جريح، وظريف. فإذا كانت صفة للفاعل لحقت به تاء التأنيث، تمييزاً بها بين المذكر والمؤنث، نحو: رجل (رحيم)، وامرأة (رحيمة، شريفة، ظريفة، كريمة...)، وإذا لحقت التاء بهذا النوع دالاً على المفعولية اعتبر ذلك مخالفة للقياس، وعُِّلَّ ببعض المناحي اللغوية والبلاغية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: 56).
قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (الإسراء: 8) أي: حاصراً. ولم يؤنثه لأن فَعِيل هنا بمعنى فاعل. أو لأن تأنيث جهنم غير حقيقي.

- 2- (فَعُول): وتأتي بمعنيين، فتكون صفة بمعنى (فاعل) كما تكون صفة بمعنى (مفعول). وفي الأول تدل على أن الفعل له، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (المعارج: 19-21) ف(مَنُوعاً وجزوعاً) يدلان على الفاعل لأن الإنسان هو الذي يقوم بهما. وفي الآخر الذي بمعنى (مفعول) تدل صيغة فعول على أن الفعل واقع عليه.

ومما وقع من ذلك قول عنترة: [كامل]

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سوداً كخافية الثراب الأسحم

لأن الحلب يقع على الناقة. ومن الأوصاف قولهم: ناقة حلوب، وعُلو، وحُمول، وجزور. ونعجة رغو. وتلحق التاء بهذه الصيغة كثيراً حتى ذهب الفراء إلى أن طرح التاء من هذه الصفة يكون في الصفات الخاصة بالمؤنث، كقولهم: نعجة رغو وحلوب. فهذه الصفات بمثابة: حائض، وطامث. التي لا تلحقها التاء لاختصاصها بالمؤنث. أما (فَعُول) بمعنى (فاعل) فلا تدخله التاء، وقد عللوا عدم دخول التاء فيه بكونه معدولاً عن (فاعل)، وليس له فعل يُبنى عليه، فيقال: امرأة: صبور، وظلوم، وقتول، وجزوع.. فكل تلك الصفات بمعنى فاعل، وهي معدولة عن: صابر، وظالم، وقاتل، وجازع.. وسُمع من إلحاق التاء به في قولهم: عدوة الله. وقد سوَّغ ذلك حملة على (صديقة). وسُمع كذلك: امرأة (ملولة)، و (فروقة)، و (صرورة)، و (الجوجة)، و (عروقة)، وشاة (رضوعة). وقيل إن الهاء في تلك الصفات للمبالغة.

- 3- (مِفْعِيل)، وهو للمبالغة، نحو: جارية معطير. وشد في هذه الصيغة قولهم: مسكينة.

- 4- (مِفْعَال)، وهو للمبالغة أيضاً، نحو: امرأة منحار، لكثيرة النحر. وشد هنا: ميقانة.

- 5- (مِفْعَل)، للمبالغة، نحو: مغشَم.

واعترض على هذا الرأي أيضًا بأنَّ (بغِي) إنَّ كان على وزن (فَعول)، فإنَّه بمعنى (فَاعِل)، الذي يلزم أن تلحقه التاء، مثل: امرأة بصيرة وقديرة. فلمَ لم تلحقه التاء إذن؟

وأجيب عن الاعتراض السابق بأقوال:

- أنَّ (بغِي) على وزن (فَعِيل بمعنى فاعِل)، ولم تلحقه التاء؛ لأنَّه للمبالغة، فلا يلزم لحق التاء به.
- أنَّه بمعنى النَّسب، وتقدير الكلام: ولم أكنْ بذاتِ بَغِي. ومثال ذلك: حائض، وطالق، وطامث، أي من الصِّفات الخاصَّة بالأنثى.
- أما إذا كان على وزن (فَعِيل) بمعنى (مفعول)، فلا خِلاف في عدم دخول التاء عليه.

68 - وصف الرِّيح المؤنث بـ(عاصِف) المذكر

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَرْجٍ يَبْرِجُ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ (يونس: 22).

الرِّيح: اسم مؤنث في مواردها في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ (آل عمران: 117)، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾ (الحاقة: 6، 7). بعود الضمير المؤنث على ريح في قوله (أصابت)، وفي (عاتية، وسخرها).

أما في الآية السابقة أعلاه^(*)، فقد جاءت كلمة (ريح) في المرَّة الأولى

(*) من اللطائف الأسلوبية في هذه الآية الانتقال من أسلوب الحضور إلى أسلوب الغيبة، فقل إن البلاغة في ذلك عرض حال هؤلاء على المخاطبين واستدعاء الإنكار عليهم، فلو سرد الآية على سياق الخطاب، (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها) لكان الكلام كله موجَّهاً إلى الكافرين لأنعم الله، ولم تحصل فائدة في تذكير غيرهم بحالهم. ينظر: المثل السائر، ج 2/10.

موصوفة بمؤنث (ريح طيبة)، كما جاءت كلمة (ريح) في المرة الثانية مسنداً إليها فعلٌ ملحقٌ بعلامة تأنيث (جاءتها) غير أن الصفة المسندة إلى (ريح) الثانية لم تؤنث، فقل: ريحٌ عاصِف، وذلك محلُّ الإشكال.

في توضيح هذا الإشكال أقوال:

- قيل جازَ تذكير لفظ (عاصِف) صفةً للريح، وهي مؤنث؛ لأنَّ وزن (فاعِل) الدال على الصفة المشبهة يستوي فيه المذكر والمؤنث. أما إذا كان (فاعِل) اسم فاعِلٍ، فيأتي مؤنثه على (فاعلة)، ولأنَّ العصف خاصٌّ بالريح، (***) وكل صفة خاصة بالمؤنث، لا تلزم فيها علامة التأنيث. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَقْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (الحاقة: 6)؛ لأنَّ الصَّرصر وزن مخصوص بالريح، لا يوصف به غيرها. كما لا يوصف بحائض وطالق، وطامث، وعافر، ونحوها إلا المرأة.

ومن تذكير الفعل المسند إلى (ريح) ما أنشد الفراء لبعض بني أسد:

كَمْ مِنْ جِرَابٍ عَظِيمٍ جِئْتَ تَحْمِلُهُ وَدِهْنَةٍ رِيحُهَا يَغْطِي عَلَى الثَّفَلِ

حيث ذكّر الشاعر الفعل المسند إلى الريح بقوله (يغطي) بالياء وليس التاء. ويعلّل ذلك الفراء بأنه ذكّر اتباعاً للفظ الريح، أو أنه ذكّر ذهاباً بها إلى معنى الأرج والنشر⁽¹⁾.

- وقيل لأنَّ الريح يُذكّر ويؤنث، فاتّبع الأسلوب القرآني في هذا الموضع التذكير، وفي مواضع أخرى اتّبع التأنيث⁽²⁾.

(**) يقال: ريحٌ عاصِف، ومُعَصِف، ومعصِفة. وناقَة عاصِف، وعَصُوف، أي: سريعة، وأصل (العصف) السرعة. والعصف خاصٌّ بالريح، أما قوله تعالى: ﴿أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (إبراهيم: 18)، وأمثاله، فهو من الصفات المقلوبة؛ لأن اليوم لا يعصف، وإنما العاصِف الريح التي تكون فيه، ومن الصفات المقلوبة أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ (هود: 84)، لأن اليوم ليس بمحيط، وإنما المحيط العذاب. ينظر: التبيان في إعراب القرآن، ج 1/ 209.

(1) المذكر والمؤنث، ص 97.

(2) البغوي، ج 2/ 349.

كما في هذه الآية إشكال آخر في عود الضمائر، حيث إذا قيل إن الضمير في (جاءتها)، وهي ضمير الواحد، عائدة على الفلك، فلمَ جاز عود الضمير مرة أخرى على الفلك بضمير الجمع في قوله (وجريّن)؟ فالإشكال: عود الضمير على الاسم مفرداً، ثم عود ضمير آخر على الاسم نفسه جمعاً.

وللإجابة عن هذا التساؤل أقوال:

أولاً: أن الضمير في (جاءتها) لا تعود على الفلك، وإنما تعود على الريح الطيبة، ويكون معنى الكلام: أن ريحاً عاصفاً تأتي على الريح الطيبة. وعلى هذا المعنى لا يكون إشكالاً في الضميرين، لأن أحدهما يعود على الريح، وهو الضمير في (جاءتها)، والآخر يعود على الفلك، وهو الضمير في (جريّن).

ثانياً: أن الضميرين يعودان على (الفلك)، ولا إشكال في أن يتفاوتا في العدد، لأن الفلك لفظ يصلح للواحد والجمع⁽¹⁾.

ومن دلالة الفلك على المفرد المذكر قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي أُلْفُكٍ الْمَشْحُونِ﴾ (الشعراء: 119)؛ وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي أُلْفُكٍ الْمَشْحُونِ﴾ (يس: 41). بدلالة تذكير الصفة، فلو أراد الجمع لقال: (المشحونة). أما دلالة على المفرد المؤنث ففي قوله: ﴿وَأُلْفُكٍ أَلَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ (البقرة: 164)، وفي الحج: 65؛ وقوله: ﴿وَلِتَجْرِيَ أُلْفُكُ بِأَمْرِ﴾ (الروم: 46). فالفعل مسندٌ إلى ضمير التاء المفرد للتأنيث.

ومن مواضع جمعها جمعاً للمؤنث قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي أُلْفُكٍ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَئَةٍ﴾ (يونس: 22). بإسناد نون النسوة إلى الفعل (جريّن)⁽²⁾. كذلك قوله تعالى: ﴿وَأُلْفُكٍ أَلَّتِي تَجْرِي﴾ بالإشارة إلى الفلك بضمير التأنيث، لأنه جمع تكسير للإناث. وهكذا تفاوتت كلمة (فلك) بين التذكير والتأنيث، والإفراد والجمع، باعتبار لفظها تارة، واعتبار معناها تارة أخرى.

(1) اللباب في علوم الكتاب، ج 10/ 296.

(2) أسرار العربية، ج 1/ 76؛ الخصائص، ج 2/ 101.

69 - وصف الليل والنهار والشمس والقمر بـ(يسبحون)

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: 33)، و (يس: 40).

أسند الفعل (يسبحون) إلى جماعة الذكور في معرض الحديث عن الشمس والقمر والنجوم وسائر الكواكب غير العاقلة، وحقها أن يسند إليها فعل مؤنث مفرد.

في بيان هذا الإسناد عدة تفسيرات:

- أن سِرَّ جمع الفعل المسند إلى جماعة غير العاقل جمعاً مذكراً سالماً، أنه لما أُسِنِدَ إلى الكواكب، وهي غير عاقلة، فعلٌ من يعقل من الجري والسبح، أجريَ عليها فعل العقلاء، لا فعل غير العقلاء⁽¹⁾.

وعلى ذلك، فإنه لا يخفى ما في هذا الاستعمال اللغوي من تشريف لتلك المخلوقات السابقة، وإشارة من المولى سبحانه إلى أهمية السجود والإذعان للخالق القهار في الارتفاع بالمعبود، والترقي به في درجات العليين ومنازلهم.

أما معاد الضمير في (يسبحون)، ففيه أقوال:

- قيل إنه يعود على الليل والنهار والشمس والقمر، لكن هذا القول ردٌّ، لأنَّ السباحة - عادةً - صفةٌ للشمس والقمر. أما الليل والنهار فهما حالتان ناشتان عن دوران الشمس والقمر، وليسا دائرتين.

وإذا ثبت هذا الردُّ، ففي عود ضمير الجمع على اثنين أقوال:

- قيل إنَّ ثمَّ اسمًا معطوفاً على الشمس والقمر محذوف، تقديره: (والشمس والقمر والنجوم...)، وقد دلت آيات أخرى على هذا المحذوف الذي عاد الضمير عليه وعلى الشمس والقمر⁽²⁾.

(1) البغوي، ج 3/ 243.

(2) البحر المحيط، ج 6/ 310.

- يذهب الزمخشري إلى أن الضمير للشمس والقمر، ولكنه أريد بهما جنس الطّوال كل يوم وليلة⁽¹⁾.
- ويرى آخرون أنه أتى بضمير الجمع على معنى (كل)، لأن (كل) لفظه مفرد ومعناه جمع.
- ويذهب آخرون إلى أنه أتى بضمير الجمع موافقة لرؤوس الآي، وقد حسن ذلك في الفواصل.

70 - مجيء الفعل (كان) وبعده ضمير (بها)

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء: 47).

- الإشكال في هذا الموضع مجيء الفعل (كان) مذكراً، ثم مجيء الضمير (بها) مؤنثاً، والسؤال إلام يعود الضمير؟ إلى المثلث أم الحبة؟
- قيل إن الهاء في قوله (بها) عائدة على الحبة، لأن المثلث جزء من الحبة. أما قوله (وإن كان)، فقد ذكره لتذكير المثلث. أي أن الحبة اكتسبت التذكير من المثلث للمجاورة.

ومما ورد من ذلك في الشعر قول الشاعر:

طُولُ اللَّيَالِي أَسْرَعَتْ فِي نَقْضِي طَوْنِ طُولِي، وَطَوْنِ عَرْضِي
حيث ألحق الشاعر ضمير التأنيث بالفعل الماضي المسند إلى (طول)، المذكر، لأن الطول مضاف إلى الليالي المؤنث، فاكسب منه التأنيث مراعاةً للمجاورة. واكتساب المذكر التأنيث من المؤنث المجاور له أو المضاف مألوف في أساليب العرب، إذ يعطون - عادةً - المضاف حكم ما أُضيف إليه.

من ذلك قول ذي الرمة: [طويل]

(1) الكشف، ج 3/10.

مَشِينَنَ كَمَا اهْتَزَّتْ رَمَاحُ تَسْفَهُتْ أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ النَّوَاسِمِ⁽¹⁾
فأسند ذو الرمة الفعل مؤنثا إلى المذكر (تسفّهت... مرّ).

ومما جاء من إسناد الفعل المذكّر إلى الفاعل المؤنث قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْنَلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ (يوسف: 10).

فقراءة الجمهور لهذه الآية⁽²⁾ على (يلتقطه) بالياء، وقرأ الحسن ومجاهد، وأبو رجاء، وقتادة، بالتاء (تلتقطه) على الأصل. أما قراءة الجمهور بالياء، ففي تعليلها عدّة أقوال:

- قالوا إنّما أنت (بعض) لأنّه مضاف إلى مؤنث، أي أنّه من باب الحمل على المجاور، لكون بعض السيارة سيّارة، حكى ذلك عن سيبويه، وقاسه على قولهم: [ذهبت أو سقطت بعض أصابعه]. والشرط في ذلك أن يكون المضاف جزءا من المضاف إليه، غير منفصل عنه، وإلاّ تعيّن المطابقة، يقول سيبويه: وربّما قالوا في بعض الكلام: ذهبت بعض أصابعه، وإنّما أنت البعض، لأنّه أضافه إلى مؤنث هو منه، ولو لم يكن منه، لم يؤنّثه؛ لأنّه لو قال: ذهبت عبد أمك، لم يحسن⁽³⁾.

(1) ديوان ذي الرمة، ص 754؛ وخزانة الأدب، ج 4/225؛ وشرح أبيات سيبويه، ج 1/58؛ والكتاب، ج 1/52؛ والمحتسب، ج 1/237؛ والمقاصد النحوية، ج 3/367؛ ويروى بلا نسبة في: الأشباه والنظائر، ج 5/239؛ والخصائص، ج 2/417؛ وشرح الأشموني، ج 2/310؛ وشرح ابن عقيل، ص 380؛ ولسان العرب، ج 3/288؛ (مادة: عرد)؛ و (مادة: صدر)؛ والمقتضب، ج 4/197. ويروى البيت:

مرّ الربيع النّواسم

(2) من الصّور البلاغيّة في هذه الآية اللّف والنّشر، ويراد به ذكر مجموعة أمور في صدر الكلام، ثم الإتيان بما يفسّر تلك الأمور على التّرتيب، وفي هذا الموضع اقترح أحد إخوة يوسف أمرين هما: القتل، أو الطرح في الجبّ، ثم جاء بما يبيّن ذلك على الترتيب في قوله (يلتقطه بعض السيارة). ومما ورد من ذلك في الشعر قول جرير: [الوافر]

إذا بعضُ السُّنَنِ تَعَرَّقْنَا كَفَى الْإِيثَامَ فَقَدْ أَبِي الْيُثْمِ
ينظر: ديوانه، ص 219؛ خزانة الأدب ج 4/220؛ الكتاب، 52؛ الأشباه والنظائر، 192؛ المقتضب، ج 4/198.

(3) كتاب سيبويه، ج 1/25.

- قال المبرّد: التّأنيث على المجاورة لمؤنّث لا على الأصل، أي أنّه إذا جاور المذكّر المؤنّث، فإنّ العرب تؤنّثه حملاً على مجاورته للمؤنّث، والعكس كذلك. ومن نظائر ذلك في الشعر قول الأعشى: [طويل]
وتشرقُ بالقولِ الذي قد أدغته كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدّم
وقول الآخر:

أرى مرّ السّنين أخذن منّي كما أخذ السّرارُ من الهلالِ
فالشّاهد في البيت الأول مجيء الفعل (شرقت) على التّأنيث وفاعله مذكّر، والبيت الأخير كذلك؛ إذ أسند الفعل (أخذن) إلى الاسم (مرّ) بعلامة الإناث لمجاورته السنين.

وفي قراءة أبي العالية لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ (الأنعام: 158)، بالتاء (تنفع)، وكان الأصل أن يقرأ بالياء كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُنَافِسُ﴾ (يونس: 98)، وإلى ذلك ذهب سيبويه، وقال إنّ الدقة في هذا الأسلوب أن الإيمان والنفس كلّ منهما مشتملٌ على الآخر، فأنت الإيمان؛ إذ هو من النّفس، وأنشد لذي الرّمة: مَشِينَ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسْفَهَتْ... البيت السابق آنفاً).

- أمّا النّحاس، فعلّل سبب تأنيث الإيمان بالمصدرية، والمصدر جائز التذكير والتّأنيث⁽¹⁾. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ (البقرة: 275).

- وقيل أنّ الفعل المسند إلى (بعض) لأن تأنيثه معنويّ. وبعد، فإنّ الملاحظ في هذا الموضع أنّ للمجاورة أثراً واضحاً في وضع المؤنّث موضع التذكير أو العكس، فالمجاورة من القواعد المرعية في اللّغة، وتتحكّم في مختلف المستويات اللّغويّة، في الحركات الصّوتية،

(1) القرطبي، ج 7/ 149.

والعلامات الإعرابية، وفي الفصائل النحوية من تأنيث وتذكير، وتثنية وإفراد... ومن القواعد النحوية أن «المتجاوزين كالشيء الواحد»⁽¹⁾، و أنه «يعطى الشيء حكم الشيء إذا جاوره»⁽²⁾، وأن من عادة العرب تسمية الشيء باسم الشيء إذا جاوره أو ناسبه أو اتصل به، أو آلت إليه عاقبته، فيسمون العنب خمراً⁽³⁾. وأشهر مثال عند النحويين قولهم: هذا جحر ضب خرب. بجر (خرب) وحكمه الرفع لأنه خبر.

71 - الإشارة ب(إنها) إلى اسم غير محدد

قال تعالى: ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: 31، 32).

الإشكال في هذه الآية معاد الضمير الهاء، والاحتمال الأقرب أن تعود على الشعائر، ولكن المعنى لا يستقيم حينئذ؛ إذ يكون: فإن الشعائر من تقوى القلوب. فأين معاد الضمير إذن؟

هناك آراء في تفسير الآية وبيان معاد الضمير منها:

- أن الهاء عائدة على المصدر (التعظيم)، أي أن تلك التعظيمة لشعائر الله، واجتناب الرجس من الأوثان، من تقوى، ومن نظائر ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأعراف: 153)⁽⁴⁾.

- وقيل إن الهاء عائدة على مضاف محذوف، وتقدير الكلام: فإن تعظيمها من تقوى القلوب.

(1) الباب في علل البناء والإعراب، ج 2/ 211.

(2) مغني اللبيب، ج 1/ 894.

(3) كتاب اللامات، ج 1/ 120.

(4) الطبري، ج 17/ 157.

- مذهب آخر، لا يرى عود الهاء على المصدر أو عودها على مصدر محذوف، يبين ذلك الألوسي قائلاً: «ومن الناس من لو يوجب تقدير التعظيم، وأرجع ضمير (فإنها) إلى الحرمة أو الخصلة كما قيل نحو ذلك في قوله ﷺ: «من توضأ يوم الجمعة فيها ونعمت» أو إلى مصدر مؤنث مفهوم من (يعظم) أي التعظيمة. واعترض هذا بأن المصدر الذي تضمنه الفعل لا يؤنث إلا إذا اشتهر تأنيثه كرحمة وهذا ليس كذلك⁽¹⁾».

72 - الإشارة إلى الدواب بـ(منهم)

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: 45).

كان المتوقع القول: (فمنها، أو فمنهن) إشارة إلى الدواب غير العاقلة؛ لأن غير العاقل المجموع يشار إليه عادة بضمير التانيث المفردة. والسّر في ذلك كما ذهب إليه المفسرون، أنه لما خلط بين من يعقل ويُميّز، وما لا يعقل ولا يميز، غلب من يعقل؛ فجاء بضمير جمع الذكور (هم) دون (هنّ) لجمع الإناث، ثم جاء بالاسم الموصول (من) أولاً، دون الاسم الموصول (ما) لغير العاقلين. وكل ذلك من باب التغليب⁽²⁾.

وقد ورد (من) مشاراً به إلى غير العاقل، وهو من باب إنزال غير العاقل منزلة العاقل في قول امرئ القيس: [طويل]

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العُصر الخالي؟⁽³⁾

(1) روح المعاني، ج 17/152.

(2) معاني القرآن، ج 4/546.

(3) أوضح المسالك، ج 1/151، 150؛ جمهرة اللّغة، ص 1319؛ خزانة الأدب، ج 1/60، 328، 332؛ الدرر، ص 192؛ شرح شواهد المغني، ج 1/340؛ الكتاب، ج 4/39؛ تاج العروس (مادة: طول)، وروي بلا نسبة في: أوضح المسالك، ج 1/148؛ خزانة الأدب، ج 7/105؛ شرح الأشموني، ج 1/69؛ شواهد المغني، ج 1/485؛ مغني اللبيب، ج 1/169؛ همع الهوامع، ج 2/83.

وكما في قول الشاعر: [طويل]

أَسْرَبَ الْقَطَا مَنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ لِعَلِّي إِلَى مَنْ هَوِيَتْ أُطِيرُ⁽¹⁾
فخاطب مجموعة الطيور وأشار إليها بالاسم الموصول (مَنْ). وقد سوَّغ
نداء الظَّلَل، ومخاطبة القطا، تنزيلها منزلة من يمكن دعاؤه ونداؤه من العقلاء.
ومن نداء غير العاقل وتنزيله منزلة العاقل بإضافة علامة جماعة الذكور إليه
قوله تعالى على لسان نملة: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ﴾
(النمل: 18). حيث خاطبت النملة صواحباتها ونادتهنَّ، فسوَّغ أن تخاطبهن
بإسناد ضمير الخطاب لجماعة الذكور.

73 - وصف البلدة بـ(ميتا) مذكرا

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْئِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَشَقِيقُهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا كَثِيرًا﴾
(الفرقان: 48، 49).

في هذه الآية، وصف المولى عزَّ وجلَّ البلدة، وهي اسم مؤنث، بصفة
المذكَّر (مَيِّتًا)، وكان حقُّه أن يقال (ميتة)؛ فكان الإشكال في عدم مطابقة
الصِّفة للموصوف في الجنس. وقد وقع مثل ذلك في ثلاثة مواضع في القرآن
الكريم، أي وصف (البلدة) بوصف (مَيِّتًا)، وهي بالإضافة إلى الموضع
السابق:

- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ
نُخْرِجُونَ﴾ (الزخرف: 11).

(1) ديوانه، ص 106؛ وينسب للعباس بن الأحنف، ديوانه 168؛ تخلص الشواهد،
ص 141؛ الدرر، ج 1/300؛ شحر التصريح، ج 1/133؛ المقاصد النحوية،
ج 1/431؛ أوضح المسالك، ج 1/147؛ شرح الأشموني، ج 1/69؛ شرح ابن
عقيل، ص 80، 81.

والبيت السابق على هذا البيت هو:

بَكَيْتُ عَلَى سِرْبِ الْقَطَا إِذْ مَرَرَنْ بِي... فقلتُ، ومثلي بالبكاء جدير

- وقوله تعالى: ﴿رَزَقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (ق: 11). هذا، وقد وصف البلدة في موضع آخر بوصف المؤنث في قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ (سبأ: 15). وفي بيان عدم المطابقة - ظاهراً - بين الصفة والموصوف، يرى الزجاج أنه أريد بالبلدة الموضع والمكان⁽¹⁾. أو أنها بمعنى (البلد) المذكر، فلا لبس - إذن - في تذكير الصفة المضافة إلى البلدة.

74 - إسناد الفعل (اتخذت) بالتاء إلى العنكبوت

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ يَتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: 41).

أسند الفعل (اتخذت) بتاء التانيث إلى العنكبوت، وقد يُظنُّ أن في ذلك خرقاً لقاعدة المطابقة بين الفعل والفاعل، لكن يظهر في أقوال المفسرين واللغويين أن الغالب في استعمال لفظ (عنكبوت) التانيث، وأن التذكير إنما هو للجواز، والتانيث فيه للجنس. عليه، فإن التانيث في الآية الكريمة على الأصل، وقد ذكر الفراء، أن العنكبوت أنثى، وقد يذكرها بعض العرب، وقال أيضاً: التانيث في العنكبوت أكثر⁽²⁾. وقال المبرِّد: العنكبوت أنثى ويذكر وبمثل ذلك صرح المفضل بن أبي سلمة (ت290هـ)، بقوله إن العنكبوت يذكر ويؤنث، ويقول ابن الأنباري (557هـ): «والعنكبوت مؤنثة، وقد يجوز فيها التذكير، والنحل مؤنثة وقد يجوز فيها التذكير»⁽³⁾، ويقول أبو حيان الأندلسي (ت745هـ): «العنكبوت حيوانٌ معروف، ووزنه فعللوت، ويؤنث ويذكر»، وذكر من تذكيره قول الشاعر: [وافر]

(1) الطبري، ج19/21؛ والبغوي، ج3/372؛ القرطبي، ج13/56.

(2) المذكر والمؤنث، ص31.

(3) أبو البركات، البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتب دار الكتب، 1970، ص67.

عَلَى هَظَالِهِمْ مِنْهُمْ بَيُوتٌ كَأَنَّ الْعَنْكَبُوتَ هُوَ ابْتَنَاهَا⁽¹⁾
 بإشارته إلى العنكبوت بالضمير (هو) المذكّر. أمّا في العصر الحديث، فقد
 ذهب أهل التفسير الإعجازيّ إلى القول إنّ التأنيث في الآية الكريمة تأنيثٌ
 حقيقيّ، وأنّ المراد به أنثى العنكبوت لا الذكر، ويستندون في ذلك إلى
 الاكتشاف العلميّ الذي وجد أنّ العنكبوت الذكر لا يقدر على النّسج، وإنّما
 الأنثى هي التي تتولّى نسج البيت؛ بما زوّدها المولى الخالق به من عضوٍ في
 مؤخرتها غير موجودٍ في الذكر؛ لذلك فهم يروّون أنّ الإشارة إلى العنكبوت
 الأنثى هنا إشارةٌ دقيقةٌ معجزة.

75 - وصف العظام بأنّها (رميم)

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾
 (يس: 78).

في هذه الآية، لم تظهر علامة تأنيث في (رميم) مع كونه خبراً لمؤنث
 (العظام)، فيقال: رَمَّ العظم، أي: بلي، وهو رميمٌ ورمام. ومعلومٌ أن جمع
 التّكسير لغير العاقل يُعامل معاملة المفرد المؤنث، وكان المتوقّع أن يقال:
 (وهي رَمِيمَةٌ).

وعلى خلاف ذلك:

- يرى البغويّ والقرطبي أنّ (رميم) معدول عن (فاعلة) والقاعدة، أنّ كلّ
 ما عُدل عن وجهه، عُدل عن إعرابه،⁽²⁾ وأن من ذلك (بغياً) في قوله
 تعالى: ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾
 (مريم: 20، وفي 28)، إنّما عدل عن إعرابها لأنّها مصروفةٌ عن (باغية).

(1) تفسير البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي، ص 152. و(الهظال): اسم جبل،
 وأيضاً في: لسان العرب، 1/ 632 (عنكب)؛ تهذيب اللغة 3/ 309؛ المخصص 17/
 17؛ ديوان الأدب 1/ 329؛ تاج العرس 3/ 446 (عنكب).

(2) البغوي، ج 6/ 17؛ القرطبي، ج 15/ 58.

- أما الإمام الشوكاني (ت 1250هـ)، فيذهب إلى أن الأولى أن يقال إن (رَمِيم) على وزن (فَعِيل) الذي يأتي بمعنى (فَاعِل) أو (مَفْعُول)، وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث، نحو: جَرِيح، وَصَبُور. فكلمة (رَمِيم) هنا بمعنى: رَامِم، أو مَرْمُوم، على الفاعلية أو المفعولية⁽¹⁾. غير أن ابن عقيل يرى أن حذف التاء من (فَعِيل) الذي بمعنى (فَاعِل) قليل. وخالف الزمخشري الجميع قائلاً إن (رَمِيم) اسم لما بلي من العظام، وليس صفة، فلا وجه إذن لتعليل عدم تأنيثه. ومما ورد من ذلك في الشعر، قول الشاعر⁽²⁾:

أَمَّا الَّذِي لَا يَعْلَمُ غَيْرُهُ وَيُخَيِّ الْعِظَامَ الْبَيْضَ وَهِيَ رَمِيمٌ
فترك تأنيث (رَمِيم) وصفاً للعظام، أو باعتبارها اسماً لما بلي من العظام على ما ذهب إليه الزمخشري.

76 - تأنيث الفعل المسند إلى (قوم)

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ﴾ (ص: 12).
ورد تعليلان في تأنيث الفعل (كَذَّبَتْ) المسند إلى القوم المذكور، وهما:
- التعليل الأول: لأنه اسم جنس جمع في معنى الجماعة. والجماعة مؤنث مجازي، وعلى ذلك يجوز فيه التأنيث والتذكير، فمن التأنيث قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (البقرة: 253). فإنَّ علَّة تأنيث (تلك) المبتدأ المشار بها إلى الأنبياء والرسل كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب، وموسى وعيسى وغيرهم (صلوات الله عليهم)، وهم جماعة ذكور، مراعاة لفظ (الجماعة)، غير المذكور صراحةً، وتقدير الكلام: تلك الجماعة من الرسل⁽³⁾. ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ (الحجرات: 14). فأسند الفعل المؤنث (قالت) إلى جماعة ذكور.

(1) فتح القدير، ج 4/383؛ القرطبي، ج 15/58.

(2) مغني اللبيب، ج 1/96.

(3) القرطبي، ج 3/261.

ومن التذكير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (آل عمران: 86)، كما يجوز أن يكون (البينات) بمعنى الدليل، فيكون تذكير الفعل (جاءهم) حملاً على معنى الدليل المذكر⁽¹⁾. وقد ورد الفعل (جاء) مذكراً مع (البينات) في أربعة مواضع في القرآن الكريم هي: (آل عمران: 86، 105؛ وطه: 72؛ وغافر: 66).

- التعليل الآخر: أنه لفظ مذكر لا يجوز تأنيثه، اللهم إلا إذا وقع معنى على العشيرة والقبيلة، فيغلب حينئذ في اللفظ حكم المعنى المضمّر تنبيهاً على هذا المعنى، و(القوم) في هذه الآية، كما يدل عليه السياق، يُراد به العشيرة أو القبيلة.

وبالعكس، فإن اللفظ المؤنث قد يُسند إليه المذكر لتغليب معنى التذكير فيه، وقد عُدَّ من ذلك قوله تعالى: ﴿كَأَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (المدثر: 54، 55)، حيث لم يقل: (فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهَا) بعود الضمير المؤنث على الاسم المؤنث (تذكرة)⁽²⁾. وقد يكون سبب تذكير الفعل هنا تضمين المصدر (تذكرة) معنى (الوعظ) أو أنه في معنى (الذكر والقرآن)، المذكر، فغلب فيه معنى هذا المذكر، وأُسند إليه الفعل بضمير المذكر.

77 - الإخبار عن الساعة المؤنث بـ(قريب)

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (الشورى: 17).

في هذا الموضع، وُصفت الساعة وأُخبر عنها بـ(قريب) مذكراً، ومعلوم أن الصفة أو الخبر المفرد يطابق المخبر عنه أو موصوفه في الجنس وذلك غير متحقق في ظاهر هذه الآية، فلم يقل: الساعة قريبة، فما تفسير ذلك؟

- قيل: لأن تأنيث الساعة غير حقيقي، وما ليس بحقيقي، فلا مانع أن يذكر.

(1) التبيان في إعراب القرآن، ج 1/ 145.

(2) القرطبي، 154/16.

- وذهب الكسائي (ت 189هـ) إلى أن (قريب) نعتٌ يستوي فيه المذكر والمؤنث والجمع.

- ويذهب الزجاج (أبو إسحاق، ت 311هـ) إلى أنه من قبيل حمل معنى اللفظة على معنى لفظة أخرى، وهي في هذا الموضع (الوقت)، وتقدير الكلام: لعلَّ الوقت قريب، أو لعلَّ (البعث) أو لعلَّ (مجيء) الساعة قريب. وباعتبار ذلك كان تذكير الخبر (قريب) بجعله صفةً لذلك المحمول عليه⁽¹⁾.

ومثل الرأي السابق قولهم إنَّ (ها) التَّائِثُ حذفت من كلمة (قريب) ذهاباً بالسَّاعة إلى لفظة (اليوم)، وهي مثل حذف الهاء في ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: 56)⁽²⁾. حيث وردت صيغة (قريب) وهي على صيغة (فعل) التي بمعنى (فاعل)، وهي صفة لمؤنث (رحمة ... قريب). وتقتضي القاعدة - في هذه الحالة - أن تطابق الصِّفة الموصوف في الجنس فيقال (رحمة ... قريبة)؛ إذ إنَّ صيغة (فعل) إذا كانت بمعنى (فاعل) لحقتها التاء في التَّائِث فيقال: (كريم، م: كريمة، وشريف، م: شريفة...). وجاءت الرَّحمة بالتَّائِث على الأصل في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: 156) مؤنثاً بالتاء والهاء. هذا، وقد اختلف العلماء في سبب تذكير صفة (رحمة) في آية الأعراف السابقة على أقوال⁽³⁾:

- ذهب بعضهم إلى أن المؤنث يؤوّل بمذكر موافقٍ له في المعنى، ومن الأسماء المذكّرة التي يمكن تأويل المؤنث بها في هذا الموضع: إحسانُ الله، عفو الله، غفران الله، فكأنه قال: إنَّ إحسان الله قريب. وعليه يكون التذكير راجعاً إلى المعنى دون اللفظ، إذ الرَّحمة في معنى الغفران، والعفو والإنعام.

(1) البغوي، ج 4 / 123.

(2) القرطبي، 14 / 248 (ينظر شرحاً مفصلاً لهذا الموضع في المصدر المذكور).

(3) راجع مثلاً: الأشباه والنظائر للسيوطي، ج 3 / 97.

- مثل الرأي السابق ما روي عن سعيد بن جبير أن الرَّحمة هنا أريد بها الثَّواب، فرجع النَّعت إلى المعنى دون اللَّفظ. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾ (الأعراف: 156). فأفرد الضمير في (منه) لأنَّه أراد الميراث والمال⁽¹⁾.

ويذهب الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ)، إلى أنَّ (القريب)، و(البعيد)، يستوي فيهما المذكر والمؤنث، والواحد والجماعة. أي أنَّه من باب تشبيه (فَعِيل) الذي بمعنى فاعِل، بفعيل بمعنى (مفعول) الذي يستوي فيه المذكر والمؤنث، نحو: جريح، قتل. وعُدَّ من نظائر ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُخِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس: 78) بلزوم رميم صيغة الإفراد والتذكير. ومن ذلك قول جرير: [طويل]
دَعَوْتُ النَّوَى ثُمَّ ارْتَمَيْنَ قُلُوبَنَا بِأَعْيُنِ أَعْدَاءٍ وَهُنَّ صَدِيقُ⁽²⁾
والشَّاهد في هذا الموضع إفراد الشَّاعر للخبر (صديق)، وتذكيره له، وقد سبقه ضمير مؤنث للجمع. ومنه أيضاً قول الشَّاعر:
وَكُنَّا قَرِيبًا وَالْدِّيارُ بَعِيدَةً فَلَمَّا وَصَلْنَا نُصَبَ أَعْيُنُهُمْ غِبْنَا⁽³⁾
فأخبر عن جمع أناسٍ بالمفرد في قوله (قريباً).

- ويذهب الأخفش سعيد (ت215هـ) إلى أنَّ الرَّحمة أريدَ بها المَطَر،⁽⁴⁾ بالإضافة إلى أنَّ المؤنث قد يذكَّر جوازاً، خاصَّةً أنَّ الرَّحمة مؤنث غير حقيقي⁽⁵⁾. ومن أمثلة ذلك في الشُّعر قول عامر بن جوين: [متقارب]

(1) تفسير ابن كثير، ج2/223.

(2) ديوان جرير، ص372؛ والأشباه والنظائر، 5/233؛ ولسان العرب، 10/195 (صدق)؛ وينسب لذي الرمة في ملحق ديوانه، ص1893؛ والحماسة البصرية، 2/177؛ وبلا نسبة في تخليص الشواهد، ص184؛ والخصائص، 2/412؛ والقرطبي، ج13/109 ويروى:

نَضَبْنُ الْهَوَى ثُمَّ ارْتَمَيْنَ قُلُوبَنَا بِأَعْيُنِ أَعْدَاءٍ وَهُنَّ صَدِيقُ

(3) القرطبي، ج16/15.

(4) قيل يؤيد هذا المعنى الآية التالية للآية موضوع النقاش في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾. حيث عبَّر المولى عزَّ وجلَّ عن المطر بالرحمة.

(5) فتح القدير، 213، 214.

فَلَا مُزْنَةٌ وَدَقَّتْ وَدَقَّهَا وَلَا أَرْضٌ أَبْقَلَ إِنْقَالَهَا⁽¹⁾
والشاهد في هذا البيت تذكير الفعل المسند إلى الأرض بقوله (أَبْقَلَ)،
ومعلوم أن الأرض اسم مؤنث كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾
(الزلزلة: 1). بإسناد التاء إلى الأرض في (زُلْزِلَتِ وأُخْرِجَتْ) والهاء في
(زِلْزَالَهَا، وأَخْبَارَهَا).

- ويرى النضر بن شميل (ت204هـ) أن الرَّحمة مصدر بمعنى التَّرحُّم،
وحقُّ المصدر التَّذكير.

- أما أبو عمرو بن العلاء (ت154هـ)، فيذهب إلى أن القريب في اللغة له
معنيان: معنى القُرب المجازي، كعلاقة النسب، ومعنى القُرب
الحسِّي، أي: المسافة. فإذا كان بمعنى القرابة المجازية، فإنه يؤنث
إذا كان موصوفه مؤنثاً، فيقال: هذه امرأة قريبة مني، أو هذه قريبتي،
أي أنها من ذات قرابتي، وتتصل بي بنسب كأن تكون أختاً، أو عمّة،
أو بنت خالة أو نحو ذلك.

أما إذا كانت بمعنى القرابة الحسّية، وتعني المسافة المكانية بينك وبين
المرأة المشار إليها مثلاً، فإنّ التذكير والتأنيث جائز في هذا المقام، فتقول:
هذه المرأة قريبة مني، بمعنى أنها غير بعيدة الموضع عنك. كما تقول: دارك
عنا قريب، والدار اسم مؤنث⁽²⁾.

ومنه قول امرئ القيس: [طويل]

لَكَ الْوَيْلُ أَنْ أَمْسَى وَلَا أُمَّ هَاشِمٍ قَرِيبٌ وَلَا الْبَسْبَاسَةُ ابْنَةُ يَشْكُرَا⁽³⁾

(1) تخليص الشواهد، ص483؛ خزانة الأدب، ج1/45؛ الدرر، ج6/265؛ شرح
التصريح، ج1/278؛ شرح شواهد الإيضاح، ص339؛ شرح شواهد المغني،
ج2/943؛ كتاب سيبويه؛ ج2/46؛ المقاصد النحوية، ج2/464؛ أمالي ابن الحاجب،
ج1/352؛ أوضح المسالك، ج2/108؛ جواهر الأدب، ص113؛ الخصائص،
ج2/411؛ شرح الأشموني، ج1/174؛ الرد على النحاة، ص91؛ رصف المباني،
ص166؛ شرح أبيات سيبويه، ج1/557؛ شرح ابن عقيل، ص224؛ شرح المفصل،
ج5/94؛ مغني اللبيب، ج2/656؛ المقرب، ج1/303؛ همع الهوامع، ج2/171.

(2) البغوي، ج2/166، 167.

(3) فتح القدير، ج2/214.

فلزم قريب التذكير للدلالة على القرب الحسي، وقد جمع بين التأنيث والتذكير مع إرادة القرب المكاني في قول عروة بن حزام: [طويل]

عَشِيَّةَ لَا عَفْرَاءَ مِنْكَ قَرِيبَةً فَتَدْنُو، وَلَا عَفْرَاءَ مِنْكَ بَعِيدَةً⁽¹⁾
والشاهد (قريبة) الذي يقابل (بعيد) المذكور بعده.

- ذهب بعضهم إلى أن الرحمة هنا بمعنى (القرب والزيادة)، وأن الإخبار إنما هو في الحقيقة عن قرب المولى عز وجل من عباده، لا الرحمة في حد ذاتها، وتقدير الكلام: إن الله قريب من المحسنين، بحذف الرحمة.

78 - الإشارة إلى الفلك والأنعام بضمائر المفرد المذكر

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿ (الزخرف: 12، 13).

ذكر العلماء أقوالاً في بيان تذكير الضمير المشار به إلى الأنعام، ومن تلك الأقوال:

- أن سبب التذكير هنا كون الأنعام تذكراً وتؤنث، ومن مواضع تأنيثها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِئْتَكُمْ﴾ (المؤمنون: 21)، وذكر في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِئْتَكُمْ﴾ (النحل: 66).

- وقال بعض البصريين الهاء عائدة على (ما تركبون)، فيجوز أن يقال: عندي من النساء من يوافقك ويسرك. فالضمير يعود على لفظ (ما) الذي يجوز تذكيره وتأنيثه⁽²⁾.

أمّا إضافة الواحد إلى الجماعة في قوله (ظهوره)، فقد عللها العلماء بأقوالٍ منها:

(1) تهذيب اللغة، ج 2/245؛ الخصائص، ج 2/412؛ الدر المصون، ج 3/283.

(2) تفسير الرازي الكبير، ج 27/198.

- أن سبب ذلك كون (النعم) و (الأنعام) شيئاً واحداً في معنى الجمع، نحو: جُند وجيش. فيقال: رَفَعَ الجُندُ أَعْيَنَهُ، ولا يقال: (عَيْنَهُ). ولكن ذلك جائز، أي: الإفراد والجمع في أيّ اسم أُضِيفَ إليه اسم آخر في معنى فعل، نحو: رَفَعَ الجيشُ أو العسكرُ صَوْتَهُ، أو (أَصْوَاتَهُ).

وتطبق هذه القاعدة على الآية السابقة يفضي إلى وجوب الجمع ليس إلا. فلا يجوز في هذه الآية: لَتَسْتَوُوا على ظهره. لأن الاسم (ظُهر) ليس في معنى فعل.

- وقال آخرون إن الجملة من الجار والمجرور (على ظهوره)، وصف للفلك، وقد أُفْرِدَ، لأن الفلك على معنى جمع، فكان جمع (ظُهُور) مراعاةً لذلك، كما أنه جمع لأن أفعال كل واحد تأويله الجمع، ومن هذا الباب، يجوز: الجندُ منهزمٌ، أو (منهزمون).

أما إذا لم يكن بمعنى فعل، بل كان اسماً، فإنه يلزم حينئذ الجمع، فيقال: الجندُ رجال، وشجعان⁽¹⁾.

ونذهب إلى أن جمع الظهور والبطون في هذه الآيات، فيه لطيفة علمية ألا وهي أن البطن والظهر في المخلوقات يختلف ويتعدد من واحد إلى آخر، وذلك من طبيعة التركيبة الخلقية التي ركب الله عليها كل صنف من أصناف المخلوقات. وعلى ذلك، فإن جمع الظهر والبطن في هذا الموضع قد يكون تلميحاً إلى هذا التنوع الخلفي، وإشارة إلى أن الركوب يكون على أصناف كثيرة من الظهور، خاصة إذا اعتبرت المراكب التي صنعها الإنسان، فظهور الطائرات تختلف عن ظهور السفن، والسيارات الحديثة تختلف كذلك عن كلاً المركوبين الطائرات والسفن، وتختلف ظهور الدراجات عن غيرها من المركوبات، وهكذا.

وعلى ذلك، فإن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِذُوا نَفْسَكُمْ مِمَّا فِي

(1) الطبري، ج 25/54.

بُطُونَهَا ﴿المؤمنون: 21﴾، نرى فيه أيضاً أنَّ علة جمع (البطون)، أنه لم يذكر شراباً محدداً، وإنما هو مجموعة أشربة يستخلصها الإنسان من حوايا بطون أصناف كثيرة من الحيوانات، سواء في التغذية أو التداوي، أو التصنيع، وقد يكون المستخرج مستخلصاً من بطن الحيوان وجوفه، أو من باطنه، أو من أي عضو من أعضائه.

وفي آية أخرى ورد قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ (النحل: 69)، ففي هذه الآية، يتحدث المولى المنعم عن نوع وجنس معلوم، ألا وهو النحل والعسل، ولكن هذا الشراب الخارج من بطونها (مختلف ألوانه)، وعلى ذلك، جاء البطون جمعاً.

وهكذا، فإن جمع الظهر والبطن قد قام بهذه الدقة التعبيرية، والإيماء اللطيفة إلى هذا التعدد والاختلاف بين المخلوقات. هذا والله أعلم.

79 - الإشارة إلى الفتنة بضمير المذكر (هذا)

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (الذاريات: 12-14).

الإشكال في هذا الموضع أن اسم الإشارة (هذا) سبقه اسم مؤنث وهو (فتنتكم)، فهل يعود الضمير المذكر على اسم مؤنث ظاهر؟ وهل يسوغ اختلاف الضمير عن اسمه في الجنس؟ وفي توضيح ذلك قيل:

إنَّ علة الإشارة إلى المؤنث (فتنة) باسم الإشارة المذكر (هذا) أن الفتنة في هذا الموضع، ضمنت معنى العذاب؛ فأخذت إعرابه، وأشير إليها بالمذكر، فكأنه قال: ذوقوا عذابكم هذا⁽¹⁾. فالتذكير باعتبار حمل اللفظ معنى لفظ آخر وتضمن معناه معنى ذلك اللفظ المحمول عليه.

والتضمن كثير في اللغة، يقول ابن جني عن تلك الكثرة: «إن في اللغة

(1) القرطبي، ج 17/35.

من هذا الفن شيئاً كثيراً لا يُحاط به، ولعلّه لو جُمع أكثره لا جميعه، لجاء كتاباً ضخماً⁽¹⁾. ومن كثرته في اللغة، ذهب السيوطي إلى أنه «يُقاس عليه لكثرة ما يُسمع منه»⁽²⁾. ومن أمثلة التّضمين في القرآن الكريم، وتأثير ذلك في الفعل من حيث قوّته وتعديته قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيمَنَ﴾ (البقرة: 102)، فالفعل (تتلوا) لا يتعدّى بالحرف الجرّ (على) لكنّه حين ضُمّن معنى الفعل (تفتري)، تعدّى بالحرف الجر. ومعنى الآية: واتبعوا ما تفتري الشّياطينُ على مُلك سليمان.

80 - إسناد الفعل المذكَر إلى الشَّمْس والقمر

قال تعالى: ﴿يَسْتَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (٦) ﴿إِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ﴾ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (القيامة: 6-9).

تعدّدت آراء اللّغويّين والمفسّرين في تعليل سبب تذكير الفعل (جُمِع) المسند إليه الشَّمْس والقمر في هذه الآية(*) على جملة أقوالٍ منها:

- يرى الكسائي، (أبو الحسن علي بن حمزة، ت 189هـ)، أنّه من باب الحمل على المعنى، كأنّه قال: وَجُمِع الضّوءان؛ فحمل الشَّمْس والقمر على الضّوء المذكَر.

(1) الخصائص، ج 2/ 309.

(2) همع الهوامع، ج 2/ 130.

(*) ذكر بعض النحويّين أن الواو العاطفة لمفردٍ على مفردٍ آخر على قسمين: جامعة مشركة، وجامعة غير مشركة، فالأوّل ما يشرك بين المفردتين في إسناد الفعل إليهما، نحو: قام زيدٌ و (قام) عمرو. أما الواو غير المشركة فتقع في فعلٍ لا يكون إلا للاثنتين، مما لا ينفرد أحدهما عن الآخر في القيام بالفعل فيه، نحو: اختصم زيدٌ وعمرو، ولا يجوز ههنا قولك: *اختصم زيدٌ واختصم عمرو. والواو في قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (القيامة: 9)، واو جامعة، وليست واواً جامعة مشركة، ولأجل ذلك جاز تغليب المذكَر على المؤنث، ودلالة كون الواو جامعةً مستفادةً من الفعل (جُمِع)، ولو لم تكن الواو جامعةً لقُبِح تغليب المذكَر، نحو: طلع الشَّمْس والقمر، لأنّ الواو فيه جامعة مشركة، وأصل الكلام: طلعت الشَّمْس و (طلع) القمر. (الفصول المفيدة في الواو المزیدة، ج 1/ 62).

- ويذهب الفراء (أبو زكرياء، ت 207هـ) إلى أن المعنى في الآية الكريمة: جُمع بين الشمس والقمر. وفي هذه الحالة لا إشكال في تذكير الفعل وفي معنى الآية.

- أما أبو عبيدة (معمر بن المثنى، ت 209هـ) فيرى أن علة التذكير هنا تغليب المذكر على المؤنث. فحين اجتمع المذكر والمؤنث، غلب الذكر على الأنثى وأسند إليه الفعل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَّرَبَّاهُنَّ تَعْلَمُوهُنَّ﴾ (الفتح: 25). فلم يطابق الضمير أقرب اسم إليه بل طابق الاسم الأول وذلك على سبيل غلبة الذكور على الإناث.

- وأقرب إلى هذا الرأي قول المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد، ت 285هـ) إنَّ الشمس مؤنث مجازيٌّ، وما ليس تأنيثه حقيقياً من المؤنثات، فجاء في التذكير،⁽¹⁾ وهو كثير في التنزيل الحكيم، وعُدَّ منه قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النمل: 51). بتذكير الفعل النَّاسَخ (كان)، المسند إلى (عاقبة) المؤنث. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال: 35)⁽²⁾.

- ويمكن أن يُنظر في هذه الآية من زاوية التقديم والتأخير، فكان الجائز أن يقدم القمر ويسند إليه الفعل دون أي إشكال في الإسناد والجنس. غير أن تقديم الشمس وإسناد الفعل إليه أولاً قد دعا إلى تمعن النظر في هذه الآية.

ولعل المفتاح الأول في علة تقديم الشمس على القمر نجده لدى المفسرين إذ قالوا إنه قد جُمع بينهما في ذهاب ضوئهما، فلا يبقى للشمس ضوء كما لا يبقى للقمر ضوء.

(1) القرطبي، ج 19/ 96.

(2) شرح شذور الذهب، ج 1/ 224.

وبما أنَّ الجامع المشترك بين الاثنين الضَّوء وذهابه، فمن الإمكان الاعتماد على ذلك للقول إنَّ من أسرار تقديم الشَّمس على القمر أهمَّيتها، لأنَّ الشَّمس مصدر الضَّوء، ومركز الكواكب السَّيارة في المجموعة الشَّمسيَّة التي فيها القمر. وبذهاب الشَّمس، لا يبقى للقمر ضوء؛ إذ هو يستمدُّ ضوئه من الشَّمس عبر انعكاس الأشعَّة على بحار الأرض. وهكذا، كان الأوَّلَى تقديم الشَّمس على القمر. بالإضافة إلى ذلك فإنَّ نظام الفواصل قد استوجب تقديم الشَّمس. والله أعلم.

الفصل الخامس

الظواهر اللغوية المؤثرة في المطابقة

بعد عرض هذه المجموعة من الآيات القرآنية الكريمة التي وردت فيها مفردات وتراكيب داعية إلى إمعان النظر في أشكالها ومعانيها من حيث الانسجام، يحسن بنا الوقوف عند بعض الظواهر اللغوية المستخلصة من تلك الآيات مما دعى إلى ترك المطابقة الظاهرة المعهودة بين الوحدات الكلامية، وكان اتباعها هو المطابقة ذاتها في تلك المواضع من الآيات القرآنية التي أوردناها مع إيراد أقوال العلماء والمفسرين فيها.

تتلخص تلك الظواهر في جملة من الأبواب والمفاهيم اللغوية والنحوية، كالمجاورة، والتغليب، وخطاب المفرد بما يخاطب به الجمع، وغير العاقل بخطاب العاقل، والحمل على اللفظ أو المعنى، والحقيقية والمجازية في جنس المفردات، ومراعاة الانسجام بين فواصل الآي، وغيرها من الاعتبارات اللغوية الكثيرة.

وهنا وقوف عند بعض تلك الظواهر المشار إليها.

المبحث الأول: المجاورة

يمثل قانون المجاورة قاعدةً طبيعيةً في اللغة، فالكلام المؤلف مجموعةً من الألفاظ المترابطة، يأخذ كلُّ لفظةٍ منها بعضد الأخرى، وتأتلف معها. كما أنَّ كل لفظة لا بدَّ لها أن تنطوي في نفسها على انسجام داخليٍّ بين أصواتها وحروفها، وهذا النظام ما أشار إليه البلاغيُّون بفصاحة الكلمة وفصاحة الجملة اللازمة التوفُّر في كلِّ كلامٍ فصيح.

وهكذا، فإنَّ لقانون المجاورة أثراً في جميع الأبواب النحويَّة انطلاقاً من المسائل الصَّوتيَّة إلى المسائل التَّركيبية مما يؤثر بدوره في كثيرٍ من الأنظمة والقواعد النحويَّة العامَّة المستنبطة. يقول أبو البقاء العكبري: «المجاورة توجب كثيراً من أحكام الأوَّل للثاني، والثاني للأوَّل. ألا ترى إلى قولهم: الشَّمس طلعت، أنه لا يجوز فيه حذف التاء لما جاور الضَّمير الفعل؟ وكذلك: قامت هند، لا يجوز فيه حذف التاء، فلو فصلت بينهما جاز حذفهما، وما كان هذا إلا لأجل المجاورة»⁽¹⁾.

أ - المجاورة في المستوى الصَّوتي (الحركات)

برز قانون المجاورة أكثر ما برز في مستوى الحركات لدى البحث في باب الخفض، فمن أنواع المجاورات الثلاثة ما أطلق عليه النحويون مسمًى (المجورور للمجاورة)، ويقع ذلك في بابي النعت والتأكيد، وضابطه أن يكون للنَّعت إعرابٌ غير الجرِّ لكنه -لمجاورته اسماً مجروراً- يكتسب الجرَّ من ذلك الاسم المجاور له، ويفقد إعرابه الأصليَّ؛ فيقال حينئذٍ إنه مجرورٌ بالمجاورة، وفي باب النعت المثال المشهور: هذا جُحْرُ ضُبٍّ خربٍ، بخفض (خرب)

(1) السيوطي، الأشباه والنظائر، ج 1/ 189، 190.

وكان حَقُّه الرَّفْعُ لَأَنَّهُ صِفَةٌ لِلْمَرْفُوعِ (جُحِر) الخبر (*) . ومعلومٌ أَنَّ الصِّفَةَ تَابِعٌ لِمَوْصُوفِهِ فِي الْإِعْرَابِ⁽¹⁾ . وَيُعْرَبُ (خَرِب) عَلَى أَنَّ فِيهِ ضِمَّةً مَقْدَّرَةً مَنَعَ مِنْ ظَهُورِهَا اشْتِغَالُ آخِرِهِ بِحَرَكَةِ الْمَجَاوِرَةِ الْجَرِّ.

وَعَدُّوا مِنْ الْخَفْضِ بِالْجَوَارِ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

أَطُوفُ بِهَا لَا أَرَى غَيْرَهَا كَمَا طَافَ بِالْبَيْعَةِ الرَّاهِبُ
والشاهد جرُّ (الراهب) لمجاورته الاسم المجرور، وكان حَقُّه الرَّفْعُ لَأَنَّهُ فاعِلُ الْفِعْلِ (طاف).

وتقول: مررتُ بِرَجُلٍ عَجُوزٍ أُمُّهُ، ومرت بِرَجُلٍ طَالِقٍ امْرَأَتُهُ، فتخفض (عجوز) و (طالق)، عَلَى الرِّغْمِ مِنْ أَنَّهُمَا لَيْسَا نَعْتًا لِلرَّجُلِ، بَلْ حَقُّهُمَا الرَّفْعُ إِلَّا أَنَّ الْخَفْضَ عَارِضَةٌ عَلَيْهِمَا لِلْمَجَاوِرَةِ⁽²⁾.

ومنه فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (الواقعة: 17، 18)، وَبَعْدَ ثَلَاثِ آيَاتٍ قَالَ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكْنُونِ (الواقعة: 22، 23). حَيْثُ قُرِئَ (حُورٍ عِينٍ) بِالْخَفْضِ، وَلَيْسَ هُوَ فِي الْأَصْلِ مَجْرُورًا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَى (أَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ)، فَلَوْ كَانَ مَعْطُوفًا عَلَيْهَا؛ لاسْتَحَالَ الْمَعْنَى وَأَصْبَحَ: أَنَّ الْوِلْدَانَ يَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ بِالْأَكْوَابِ وَبِالْحُورِ الْعِينِ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْعُطْفَ عَلَى (وِلْدَانَ مُخَلَّدُونَ) الْمَرْفُوعِ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ الْوِلْدَانَ يَطُوفُونَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَنَّ الْحُورَ الْعِينِ يَطْفَنَ عَلَيْهِمْ أَيْضًا. وَبِهَذَا كَانَ يَتَعَيَّنُ أَنَّ يَرْفَعُ (حُورٍ) لِأَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَرْفُوعٍ⁽³⁾. غَيْرَ أَنَّهُ خَفِضَ فِي الْقِرَاءَةِ الْمَذْكُورَةِ لِلْمَجَاوِرَةِ.

وَعَدُّوا مِنْهُ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

(*) لَيْسَ الْقَوْلُ بِالْخَفْضِ بِالْجَوَارِ مَجْمَعًا عَلَيْهِ لَدَى النُّحَوِيِّينَ، فَقَدْ أَنْكَرَهُ السِّيْرَافِيُّ وَابْنُ جَنِيٍّ، وَتَأَوَّلَا هَذِهِ الْجُمْلَةَ عَلَى أَنَّ (خَرِبَ) صِفَةٌ لـ (ضَبَّ) وَلَيْسَ صِفَةً لـ (جُحِرَ). وَزَادَ ابْنُ جَنِيٍّ أَنَّ الْأَصْلَ: هَذَا جَحْرُ ضَبِّ خَرِبٍ جُحِرُهُ، ثُمَّ حُذِفَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ لِأَمْنِ اللَّبْسِ. (مَغْنِي اللَّيْبِ، ج 1/ 896).

(1) شَذُورُ الذَّهَبِ، ج 1/ 428.

(2) الْجَمَلُ فِي النُّحُو، ج 1/ 194.

(3) مَغْنِي اللَّيْبِ، ج 1/ 895.

(الذاريات: 58) وقوله ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (البروج: 15)، حيث قرئ (المتين والمجيد) بالجرّ وهما صفتان حقّهما الرّفْع اتّباعاً للموصوف في إعرابه⁽¹⁾. ومنه أيضاً قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (البينة: 1). حيث جاء قوله (والمشركين) بالجرّ على الجوار، وكان حقّه الرّفْع؛ لأنّه معطوفٌ على (الذين كفروا) اسم (يكن)، ومعلومٌ أنّ اسم كان مرفوع، نحو: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: 96)⁽²⁾.

ومن اللّطائف القرآنية ذات العلاقة بمفهوم الخفض على الجوار تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة: 6) بالقول إنّ (أرجلكم) معطوفٌ على أيديكم، لا على رؤوسكم؛ إذ أنّ الأرجل مغسولة وليست ممسوحة مثل الرُّؤوس، وكان يتعيّن في تلك الحالة أن يكون (أرجلكم) منصوباً لأنّه معطوف على منصوب، غير أن القائلين بهذا الرّأي ذهبوا إلى أنّه مجرورٌ لمجاورته (لرؤوسكم) المجرور. والسّرّ في الجرّ هنا - في رأيهم - التّنبيه على وجوب الاقتصاد في صبّ الماء على الأرجل، وعدم الإسراف في الغسل طالما أنّه معطوفٌ على عضوٍ ممسوح⁽³⁾.

ب - الخفض بالجوار في باب التّوكيد

أما في باب التّوكيد فقد عدّوا من الخفض بالجوار قول أبي الغريب النصري [بسيط]:

يا صاحِ بَلِّغْ ذَوِي الزَّوْجَاتِ كُلَّهُمْ أنْ لَيْسَ وَصَلٌ إِذَا انْحَلَّتْ عُرَى الذَّنْبِ
والشاهد أن الشاعر جرّ (كلّهم) لمجاورته (الزّوجات)، وكان حقّه النصب لأنّه توكيدٌ للاسم المنصوب (ذوي) وناصبه الفعل (بَلِّغْ)⁽⁴⁾.

(1) الجمل في النحو، ج 1/ 195.

(2) الإنصاف في مسائل الخلاف، ج 2/ 602.

(3) مغني اللبيب، ج 1/ 895، 986.

(4) الأشباه والنظائر، ج 2/ 11؛ خزانة الأدب، ج 5/ 90؛ الدرر، ج 5/ 60؛ شرح شواهد المغني، ج 2/ 962؛ شرح شذور الذهب، ص 428؛ مغني اللبيب، ص 683.

ج - الخفض بالجوار في باب الشرط وجوابه

المقرّر في باب الشرط والجواب أنّ فعل الشرط وجوابه مجزومان، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ (يس: 43) بجزم الفعل (نشأ) وجوابه (نغرقهم) لكن الخلاف بين الكوفيّين والبصريّين في عامل الجزم، حيث ذهب أكثر البصريّين إلى أنّ أداة الشرط هي العامل فيهما، أو أنّ الأداة عاملٌ في فعل الشرط، وأن فعل الشرط عاملٌ في جوابه. أما الكوفيّون فقد ذهبوا إلى أنّ فعل الشرط مجزومٌ بالأداة، وأنّ جواب الشرط مجزوم على الجوار، أي مجزوم لمجاورته فعل الشرط وملازمته إيّاه⁽¹⁾. وهكذا نرى أن لقانون المجاورة أثراً واضحاً في هذا الباب.

د - المجاورة في الصيغ الصرفية

لقانون المجاورة أثرٌ بارزٌ في الصيغ الصرفية حين تجاور الصيغ فيعدل عن صيغةٍ لأخرى تحقيقاً للانسجام، والجمال الصوري أو المعنوي بين تلك الصيغ. ومن ذلك قولهم: هنأني ومرأني، والأصل (أمرأني) على وزن أفعل، إلا أنّه عدل عن تلك الصيغة مناسبةً للصيغة السابقة عليها⁽²⁾. ومنها قوله ﷺ: «ارجعن مأزوراتٍ لا مأجورات»⁽³⁾، والقياس: موزوراتٍ لكنه عدل عن تلك الصيغة إلى (مأزورات) طلباً للتناسب مع الكلمة اللاحقة. وهذه الظاهرة كثيرة الورود في العربية.

ويوضح أبو البقاء العكبري هذا المفهوم بقوله: «قد أجرت العرب كثيراً من أحكام المجاور على المجاور له حتى في أشياء يخالف فيها الثاني الأوّل في المعنى، كقولهم: جحر ضبّ خرب، وقولهم: إني لآتيه بالغدايا والعشايا. والغداة لا تجمع على غدايا، ولكن جاز من أجل العشايا. وهو كثير»⁽⁴⁾.

(1) الإنصاف في مسائل الخلاف، ج 2/ 602.

(2) مغني اللبيب، ج 1/ 896.

(3) صحيح مسلم، (ح: 17)، وسنن أبن ماجه، (ح: 1578)، وإسناده ضعيف.

(4) الأشباه والنظائر، ج 1/ 189، 190.

ومن الأمثلة في العدول عن صيغة صرفية إلى أخرى تحقيقاً لجمال تعبيرى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ (يوسف: 43)، فقال (بقرات.. سنبلات) بدل (سبع سنابل) إذ الأعداد من ثلاثة إلى تسعة حُقُّها أن يضاف إليها جمع تكسير للكثرة. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ (البقرة: 261)، وقد يُعدل عن ذلك فيضاف الجمع الصحيح إلى تلك الأعداد تمييزاً لها، إذا جاور جمع التَّكْسِيرِ الجمعَ الصَّحِيحَ في الكلام أو ما أهمل تكسيره، كما في الآية السابقة؛ إذ لم يقل (أبقار)⁽¹⁾.

هـ - المجاورة المعنوية

تقع المجاورة أيضاً في المستوى المعنوي للمفردات، ويكون ذلك حين تقع لفظة بجوار لفظة أخرى؛ فتكتسب منها معناها، وذلك ما يطلق عليه النحويون أحياناً مفهوم «إشراب لفظ معنى لفظ آخر»، ومن شواهدهم قول الشاعر:

عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا حَتَّى غَدَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا⁽²⁾
والشَّاهد اكتساب الماء معنى العلف، والأصل: علفتها تبنًا، وسقيتها ماءً.

ومن المجاورة المعنوية قولهم: مشرب عذب، ومركب فارِه، ونهر جار، إذ نسبت العذوبة والفراهة والجريان إلى الموضع في كلِّ مما مضى على سبيل المجاورة، فالنهر مثلاً لا يجري، وإنما يجري الماء فيه. وعُدَّ من المجاورة المعنوية قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ (البقرة: 126)، بنسبة الأمن إلى البلد والحرم لكونه فيهما.

(1) شرح التصريح، ج 2/ 272.

(2) الإنصاف في مسائل الخلاف، ج 2/ 313؛ أوضح المسالك، ج 2/ 249؛ شرح شذور الذهب، ج 1/ 314؛ مغني اللبيب، ج 1/ 828.

المبحث الثاني: التَّغْلِيْب

التَّغْلِيْب أن يجتمع شيئان فيجري حكم أحدهما على الآخر وذلك لتناسب بينهما أو اختلاط⁽¹⁾. فمن التَّغْلِيْب في الأصوات حذف الواو إذا وقعت بين ياءٍ مفتوحة وكسرةٍ، نحو: وَعَدَ: يَعِدُ (أصله: يَوْعِدُ)، وَزَنَ: يَزِنُ (أصله: يَوْزَنُ). فالواو من جنس الضمَّة، والياء من جنس الكسرة، ووقوع الواو بين شيئين يخالفانه مستثقل، فكان حقُّه الحذف، لأنَّ الغلبة للأكثر المتجانس على الأقلِّ المتنافر.

ومفهوم التَّغْلِيْب معروفٌ أيضاً في باب التَّثْنِيَةِ، في مفهوم المثنيات المحفوظة، من ذلك إطلاق (العَمَرَيْنِ) على الخليفة أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)، حيث غلبَ عمر ودخل أبو بكر معه في التَّثْنِيَةِ، و (المَرَوَتَيْنِ) للصفاء والمروءة⁽²⁾. وقد لا يشتقُّ لفظ المثنى من أحد الاسمين وإنما من صفة بارزة في أحدهما أو كليهما، نحو: (الجديدين) لليل والنَّهار، و (القرينتين) لسورة الأنفال والتوبة، لأنه لم يفصل بينهما بـ(بسم الله). ونحو: (الأسودين) للحية والعقرب، لظهور صفة السَّواد فيهما. و (القرينتين) لمكة والطائف، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: 31)⁽³⁾. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ (يوسف: 100) حيث يشمل الأبوان الوالد والوالدة. ومنه في الشعر قول المتنبي:

واستقبلت قمر السَّمَاءِ بوجهها فأرثني القَمَرَيْنِ في وقتٍ مَعَا
حيث يُطلق القمران في العُرف على الشمس والقمر، فشبه الشاعر الوجه بالشمس والقمر.

(1) مغني اللبيب، ج 1/ 866.

(2) مغني اللبيب، ج 1/ 900.

(3) يراجع: الأمين، شريف يحيى. معجم الألفاظ المثناة، (بيروت: دار العلم للملايين، ط 1، 1982)، ص 441.

ومن التغليب إطلاق (مَنْ) المخصوص للعاقل على غير العاقل بسبب اختلاطهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ (النور: 45)، حيث أشار إلى الدواب غير العقلاء بما يشار به إلى البشر، أي ضمير (مَنْ)⁽¹⁾.

وفي باب الأعلام ما يُعرف بالغلبة في الألف واللام على الأعلام كالألف واللام في (المدينة والكتاب)؛ إذ يصدق على كل مدينة وكل كتاب لكن غلبت على مدينة الرسول ﷺ، وعلى كتاب سيبويه حتى إذا ما أطلق أحد هذين اللفظين انصرف الذهن إلى المدينة المنورة أو إلى كتاب سيبويه.

ومنه زيادة التاء في الفعل المضارع في خطاب المذكر والمؤنث، فيقال: أنتما تقومان (لزيد وعمرو)، كما يقال: أنتما تقومان (لزيد وفاطمة) تغليباً للمذكر⁽²⁾.

أ - التغليب في العدد

ويغلب مَنْ يعقل على ما لا يعقل في ألفاظ العقود من (العشرين) إلى (التسعين). فتقع ألفاظ العقود على مَنْ يعقل ومن لا يعقل؛ فيقال: عشرون رجلاً وعشرون نعجة⁽³⁾.

ومن التغليب جواز حذف التاء من قولنا: ما قامت إلا هند؛ لأن الفاعل جنس، والجنس مذكر، والأولى حذف التاء من فعله، والتقدير: ما قام أحد إلا هند⁽⁴⁾. وكذلك قولهم: نعم المرأة هند، بحذف التاء من (نعم)، مراداً به الجنس⁽⁵⁾. فحسُن فيه حذف التاء مراعاة لهذا المعنى.

ولقانون الغلبة أهمية كبيرة في إبراز المعنى، فيغلبون المعنى على اللفظ

(1) مغني اللبيب، ج 1/ 901.

(2) اللباب في علل البناء، ج 2/ 268.

(3) اللباب في علل البناء، ج 1/ 113.

(4) المرجع السابق، ص 187.

(5) كتاب اللمع في العربية، ج 1/ 141.

في مواضع؛ ذلك لشرافة المعنى على اللفظ، ومن مراعاة ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ (الرعد: 31)، فإن ترك التاء من الفعل (كَلَّمَ) وإثباتها في الفعلين السابقين، إشارة إلى أن (الموتى) يشمل هنا المذكر الحقيقي من الأحياء.

ومن تغليب المعنى قول عبد الله الحرفي [طويل]:

متى تأتينا تلمم بنا في ديارنا تجذ حطباً جزلاً وناراً تأججاً
والأصل أن يقول (تأججت) لأن النار اسم مؤنث، غير أنه أراد (وقوداً
أو لهباً) بتغليب المذكر على المؤنث⁽¹⁾.

ويراعى في التغليب عادة مفهوم الأصلية والفرعية، فيغلب الأصل على الفرع، والأقوى على الأضعف، والأثقل على الأخف، والمذكر على المؤنث، والمفرد على الجمع، والكثير على القليل... فمن تغليب المذكر على المؤنث قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ (إبراهيم: 33)، بتغليب القمر المذكر.

ومن ذلك مسألة (حبذا) الموضوع للمدح، فقد اختلف فيه النحويون: هل المغلب فيه الاسمية أو الفعلية؟ ذلك لأنه مركب من (حب) و (ذا)، أي من (فعل ماضٍ + اسم إشارة) ويلزم صيغة واحدة في المفرد والمثنى والجمع. قال بعض النحويين إنَّ المغلب فيه الاسمية وهو الأقوى، وذهب آخرون إلى أن المغلب فيه الفعلية لأنه الجزء الأول، والغلبة للأول⁽²⁾. وأيُّما الرأيين ذهبنا إليه فإنَّ مسألة الأصلية والفرعية أو القوة والضعف تبقى الأساس الذي يستند إليه في هذه المسألة.

(1) الجمل في النحو، ج 1/ 218.

(2) أسرار البلاغة، ج 1/ 113؛ أوضح المسالك، ج 3/ 284.

المبحث الثالث: العاقل وغير العاقل

يظهر مفهوم العقلية في بعض الصيغ؛ حيث يخص أهل اللغة بعض الفصائل النحوية للتعبير عن العقلاء، وأخرى لغير العقلاء الكلمة الواحدة. ففي جمع (أم) مثلاً في العربية، خص لفظ (أمّات) لجماعة العقلاء، وخص لفظ (أمّات) غالباً، بدون هاء لجماعة غير العقلاء، وذلك للتفريق بينهما.

يقول الراعي النميري [كامل]:

كانت نجائب منذرٍ ومحرق أمّاتهنّ وطرقهنّ فحيلة
فجاء بلفظ (أمّاتهن) للإشارة إلى الإبل⁽¹⁾. وربّما لم يفرّقوا كما في قول جرير:

لقد ولد الأخيطل أمّ سوء مقلّدة من الأمّات عاراً
حيث جاء بجمع (أم) على (أمّات) بغير هاء، وهو في ذكر أم الأخطل⁽²⁾. ولعلّ إيراد الجمع على هذا النحو متعمّد للمبالغة في هجاء الأخيطل، وإلحاق أمّه بالعجاوات.

ويشار -مثلاً- إلى جماعة العقلاء بـ(أولي/ أولئك) مذكراً أو مؤنثاً.. ولا يُشار بها إلى غير العقلاء إلّا قليلاً كما في قول جرير:

دُمّ المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام
فأشار إلى الأيام بـ(أولئك) بدلاً عن (تلك)⁽³⁾.

بل يفرّقون أحياناً بين غير العقلاء أنفسهم في مواطن محدّدة، فيقال مثلاً في جمع ثور (ذكر البقرة): ثيرة على الشذوذ، وذلك فرقاً بينه وبين جمع ثور

(1) سر صناعة الإعراب، ج 2/ 565.

(2) أوضح المسالك، ج 2/ 112؛ سر صناعة الإعراب، ج 2/ 565.

(3) شرح ابن عقيل، ج 1/ 144.

(من الأقط)، فيقولون: ثَوْرَةٌ على القياس حيث إن الياء والواو تحرکتا؛ فلم تقلبا للحركتين قبلهما بل قُوِيَتَا بالحركة، نحو: غَيُورٌ = غَيْرٌ⁽¹⁾.

ويأتي الفعل المسند إلى جمع غير العقلاء، أو الصِّفَةُ المضافة إليه بضمير التَّائِيث للمفرد، فرقاً بينه وبين الجمع المؤنَّث السَّالِم الذي خَصُّوه لجماعة العقلاء الإناث. فيقولون: الأيام قادمة، والأيام ولَّت. كما يقولون: البنت قادمة، والبنت ولَّت، ويختصُّ الواو والنون بجمع العقلاء.

وقد يُعَدَّل عن تلك الأعراف اللغوية من أجل بعض المقاصد البلاغية فيُنْزَل غير العاقل منزلة العاقل، ويُسند إليه ما يُسند إلى العقلاء من فصائل نحوية تحقِّق هدف تلك المقاصد البلاغية المراد تحقيقها في الخطاب.

من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ﴾ (النمل: 18). بإسناد واو الجماعة، وكاف الخطاب المجموع (كُم) إلى النَّمْل؛ لأنها أُمِرَتْ وَخُوطِبَتْ بما يخاطب به العقلاء، فاكْتَسَبَتْ - بذلك - جنس العقلاء. وشدَّ من ذلك قول النابغة الجعدي: [طويل]

شَرِبْتُ بِهَا وَالذِّيكُ يَدْعُو صَبَاحَهُ إِذَا مَا بَنُو نَعَشٍ دَانُوا فَتَصَوَّبُوا⁽²⁾
والشاهد قوله (دَانُوا فَتَصَوَّبُوا) بضمير واو الجماعة في الفعل المسند إلى غير العقلاء. وقيل شَجَّعَهُ على ذلك قوله (بنو نعش) بدلاً عن (بنات)، ولما أَشْبَهَ بَنُو جَمْع التَّكْسِير؛ سَهَّلَ مجيء الضَّمير المشار إليه بالواو. كما يجوز اعتباره جمعاً مؤنَّثاً كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾، (يونس: 90)⁽³⁾.

ومن المعاني البلاغية اللَّطِيفَةُ أيضاً في إنزال غير العاقل منزلة العاقل ما أشار إليه المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ

(1) سر صناعة الإعراب، ج 2/ 587.

(2) الحماسة البصرية، ج 2/ 74؛ خزانة الأدب، ج 8/ 78، 79؛ شرح أبيات سيبويه، ج 1/ 476؛ شرح شواهد المغني، ص 872؛ الصاحبى في فقه اللغة، ص 250؛ لسان العرب، ج 6/ 355 (نعش)؛ مغني اللبيب، ص 365؛ المقتضب، ج 2/ 226.

(3) مغني اللبيب، ج 1/ 478.

إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْتَغِيَ فَاهُ ﴿ (الرعد: 14)، حيث فسّرت الآية على معنى: أن المشركين الذين يدعون الأصنام من دون الله لا تستجيب لهم الأصنام بشيء إلا كباسط كفّيه إلى الماء، وبين المفسّرون أن علة الإشارة إلى الأصنام بضمير جماعة الذكور (يستجيبون) كانت مراعاةً لاعتقاد الكفار فيها؛ حيث يرونها عاقلة قادرة على النفع والضرر⁽¹⁾.

ومن معاملة غير العاقل معاملة العاقل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَأْتِبَتْ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: 4). ففي هذه السورة جمع ما لا يعقل من الكواكب والشمس والقمر، جمع عاقل (ساجدين) ولم يجمع جمع غير عاقل (ساجدات)، وقد علّل المفسرون ذلك بأن المولى عزّ وجلّ، لما أسند إلى غير العقلاء فعل العقلاء، ناسب أن يجمع غير العقلاء جمع مَنْ يعقل⁽²⁾. وفي ذلك يقول الزّمخشري: «فإن قلت: فلم أجريت مجرى العقلاء في (رأيتهم لي ساجدين)؛ قلت: لأنه لما وصفها بما هو خاصّ بالعقلاء وهو السجود، أجرى عليها حكمهم، كأنها عاقلة، وهذا شائع في كلامهم، أن يلبس الشيء الشيء من بعض الوجوه، فيعطى حكماً من أحكامه؛ إظهاراً لأثر الملازمة والمقاربة»⁽³⁾.

إجمالاً، فإن للعقلية وعدمها أثراً واضحاً في اختيار الفصائل النحويّة المحقّقة للانسجام والبيان والفصاحة في الكلام، هذا للتفريق بين ما هو عاقل وما ليس كذلك من الكائنات. وقد يُعدّل عن هذا الأصل إلى التسوية بين من يعقل وما لا يعقل بغية تحقيق مقاصد بيانيّة معيّنة كما مرّ بيان ذلك في مواضعه المختلفة في القرآن الكريم، وكلام العرب.

(1) التبيان في إعراب القرآن، ج 2/ 63.

(2) القرطبي، ج 2/ 187.

(3) الكشف، ج 2/ 418، بتحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث، 1417هـ/ 1997م.

المبحث الرابع: حمل اللفظ على لفظ آخر

تضع اللُّغة للفصائل المعنويّة بعض العلامات تكون دالة على تلك الفصائل، كعلامة التاء للمؤنث، والألف والنون للمثنى، غير أن بعض المفردات تردّ بغير علامة، أو بعلامة لكنها علامة «خادعة»، لا تدلُّ على تلك الفصائل، كمجيء التاء في (حمزة) مراداً به اسم علم ذكر، ومجيء الألف والنون في (عثمان) مثلاً، مراداً به فرداً واحداً، ومجيء (زينب) بغير علامة تأنيث، إلى غير ذلك. ففي بعض تلك الفصائل يكون صاحب اللُّغة مخيراً بين الحمل على معنى تلك المفردات، فيعاملها معاملة الفصائل والألفاظ التي تشبهها في الشَّكل، أو يعاملها معاملة الألفاظ التي تنتمي إليها في المعنى، وذلك ما يُعرف بالحمل على اللفظ أو الحمل على المعنى.

أ - الحمل على اللفظ

الحمل على اللفظ ظاهرة شائعة في اللُّغة العربية، وله تأثيره في كثير من مسائل العربيّة وأبواب النُّحو، ومن مواضع الحمل على اللفظ كثيراً (كلا و كلتا) والحمل تارة على لفظ (كل)، وأخرى على معناه، لأنه مفرد في اللفظ جمع في المعنى. ومثاله في التَّنزيل الحكيم قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (مريم: 93)، بإفراد (آتي) حملاً على لفظ (كُلُّ)⁽¹⁾.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ (الحجرات: 9)، حيث حُمل على معنى الطائفة في قوله (اقتتلوا)، ومقتضى الظاهر أن يقول (اقتتلتا)، ثم حمل على لفظ الطائفة فقال (بينهما) وكان يجوز قوله (بينهم) مراعاةً لمعنى الطائفة؛ لأن الطائفة في معنى (القوم والناس)⁽²⁾.

(1) الإنصاف في مسائل الخلاف، ج 2/ 448.

(2) الكشف، ج 3/ 563.

هكذا، تظهر لمتدبر آيات الذكر الحكيم ميزة في كثرة الحمل على اللفظ ألا وهي أن اللفظ هي الصورة الحسية للخطاب سواء مسموعة أو مكتوبة. أما المعنى فهي الصورة الذهنية التي ليس لها حضور ملموس في الواقع، وقد تتغير أو تدق على كثير من الناس.

بناءً على ذلك، فإن مراعاة تقديم الحمل على اللفظ في الأسلوب القرآني، على الحمل على المعنى يحقق صورة من الانسجام الخطي والحسي الملموس، روعي فيه البعد الجمالي الذي يحافظ على التوزيع المتناسق للشكل المكتوب والمسموع، والذي يحترز عن صدم السامع أو القارئ بالتنافر السمعي أو النظري لما ألفه سمعه وبصره من القواعد اللغوية في التطابق بين الوحدات الكلامية جرساً ورسمًا، ويكون ذلك وسيلة إلى هدف أسمى هو الجمال المعنوي، والإبانة والإفهام.

ب - الحمل على المعنى

إذا كان حمل اللفظة على معناها غير شائع في الأسلوب القرآني شيوع الحمل على لفظها، فإنه من الظواهر المهمة في اللغة وفي القرآن، وله وزنه في إيضاح كثير من المواضع والأساليب. ذلك أنه قد يختلف المحمول عن المحمول عليه في الجنس أو العدد؛ فيأخذ المحمول جنس المحمول عليه أو عدده.

وعقد ابن جني باباً في حمل الألفاظ معاني ألفاظ أخرى، وإعطاء اللفظ بعض خصائص المحمول عليه الإعرابية كالتعدية مثلاً، قال: «قد يشربون لفظاً معنى لفظ فيعطونه حكمه ويسمى ذلك تضميناً، وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدّى كلمتين». وهو شائع كثير في اللغة العربية، ذكر ذلك ابن جني وضرب له من الأمثلة الكثيرة، يقول: «إن في اللغة من هذا الفن شيئاً كثيراً لا يحاط به، ولعله لو جمع أكثره لا جميعه، لجاء كتاباً ضخماً»⁽¹⁾.

ومن الأمثلة التي نقلها ابن جني في تضمين بعض الكلمات معاني كلمات

(1) الخصائص، ج 2/309.

أخرى في التَّنْزِيلِ الحَكِيمِ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ (النساء: 2) أي: لا تَضْمُومُوها إليها آكلين إيَّاهَا؛ لأنَّ الفعل (أكل) لا يتعدَّى بحرف جر. ومن التَّضْمِينِ قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ (البقرة: 187) حيث ضَمَّنَ (الرَّفَثُ) معنى (الإفشاء) فعَدِّي بالحرف الجر (إلى)، وكان حقُّ الرَّفَثِ أَنْ يتعدَّى بالباء، وأصله: أرفث فلان بامرأته. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: 115) أي: فلن يحرموا ثوابه. فلما ضَمَّنَ (يكفروه) معنى (يُحرموه) عدِّي إلى اثنين لا إلى واحد. ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ (القلم: 32)، يقال: رَغِبَ فلانٌ في الأمر، ورَغِبَ عنه، وهو رَاغِبٌ فيه: محبٌّ له، ورَاغِبٌ عنه: معرضٌ عن الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: 130)، غير أن الاسم (راغب) في الآية السابقة، ضَمَّنَ معنى (راجع) فتعدَّى بـ(إلى) ومعنى الكلام: (إنا إلى ربنا راجعون راجون لعفوه).

ووردت كلمة (عاقبة) في مواضع من القرآن الكريم تارةً بالتَّأْنِيثِ وأخرى بالتَّذْكِيرِ، وقد عزا العلماء ذلك إلى الحمل على اللَّفْظِ أو المعنى، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَقَوِّمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ (الأنعام: 135)، بتأنيث الفعل، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (محمد: 10)، وغيرها من الآيات، فقل إن التَّأْنِيثَ باعتبار اللَّفْظِ والتَّذْكِيرَ باعتبار المعنى؛ لأنَّ العاقبة بمعنى: الجزاء والعقاب⁽¹⁾.

ومنها قوله تعالى: ﴿كَأَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ۖ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ﴾ (المدثر: 54، 55). قيل إن علَّةَ تذكير الفعل تضمين المصدر (تذكرة) معنى (الوعظ) أو معنى (الذكر والقرآن)، المذكَرُ، فغُلِبَ فيه معنى هذا المذكَرُ، وأُسْنِدَ إليه الفعل بضمير المذكَر. إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي تكتسب

(1) الكشاف، ج 1/71.

فيها كلمة معنى كلمة أخرى فتعامل معاملة تلك الكلمة وتعطى إعرابها⁽¹⁾.

وحكى الأصمعي (أبو سعيد، ت 215هـ)، عن أبي عمرو بن العلاء أنه سمع بعض العرب يقول في رجل: فلانٌ لغوب جاءته كتابي فاحتقرها. فقلت له: أتقول جاءته كتابي؟! فقال: نعم، أليس بصحيفة؟ فقلت له: ما اللغوب؟ فقال: الأحمق⁽²⁾.

وعدّ من الحمل على المعنى قول الشاعر:

أتهجرُ بيتاً بالحجازِ تَلَفَّعْتُ به الخوفُ والأعداءُ أم أنتَ زائرُهُ
والشاهد إسناده الفعل (تَلَفَّعْتُ) بضمير التَّأْنِيثِ إلى الفاعل (الخوف)، وقد سوَّغ ذلك أنه أراد معنى (المخافة)⁽³⁾.

ومن الحمل على المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾ (البقرة: 69)، حيث وصف اللون بضمير التَّأْنِيثِ في قوله (تسرُّ) وقيل إن علّة ذلك لأن اللون صفرة فحمل عليها، أو أن اللون أضيف إلى المؤنث؛ فاكسب منه التَّأْنِيثُ⁽⁴⁾.

وقيل إن سبب تأنيث كلمة (الفردوس) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون: 11) حملها على معنى (الجنة). ويذهب ابن جني إلى أن الفردوس مؤنث وليس محمولاً على معنى الجنة. أما قولهم في الدُّعاء: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى، فقد ردّ ابن جني بأنَّ (الأعلى) هنا على وزن (أفعل) التَّفْضِيل، لا يكون أبداً على (فُعْلَى)، فلا يقال: الفردوس العليا⁽⁵⁾.

وفي تعليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ

(1) مغني اللبيب، ج 1/ 897، 898.

(2) سر صناعة الإعراب، ج 1/ 112؛ الإنصاف في مسائل الخلاف، ج 2/ 762.

(3) سر صناعة الإعراب، ج 1/ 13.

(4) التبيان في إعراب القرآن، ج 1/ 42.

(5) الخصائص، ج 3/ 309.

أَلْبَيِّنْتُ ﴿آل عمران: 105﴾، قالوا إن من أسباب ترك التاء في الفعل (جاءهم) المسند إلى البيئات، أن البيئات ضُمَّت معنى (الدليل) فكأنه قال: بعد إذ جاءهم الدليل⁽¹⁾.

وهكذا، نرى مرة أخرى أثر الحمل على اللفظ أو المعنى واضحاً في تحديد الفصائل النحوية المحققة للتطابق بين أجزاء الكلام، وقد يحتم هذا القانون ترك التطابق بين وحدات الكلام فيبدو ظاهرياً أن في النسق البياني إخلالاً بالقواعد اللغوية، وهو بخلاف ذلك.

(1) التبيان في إعراب القرآن، ج 1 / 145.

المبحث الخامس: الجنس

يراد بالجنس جملة الشَّيء ومجموع أفرادهِ، ويُستعمل هذا الاصطلاح للدلالة على الشُّيوع والعموميَّة في النَّوع الواحد، كالإنسان مثلاً، فهو جنسٌ شائعٌ بين بني البشر، ولا يتخصَّص بفردٍ معيَّن من الناس. ويختلف مفهوم (الجنس) هنا عنه في باب التذكير والتأنيث كما سيأتي الحديث عنه عند (الحقيقيَّة والمجازيَّة) في جنس الأسماء. ومن علاماته أن تأتي (لا) النافية للجنس لنفي الخبر عن كلِّ أفرادهِ على سبيل الاستغراق والشُّمول، نحو: «لا رجل في الدَّار».

وينقسم اسم الجنس في النحو العربي إلى ثلاثة أقسام⁽¹⁾:

- 1 - اسم الجنس الجمعي: وهو ما دلَّ على ثلاثة فأكثر، فرَّق بينه وبين واحدِه بالياء، نحو: عرب (عربيّ) أو بالتاء، نحو: غنم (غَنمة). ولا يرد هذا النَّوع على أوزان الجموع القياسية.
 - 2 - اسم الجنس الأحادي: وهو الذي أريد به واحدٌ غير معيَّن، نحو: أسد، بقر، كلب.
 - 3 - اسم الجنس الإفرادي: وهو ما صدق على القليل والكثير، ولم يفرِّق بينه وبين واحدِه بالياء أو بالتاء، نحو: تُراب، عسل، ذهب. فاسم الجنس الإفرادي، وهو الذي لا يفرِّق بين القليل والكثير منه بعلامة معيَّنة، له علاقة مباشرة بقضيَّة التَّطابق في اللُّغة، سواء في الجنس أو العدد، مما قد يُشكل على بعض الناس في معرفة طبيعة تلك الكلمات من حيث الجنس والعدد، وطبيعة بعض الضَّمائر المسندة إليها.
- وممَّا اعتُبر اسم جنسٍ لازمٍ لحالة الإفراد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا

(1) معجم المصطلحات النحوية، ص 55، 56.

وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ ﴿البقرة: 177﴾، فقد قيل إنَّ (الكتاب) في هذه الآية، وهو مفرد اللفظ، اسم جنسٍ معناه معنى الجمع، ويقوى ذلك أنه في الأصل مصدر. كما يجوز أن يكون المراد به القرآن، فيكون مفرداً في المعنى، لأنَّ الإيمان بالقرآن، إيمانٌ بالكتب المنزلة كلها، فهو شاهدٌ لها، ومهيمنٌ عليها. أما قوله تعالى: (وابن السَّبِيلِ)، فقد اعتُبر كذلك مفرداً في اللفظ، متعدداً في المعنى، لأنَّه اسم جنس⁽¹⁾.

ولعلَّ من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: 103). فقد اختلف العلماء في المراد بالبشر في هذه الآية على أقوال منها: أنَّ المراد عبدان من حضرموت يقال لأحدهما يسار وللآخر جبر، وكانا يصنعان السُّيوف بمكة، ويقرآن الإنجيل، فربَّما مرَّ بهما النبي ﷺ، فيقف يستمع؛ فقال المشركون إنَّما يتعلَّم منهما⁽²⁾. وعلى ذلك، يكون (البشر) في الآية السابقة اسم جنسٍ واقعاً على اثنين، وقد يعترض معترضٌ -والحالة تلك- على وقوع المفرد على اثنين إذا لم يدر القاعدة المنتظمة لأسماء الجنس.

ومن مراعاة الجنس أيضاً قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ (التغابن: 6) فكان الظاهر في هذا الموضع إسناد الفعل في (يهدوننا) إلى ضمير الواحد (يهدينا)، وقد جاز الإسناد إلى ضمير الجمع لأن كلمة (بَشَر) اسم جنسٍ يصلح فيه الإفراد والجمعية باعتبار لفظه أو معناه⁽³⁾. أما إعراب الآية، فيجوز أن يُعرب (بشر) مبتدأ، و(يهدوننا) خبره. كما يجوز أن يكون فاعلاً ويكون تقدير الكلام: أيهدينا بشرٌ؟! والجملة في كلتا الحالتين

(1) التبيان في إعراب القرآن، ج 1/ 77.

(2) زاد المسير، ج 4/ 493.

(3) الدر المصون، ج 6/ 325.

محل إشكال بكون ضمير الجمع مسنداً إلى (بشر واحد)⁽¹⁾.

ومن الصفات التي جاءت على التذكير وصفاً لاسم الجنس وكانت موضع إشكال قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ (يس: 80)، حيث أتى (الأخضر) في هذه الآية صفةً للشجر، وهو اسم جنس جمع، وكان المتوقع أن يؤنث الوصف، ويطابق الموصوف في الجنس فيقال: الشجر الخضراء أو الخضّر، وأن يؤنث الضمير كذلك في (منه توقدون) فيقال: (منها توقدون)، والمعروف أن وزن (أفعل) إذا أريد به وصف المؤنث أتى على (فعلاء) فيقال: أحمر: حمراء، وأنجل: نجلاء. ولفظ الشجر مؤنث جمعي كما في قوله تعالى: ﴿لَاكُلُونَ مِّنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ﴾ (٥٢) ﴿فَالِئُولُ مِنَّا الْبُطُونُ﴾ (الواقعة: 52، 53) يعود الضمير في (منها) مؤنثاً على الشجر. وعلى ذلك، فقد ناقش العلماء تذكير الوصف (الأخضر) في هذه الآية وعلّوه بعدة تعليلات منها:

- أنه من باب ردّ الوصف إلى اللفظ دون المعنى، أي أن الوصف ردّ إلى لفظ (شجر) المذكر دون معناه الجمعي، غير أن من العرب من يقول: الشجر الخضراء.

- قال بعضهم إنه من باب جواز تذكير اسم الجنس وتأنيثه. وقد يذكر اسم الجنس ويؤنث فيقال: هذا حصي أبيض وأسود، أو بيضاء وسوداء. وقد وردت آيات بالتذكير وأخرى بالتأنيث لأسماء الجنس نحو قوله تعالى: ﴿تَنَزَّعُ النَّاسُ كَانْتَهُمُ أَعْبَازُ نَحْلِ مُنْفَعِرٍ﴾ (القمر: 20)، وقوله: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَانْتَهُمُ أَعْبَازُ نَحْلِ خَاوِيَةٍ﴾ (الحاقة: 7)، فالتذكير على لغة نجد وبني تميم، والتأنيث على لغة الحجاز، إلا في ألفاظ معروفة، كما في قول الشاعر:

أَحَقُّ عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ مَاشِيًا بِهَزْجَابٍ مَا دَامَ الْأَرَاكُ بِهِ خَضْرَاً
والشاهد إتيانه بوصف (الأراك) على التذكير بقوله (ما دام ... خضراً)⁽²⁾.

(1) التبيان في تفسير القرآن، ج 2/ 263.

(2) القرطبي، ج 15/ 60؛ زاد المسير، ج 8/ 127.

المبحث السادس: الحقيقية والمجازية

يقابل مصطلح (الحقيقية) مصطلح (اللفظية/المجازية) في بعض أبواب النحو العربي، ومن ذلك⁽¹⁾:

1- باب المصادر: في باب المصادر ما يُعرف بالفعل الحقيقي، والفعل اللفظي، فالفعل الحقيقي هو الذي يدلُّ على مصدرٍ حادثٍ، والفعل اللفظي هو الذي لا يدلُّ مصدره على حادثٍ، نحو كان وأخواتها.

2- باب الإضافة: يُعرف كذلك في باب الإضافة مفهوم الإضافة الحقيقية والإضافة اللفظية، فالحقيقية ما كان اللفظ والمعنى فيه على الإضافة. أما اللفظية فهي ما كان اللفظ فيه على الإضافة، والمعنى على الانفصال.

3- باب التذكير والتأنيث: ينقسم التأنيث إلى قسمين: تأنيث حقيقي، وتأنيث مجازي، فالحقيقي ما له فرجٌ، وله مقابلٌ ذكرٌ من جنسه. أما المؤنث المجازي فهو ما ليس له فرج، وليس له مقابلٌ ذكر، وتفصيل ذلك كالآتي:

أ - التأنيث الحقيقي: وهو الأنثى الطبيعي، كأنثى الإنسان، وأنثى الحيوان مما يوجد بإزائه ذكرٌ من نوعه، كالفرس أنثى الحصان، والناقة أنثى البعير، والدجاجة أنثى الديك.. فإنَّ كلاً من تلك الأنواع أزواج، وتلك الأسماء وأمثالها مؤنَّاتٌ حقيقية.

ب- التأنيث المجازي: وهو الشيء الذي ليس له عضوٌ أنثويٌّ ولا ذكوريٌّ، لكن اللغة تلجأ إلى اعتباره أنثى، وإلى إلحاق الفصائل النحوية الخاصة بالأنثى به أحياناً، وذلك عن طريق المواضعة والاصطلاح ليس إلا. فالشمس، والنعل، والقدر، والدار، والدلو.. فهذه الأسماء كلها مؤنَّة

(1) رسالتان في اللغة، ج 1/ 80.

غير حقيقية؛ إذ لا توجد فيها أعضاء أنثوية، وإنما اكتسبت التأنيث بمواضعة أهل العربية، ولا أحد من أصحاب اللغة يمكنه تبرير تأنيث تلك الأسماء، وإخضاعها لمنطق معين. بل إنَّ السَّماع والاستعمال هو الذي يحدّد ذلك⁽¹⁾.

علماً بأنَّ لمفهوم الحقيقة والمجازية أثره المباشر في قضية المطابقة في اللغة العربية بالذات، وفي باب التأنيث، ومن تلك الأحكام الضابطة للمطابقة ما يأتي:

1 - أن المؤنث الحقيقي إذا كان فاعلاً وجب إلحاق علامة التأنيث بالفعل المسند إليه أو الصفة المضافة إليه، سواء أكان اسماً ظاهراً أو ضميراً متصلاً،⁽²⁾ نحو: قامت هندٌ وهندٌ قائمة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ (آل عمران: 35)، وقوله حكاية عن ملكة سبأ على لسانها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (النمل: 35)، فقد لحقت علامة التأنيث التاء بالأفعال: (قامت، قالت) كما لحقت تاء التأنيث بالأسماء (قائمة، مرسلة، ناظرة) في المواضع السابقة على التوالي؛ لأنَّ الفاعل في كلٍّ منها أنثى حقيقية.

يشترط في هذا الحكم ألا يقع المؤنث الحقيقي بعد إلا، لأنَّه لا يكون - في الحالة تلك - فاعلاً في الحقيقة، وإنما بدلاً من فاعلٍ مقدّر بعد إلا. نحو: ما حضر القاضي إلا امرأة⁽³⁾. أما قول عبدة بن الطيب: [كامل]

فبَكَى بناتي شجوهنَّ وزوجتي والظَّاعنونَ إليَّ ثم تصدَّعوا⁽⁴⁾
ف قيل إن مسوِّغ تذكير الفعل في البيت كون الجمع (بنات) جمعاً غير سالم.

(1) المفصل في صناعة الإعراب، ج 1/ 247.

(2) شرح شذور الذهب، ج 1/ 219.

(3) شرح قطر الندى، ص 183.

(4) ديوانه، ص 50؛ شرح اختيارات المفضل، ص 701؛ نوادر أبي زيد، ص 23؛ وينسب لأبي ذؤيب في: المقاصد النحوية، ج 2/ 472؛ كما روي بلا نسبة في: أوضح المسالك، ج 2/ 116؛ الخصائص، ج 3/ 295؛ شرح الأشموني، ج 1/ 175؛ شرح التصريح، ج 1/ 180.

- كما يشترط ألا يقع الاسم الظاهر بعد (نعم وبئس)، وألا يفصل عن فعله بفاصل، وإلا جاز التذكير، نحو: حضر القاضي امرأة، ونعم (نعمت) المرأة هند. ومنه قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ (المتحنة: 12). حيث فصل عن الفاعل المؤنث بضمير الخطاب الكاف. أو أن أصل الكلام: إذا جاءك النساء المؤمنات.

2 - المؤنث المجازي: إذا كان المؤنث غير حقيقي، جاز تذكير الفعل المسند إليه أو الصفة المضافة إليه، نحو: حسنت دارك، واضطربت نارك. فيجوز: حسن، واضطرم.

أما إذا فصل بين المؤنث المجازي وبين فعله كان ترك التأنيث أحسن، نحو: حسن اليوم دارك.

3 - الجمع: أما الجمع غير السالم، فإن الفعل المسند إليه يذكر ويؤنث اختياراً، نحو: قام/ قامت الرجال، وحضر/ حضرت النساء. فالتذكير على اعتبار الجمع، والتأنيث على اعتبار الجماعة.

فمن تأنيث الجمع قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا﴾ (الحجرات: 14). وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْهَلُ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ (الأحزاب: 13)، وقيل أنث لأن الفاعل اسم جمع.

ومن تذكير الجمع المسند إلى جماعة الإناث قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ (المتحنة: 10)، وقيل إنما جاز التذكير لأجل الفصل بين الفاعل وفعله بالمفعول، أو لأن الفاعل المؤنث - في الحقيقة - هو (أل) الموصولة، وهي اسم جمع⁽¹⁾.

مواضع من التأنيث المجازي في القرآن الكريم، وإسناد الفعل إليه مذكراً.

يعتمد إسناد الفعل مذكراً إلى المؤنث المجازي (والحقيقي أيضاً) على قاعدة أساسية في اللغة العربية ألا وهي قاعدة الأصلية والفرعية التي سبق

(1) شرح شذور الذهب، ج 1/ 222.

الحديث عنها. يلخص ذلك سيبويه بقوله: «واعلم أنَّ المذكر أخفُّ عليهم من المؤنث، لأنَّ المذكر أولُّ وهو أشدُّ تمكُّناً، وإنَّما يخرج إلى التأنيث من التذكير، ألا ترى أنَّ الشَّيء يقع على كلِّ ما أخبر عنه من قبل أن يُعلم أذكر هو أم أنثى؟ والشَّيء مذكر...»⁽¹⁾.

فالتذكير هو الغالب في كلام العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَّرَبَّاهُنَّ تَعْلَمُونَهُنَّ﴾ (الفتح: 25) فعاد الضمير في (تعلموهم) أن تطؤوهم) على الذكور دون الإناث، وذلك من أجل أصالة التذكير، وغلبة الذكور على الإناث، وهو كثير في كلام العرب. يقول ابن جني: وتذكير المؤنث واسع جداً؛ لأنَّه ردُّ فرع إلى أصل، لكنَّ تأنيث المذكر أذهب في التناكر والإغراب⁽²⁾.

وعليه، فإنَّ تذكير المؤنث المجازي مألوف في اللغة، كثير في القرآن الكريم، ومن مواضعه:

- قوله تعالى: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (البقرة: 212) بتذكير الفعل المسند إلى (الحياة) المؤنث المجازي. ويجوز أن يكون ترك المطابقة بسبب الفصل بين الفعل وبين ما أسند إليه⁽³⁾.

- قوله تعالى: ﴿وَأِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ (الأعراف: 146)، وقيل ذكر سبيل هنا؛ لأنها أضيفت إلى مذكر فاكسبت منه التذكير. حيث عاد الضمير الهاء مذكراً على السبيل. وإلا، فالغالب في (سبيل) التأنيث، كما في الآيات الآتية:

- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: 55)، ومن تأنيثه أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ (يوسف: 108)⁽⁴⁾. ومنه قول الشاعر:

(1) الكتاب، ج 1/75، 76.

(2) الخصائص، ج 2/415.

(3) التبيان في إعراب القرآن، ج 1/90.

(4) التبيان في إعراب القرآن، ج 1/244.

يا نفس إنَّ سبيلَ الرُّشدِ واضِحَةٌ منيرةٌ كَبِيَّاضِ الفجرِ غَرَاءُ⁽¹⁾
بإسناد ضمير التَّأنيث في (واضحة، منيرة) إلى السَّيْل.

- وردت (الصَّيْحَةُ)، في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرَّة، وجاء الإسناد إليها بالتَّأنيث كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ (هود: 94)، حيث لحقت التاء بالفعل المسند إلى الصَّيْحَةِ. هذا عدا آية واحدة هي: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ (هود: 67) حيث أسند الفعل (أخذ) بدون علامة تأنيث إلى (الصَّيْحَةِ)، المؤنَّث المجازي. فيجوز أن تكون حذف تاء التَّأنيث بسبب الفصل بين الفعل وفاعله المؤنَّث، كما يجوز أن يكون (الصَّيْحَةُ) بمعنى (الصَّيَّاح)، فحُمل على هذا المعنى، وتُركت المطابقة⁽²⁾. يقول الفراء: الصَّيْحَةُ «مشتق من فعلٍ في مذهب المصدر، فَمَنْ أَنْتَ أَخْرَجَ الكلام على اللَّفْظ، وَمَنْ ذَكَرَ ذهب به إلى تذكير المصدر»⁽³⁾.

أما لفظ (السَّماء) فقليل يذكر ويؤنَّث، وإن كان تذكيره قليلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿السَّامَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ، كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ (المزمل: 18) وقول الفرزدق:

فلو رفع السَّماءُ إليه قومًا لحقنا بالسَّماءِ مع السَّحابِ⁽⁴⁾
وقيل إنه على النسب، وتقدير الكلام في الآية السابقة: السَّماء ذات انفطار. وذهب آخرون إلى أنه محمولٌ على معنى (السَّقْف) المذكَر⁽⁵⁾. ومن مواضع تأنيث (السَّماء) الكثيرة: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّامَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ (الروم: 25)، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّامَاءِ﴾ (النازعات: 27)، وقوله: ﴿إِذَا السَّامَاءُ انشَقَّتْ﴾ (الانشقاق: 1)، وقوله: ﴿إِذَا السَّامَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (الانفطار: 1).

(1) المذكَر والمؤنَّث، ص 425.

(2) التبيان في إعراب القرآن، ج 2/ 41.

(3) معاني القرآن، ج 1/ 125.

(4) ديوانه، ص 36؛ البحر المحيط، ج 8/ 365؛ المخصص، ج 71/ 22؛ المذكَر والمؤنَّث لابن الأنباري، ص 367.

(5) التبيان في تفسير القرآن، ج 2/ 272.

- (الملائكة) يجوز فيه التذكير والتأنيث

فمن تذكيره قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (الحجر: 30).
وقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ (الإسراء: 95).

ومن التأنيث قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ﴾
(آل عمران: 39). وقوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (المعارج: 4). يقول
الفراء في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: تقرأ بالتأنيث والتذكير، وكذلك فعل
الملائكة وما أشبههم من الجمع يؤنث ويذكر... فمن ذكر ذهب إلى التذكير،
ومن أنث فلتأنيث الاسم، وأن الجماعة من الرجال والنساء وغيرهم يقع عليه
المؤنث⁽¹⁾.

- كلمة (جمالة) يجوز تذكيرها وتأنيثها

اسم جمع للجمل، وهو مفرد مؤنث في اللفظ جمع في المعنى. ويجمع
على (جماليات) وهو جمع جمع. وهي قراءة السبعة عدا حفص وحمزة
والكسائي فقد قرأوا (جمالة) بكسر الجيم. وروعي المعنى في هذا السياق
حيث وُصف (جمالة) بالجمع المؤنث (صُفر) وهو جمع أصفر: صفراء. إلى
غير ذلك من مواضع تذكير الأفعال والصفات المسندة إلى المؤنث المجازي.

(1) معاني القرآن للفراء، ج 1/ 210.

المبحث السابع: مراعاة الانسجام بين فواصل الآي

من الظواهر المؤثرة في المطابقة بين الفصائل النحويّة مراعاة انسجام الإيقاع في الفواصل القرآنية، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّ أَغْنَقَهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء: 4). فلأجل مراعاة فواصل الآي عدل عن (خاضعة) خبراً للأعناق، إلى (خاضعين)، خبراً لجمع العقلاء المذكور، إذ الآيات المحيطة بهذه الآية ختمت بالنون بعد ياء ساكنة: (المبين.. المؤمنين.. خاضعين.. معرضين). وفي ذلك يقول الزركشي: «إنّ إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكّد جدّاً، ومؤثّر في اعتدال نسق الكلام، وحسن موقعه من النفس تأثيراً عظيماً، ولذلك خرج عن نظم الكلام لأجلها في مواضع»⁽¹⁾. وكما هو مصرّح به في قول الزركشي، فإنّ من مراعاة فواصل الآي ارتكاب مخالفة بعض الأصول طلباً للانسجام بين الفواصل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ (الإنسان: 15، 16) حيث صُرف (قوارير)، وحقّه عدم الصّرف؛ والسبب في ذلك رؤوس الآي التي قبلها وبعدها (حريراً.. زمهريراً.. تذليلاً (قواريراً).. تقديرًا...). وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿تَنَزَّاعُ النَّاسُ كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَّنْقَعِرٍ﴾ (القمر: 20)؛ لأنّ الآيات على فاصلة الرّاء، وكان حقّه (منقعة).

والميزة في الأسلوب القرآني أنّ الجمال الإيقاعيّ لنسق الفواصل متوجّج للجمال المعنويّ، أي أنه يستوفي الجمال المعنويّ والجمال اللفظي في آن واحد في كلّ موضع روعي فيه نسق الفواصل، وتلك ميزة فريدة يتميّز بها الأسلوب القرآنيّ عن الأساليب البشريّة الأخرى. يشير الزمخشريّ إلى تلك الحقيقة بقوله: «لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجرّدها إلا مع بقاء

(1) البرهان في علوم القرآن، ج 1/ 60.

المعاني على سدادها، على النهج الذي تقتضيه حسن النظم والتئامه. كما لا يحسن تخيّر الألفاظ المونقة في السّمع السلسلة على اللسان إلا مع مجيئها منقادة للمعاني الصّحيحة المنتظمة»⁽¹⁾.

نستخلص من ذلك كلّهُ أنّ مراعاة الانسجام الموسيقي لفواصل القرآن الكريم ينشأ، عنها الكثير من الظواهر اللّغويّة التي يخرج فيها الأسلوب والوحدات الكلاميّة عن أشكالها المعهودة، فيبدو لغير المتمعّن في أساليب اللّغة، ومصارف الكلام أنه خروجٌ غير متعمّد، وأن ليس وراءه مقصدٌ بلاغيّ يسمو على القاعدة الأصليّة في الالتزام بتطابق الوحدات الكلاميّة. وإذا أمعن الناظر بصره في الأسلوب القرآني، أو توصّل إلى إدراك تلك اللّطائف والمقاصد البلاغيّة بمعونة مَنْ هو أحدٌ منه بصراً، وأطولُ منه نفساً في الغوص في جواهر القرآن الكريم، ثاب إلى نفسه، واستشعر سموّ التّنزيل الرّبانيّ ورؤنقه وبهاءه، وتماسك بنائه، فزاده ذلك إيماناً، وتقديساً لهذا الكتاب المعجز الذي لا تنقضي عجائبه، تنزيلٌ من لدن حكيم عليم.

(1) الكشف، ج/ 325.

كشاف الآيات القرآنية مرتبةً بحسب السُّور وآياتها

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	الفاتحة	6	52
﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾	البقرة	2	186
﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾	البقرة	7	109، 96
﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	البقرة	231	67
﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾	البقرة	23	169
﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾	البقرة	31	170
﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾	البقرة	35	63
﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾	البقرة	36	86، 63
﴿فَنَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾	البقرة	37	99
﴿وَوَآمَنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾	البقرة	41	88
﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾	البقرة	45	69، 66، 64
﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾	البقرة	58	26
﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾	البقرة	68	104
﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ﴾	البقرة	69	227
﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾	البقرة	70	171
﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُدُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾	البقرة	76	87
﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾	البقرة	78	26
﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾	البقرة	102	208

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿كُلُّ لَهٗ قٰنُوْنٌ﴾	البقرة	116	113
﴿وَإِذْ اٰتٰنَا اِبْرٰهٖمَ رُبُّهُ بِكَلِمٰتٍ قٰتَمٰتٍۭۙ﴾	البقرة	124	100
﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّٰلِمِيْنَ﴾	البقرة	124	33
﴿اَنْ طَهَّرَا بَيْتِيْ لِلطَّٰيِفِيْنَ﴾	البقرة	125	159
﴿وَإِذْ قَالَ اِبْرٰهٖمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا الْبَلَدَ اٰمِنًا﴾	البقرة	126	217
﴿وَمَنْ يَّرْغَبْ عَن مِّلَّةِ اِبْرٰهٖمَ﴾	البقرة	130	226
﴿تِلْكَ اُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾	البقرة	134	91
﴿قُوْلُوْا اٰمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنْزِلَ اِلَيْنَا﴾	البقرة	136	92
﴿صِبْغَةَ اللّٰهِ وَمَنْ اَحْسَنُ مِنْ اللّٰهِ صِبْغَةً﴾	البقرة	138	26
﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنٰكُمْ اُمَّةً وَّسَطًا﴾	البقرة	143	90
﴿وَالْفُلْكِ اَلْقَى تَجَرِيْ فِى الْبَحْرِ يَمًا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾	البقرة	164	190
﴿لَيْسَ اَلْبَرُّ اَنْ تُوْلُوْا وُجُوْهَكُمْ﴾	البقرة	177	230
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ اِذَا حَضَرَ اَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾	البقرة	180	172، 178
﴿اُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ اِلَى نِسَائِكُمْ﴾	البقرة	187	226
﴿فَاِنْ زَلَلْتُمْ مِنْۢ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنٰتُ﴾	البقرة	209	110
﴿زُيِّنَ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا﴾	البقرة	212	235
﴿وَلَا تَكُوْنُوْا كَالَّذِيْنَ نَفَرَقُوْا﴾	البقرة	213	110
﴿اِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ التَّوٰبِيْنَ وَيُحِبُّ الْمُنْظَرِيْنَ﴾	البقرة	222	167
﴿وَالَّذِيْنَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُوْنَ اَزْوَاجًا﴾	البقرة	234	172
﴿حٰفِظُوْا عَلَى الصَّلٰوٰتِ وَالصَّلٰوةِ الْوُسْطٰى﴾	البقرة	238	91
﴿قَالَ اِنَّ اللّٰهَ مُبْتَلِيْكُمْ بِنَهَرٍ﴾	البقرة	249	124

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾	البقرة	253	200، 87
﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾	البقرة	259	138
﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾	البقرة	260	26
﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾	البقرة	261	217، 138
﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾	البقرة	270	67
﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾	البقرة	275	176
﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾	البقرة	136	92
﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾	البقرة	285	114
﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾	آل عمران	7	94
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾	آل عمران	10	82
﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ﴾	آل عمران	13	179
﴿قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾	آل عمران	15	105، 101
﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾	آل عمران	35	233
﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾	آل عمران	38	96
﴿فَنَادَتْهُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ﴾	آل عمران	39	237
﴿يَمْرِيءُ أَفْنٰقٍ لِّرَبِّكَ وَأَسْجُدِي﴾	آل عمران	43	159
﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلٰٓئِكَةُ يَمْرِيءُ﴾	آل عمران	45	179
﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾	آل عمران	64	97
﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ﴾	آل عمران	86	201
﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾	آل عمران	104	91
﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾	آل عمران	105	227

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾	آل عمران	110	91
﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا﴾	آل عمران	115	226
﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ﴾	آل عمران	117	188
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾	آل عمران	185	86
﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا﴾	آل عمران	191	180
﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾	آل عمران	198	124
﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾	النساء	2	226
﴿وَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ فِحْلًا﴾	النساء	4	100
﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾	النساء	16	127
﴿وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾	النساء	43	93
﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَّتِكَ رَفِيقًا﴾	النساء	69	117
﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾	النساء	96	215
﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾	النساء	112	68
﴿وَأِنْ يَنْفَرَا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾	النساء	130	114
﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾	النساء	135	128، 69
﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَاتًا﴾	النساء	142	64
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾	النساء	150	102
﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾	النساء	152	93
﴿ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾	النساء	153	110
﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾	النساء	162	42
﴿يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾	المائدة	6	215

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾	المائدة	12	133
﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾	المائدة	16	109
﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾	المائدة	17	129
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾	المائدة	25	92
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ﴾	المائدة	36	69
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾	المائدة	38	141
﴿مِّنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾	المائدة	89	92
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾	الأنعام	1	109
﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾	الأنعام	19	185
﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾	الأنعام	23	183
﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ﴾	الأنعام	45	123
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾	الأنعام	46	105
﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾	الأنعام	55	235
﴿فَلَمَّا رَأَى السَّمَسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾	الأنعام	78	181، 113
﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾	الأنعام	84	114
﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِرِكُمْ﴾	الأنعام	135	226
﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾	الأنعام	141	70، 59
﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾	الأنعام	158	194
﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾	الأنعام	160	175
﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾	الأعراف	4	140، 137
﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسُهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمَةٍ﴾	الأعراف	27	154

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾	الأعراف	46	114، 26
﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾	الأعراف	56	202
﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا﴾	الأعراف	57	21
﴿وَأَن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾	الأعراف	146	235
﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا﴾	الأعراف	153	195
﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾	الأعراف	157	82
﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾	الأعراف	159	133، 91
﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَاقَ عَشْرَةِ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾	الأعراف	160	176، 133، 32
﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾	الأعراف	180	184
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾	الأنفال	20	72
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾	الأنفال	24	72
﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾	الأنفال	35	209
﴿وَأَن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾	التوبة	6	93
﴿وَأَن لَّكُنَّا أَتَيْنَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾	التوبة	12	121
﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾	التوبة	19	143
﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾	التوبة	34	73، 68، 65
﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾	التوبة	36	133
﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضَوْهُ﴾	التوبة	62	71، 65، 64
			100، 81، 74، 73
﴿وَحُضِّنْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾	التوبة	69	32
﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾	التوبة	74	98

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾	التوبة	82	52
﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾	التوبة	102	32
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾	يونس	5	76
﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ﴾	يونس	22	190
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾	يونس	38	169
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾	يونس	47	91
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾	يونس	57	177
﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾	يونس	58	104
﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾	يونس	83	134
﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ﴾	يونس	90	222
﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾	يونس	97	179
﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنْتُ﴾	يونس	98	194
﴿وَلَكِن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أُمَّةً مَّعْدُودَةً﴾	هود	8	25
﴿وَإِن كُلاً لَّمَّا لِيُوقِنَنَّ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾	هود	111	114
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ﴾	هود	13	135، 106
﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْنَى وَالْأَصَى﴾	هود	24	143، 77
﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾	هود	65	117
﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾	هود	67	236
﴿وَإِنِ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾	هود	84	189
﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾	هود	94	236
﴿وَإِن كُلاً لَّمَّا لِيُوقِنَنَّ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾	هود	111	27

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾	هود	118	103
﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَايَتْهُمُ لِي سَاجِدِينَ﴾	يوسف	4	166، 160
﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾	يوسف	4	223
﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا نَقْنُلُوا يُوسُفَ﴾	يوسف	10	193
﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾	يوسف	29	162
﴿وَأَعَدَّتْ لَهُنَّ مَثَكَا﴾	يوسف	31	101
﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾	يوسف	31	163
﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾	يوسف	32	163
﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾	يوسف	43	217
﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾	يوسف	45	25
﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾	يوسف	46	163
﴿وَإِنَّهُمْ لِمِنَ الصِّدِّيقِينَ﴾	يوسف	51	163
﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾	يوسف	82	169، 135
﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾	يوسف	91	163
﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾	يوسف	95	164
﴿قَالَ أَنَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي﴾	يوسف	96	164
﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾	يوسف	97	163
﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾	يوسف	100	218
﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾	الرعد	2	114
﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ﴾	الرعد	14	222
﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾	الرعد	31	220

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾	إبراهيم	33	220
﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾	الحجر	30	237
﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَافِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾	الحجر	87	26
﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾	النحل	5	111، 94
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾	النحل	48	107
﴿وَإِنَّ لَكُزًى فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾	النحل	66	205، 110، 83
﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾	النحل	69	207
﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾	النحل	75	142
﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾	النحل	78	109
﴿سَرِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾	النحل	81	93
﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾	النحل	103	230
﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾	النحل	112	136
﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾	الإسراء	8	187
﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾	الإسراء	12	80
﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾	الإسراء	84	114
﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾	الإسراء	88	151
﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾	الإسراء	95	237
﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾	الإسراء	110	104
﴿وَلِئَلَّيْكُمْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾	الكهف	25	16
﴿وَلِئَلَّيْكُمْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾	الكهف	25	137
﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾	الكهف	50	88

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾	الكهف	59	185
﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾	الكهف	90	182
﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾	الكهف	103	138
﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾	الكهف	109	100
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾	الكهف	110	106
﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾	مريم	5	97
﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾	مريم	19	186
﴿يَتَأَخَّتِ هُنُودٌ مِمَّا كَانَ آبُوكِ أَمْرًا سَوِيًّا﴾	مريم	20	199، 17
﴿فَلَمَّا أَغْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾	مريم	49	113
﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ﴾	مريم	90	110
﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	مريم	93	224، 86
﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾	مريم	95	86
﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾	طه	18	185
﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَىٰ﴾	طه	46	144
﴿فَأَنبَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾	طه	47	145، 84
﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾	طه	51	185
﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾	طه	63	42، 33
﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾	طه	96	126
﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾	طه	103	174
﴿فَقُلْنَا يَتَدَادُمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾	طه	117	78
﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾	طه	121	63

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾	طه	132	66
﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾	طه	133	110
﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ﴾	الأنبياء	33	191
﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾	الأنبياء	47	192
﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾	الأنبياء	69	118
﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾	الأنبياء	72	113
﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾	الأنبياء	73	120
﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾	الأنبياء	78	147
﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾	الأنبياء	98	25
﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾	الأنبياء	104	25
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾	الحج	5	115
﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾	الحج	15	119
﴿هَٰذَانِ خَصَمَانِ ائْتَصِمَا فِي رَيْبٍ﴾	الحج	19	151، 148، 32
﴿خُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾	الحج	31	195
﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا﴾	الحج	36	75
﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾	الحج	52	26
﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي﴾	الحج	65	190
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾	الحج	77	159
﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾	المؤمنون	11	227
﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً﴾	المؤمنون	50	81، 80، 78
﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ﴾	المؤمنون	67	118

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾	المؤمنون	74	106
﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾	المؤمنون	99	139
﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ مِّن قَائِلُهَا﴾	المؤمنون	100	98
﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ النَّسَاءِ﴾	النور	31	118
﴿أَوْ كَظُلُمَتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾	النور	40	71
﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾	النور	41	86
﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾	النور	45	219، 196
﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾	النور	48	73
﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْذِنُوا﴾	النور	59	119
﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا﴾	الفرقان	48	197
﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾	الفرقان	68	104
﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾	الفرقان	74	119
﴿إِنْ نَّشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾	الشُّعْرَاء	4	238، 164
﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾	الشُّعْرَاء	10	144
﴿فَأَنبَأَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	الشُّعْرَاء	15	120
﴿فَأَنبَأَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾	الشُّعْرَاء	16	84
﴿فَأَنبِئْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْحُونِ﴾	الشُّعْرَاء	119	190
﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾	الشُّعْرَاء	198	87
﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ﴾	النمل	18	222، 197
﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾	النمل	35	233؛ 113
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾	النمل	45	148

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾	النمل	45	151، 148
﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾	النمل	51	209
﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ﴾	النمل	57	166
﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾	النمل	60	184
﴿وَكُلُّ أَنْوَةٍ دَخِيرَةٍ﴾	النمل	87	86
﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾	النمل	91	31
﴿فَالنَّقْطَةُءِءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾	القصص	8	103
﴿أَسَلَكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾	القصص	32	105
﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكَاثُرِ﴾	القصص	41	121
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى﴾	القصص	59	94
﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾	العنكبوت	41	198
﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِءِء أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾	الروم	25	236
﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ﴾	الروم	46	190
﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾	لقمان	19	107
﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾	السَّجدة	18	143
﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾	الأحزاب	10	110
﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَبْأَهْلَ يَثْرِبَ﴾	الأحزاب	13	234
﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾	الأحزاب	19	126
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾	الأحزاب	21	180
﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾	الأحزاب	40	93
﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾	سبأ	15	198

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾	سبا	35	82
﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾	سبا	37	81
﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَابٌ﴾	فاطر	12	114
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾	فاطر	24	91
﴿يُحْلَتُونَ فِيهَا مِنْ آسَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾	فاطر	33	31
﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾	فاطر	41	131
﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾	يس	40	191، 161، 77
﴿وَأَيُّ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾	يس	41	190
﴿وَلِنْ نَشَأْ نُغْرِقَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾	يس	43	216
﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾	يس	78	203، 199
﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾	يس	80	231
﴿وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾	الصافات	7	87
﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾	الصافات	27	87
﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾	الصافات	75	139
﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾	الصافات	114	146
﴿وَبَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾	الصافات	115	146
﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾	ص	12	200
﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾	ص	129	73
﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ﴾	الزمر	29	143، 77
﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ﴾	الزمر	56	167
﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾	غافر	2	121

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾	غافر	3	122
﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾	غافر	5	91
﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾	غافر	6	99
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾	غافر	67	116
﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾	فصلت	11	149، 161
﴿قَالَتَا أَأَيْنَا طَائِعِينَ﴾	فصلت	11	161
﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾	الشورى	7	94
﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾	الشورى	13	64
﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾	الشورى	17	201
﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾	الزخرف	11	197
﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾	الزخرف	12	205
﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾	الزخرف	28	98
﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾	الزخرف	31	218
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾	محمد	10	226
﴿يَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾	محمد	38	107
﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾	الفتح	25	209، 235
﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾	الحجرات	9	148، 224
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾	الحجرات	14	200، 234
﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾	ق	11	198
﴿إِذْ يَنْفَلِقُ الْمُنْفِقِينَ﴾	ق	17	79، 83
﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾	ق	24	140

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾	الذاريات	12	207
﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾	الذاريات	58	214
﴿تَزِجُ النَّاسَ كَانْتَهُمُ اعْجَازُ نَحْلِ مُنْقَعِرٍ﴾	القمر	20	238، 171، 79
﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾	القمر	45	122
﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾	القمر	45	126، 122، 108
﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾	القمر	52	86
﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهَرٍ﴾	القمر	54	123، 98
﴿يَسْأَلُهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	الرحمن	29	118
﴿يَمَقْشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَقْتُمْ﴾	الرحمن	31	150
﴿وَحُورٌ عَيْنٌ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ﴾	الواقعة	22	214، 107
﴿لَا كُلُّونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالِقُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾	الواقعة	52، 53	231
﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾	الحشر	9	179
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَتُ﴾	الممتحنة	10	234
﴿وَإِذَا رَأَوْا نَجْرَةً أَوْ هَمُوا أَنْفُضُوا إِلَيْهَا﴾	الجمعة	11	74، 70، 65، 64
﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾	المنافقون	4	88
﴿فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾	المنافقون	10	33
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾	التغابن	6	230
﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾	الطلاق	1	147
﴿وَإِذَا أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾	التحريم	3	87
﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾	التحريم	4	84
﴿إِنْ نُوَبَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾	التحريم	4	152، 141

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَاطٍ﴾	التحریم	5	160
﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾	التحریم	8	124
﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾	التحریم	12	99
﴿وَكَاثَ مِنَ الْفَتَنِ﴾	التحریم	12	159
﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَأْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْتَحُونَ﴾	القلم	28	90
﴿عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُدْخِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾	القلم	32	226
﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَقْلَكُوا بِرَبِّهِمْ صَرْصَرٍ عَلَاتٍ﴾	الحاقة	6	188
﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازٌ تَخِلُ خَاوِيَةٍ﴾	الحاقة	7	231، 171
﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾	الحاقة	13	131
﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾	الحاقة	47	93
﴿تَنْجِ الْمَلَكِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ﴾	المعارج	4	237
﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾	المعارج	19	187
﴿السَّمَاءَ مُنْفِطِرًا بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾	المزمل	18	236
﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾	المدثر	30	133
﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾	المدثر	38	86
﴿كَأَلَّا إِنَّهُمْ تَذَكَّرُ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُ﴾	المدثر	54	226، 201
﴿يَسْتَلْ آيَانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾	القيامة	6	208
﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ﴾	الإنسان	16	238
﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾	الواقعة	19	214
﴿وَيُطْلَعُ مَنْظُورٌ﴾	الواقعة	29	24
﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾	المرسلات	32	125

النص	السورة	الآية	الصفحة
﴿مَأْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾	النازعات	27	236
﴿وَفَكَهَةً وَأَبًّا﴾	عبس	31	25
﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾	التكوير	1	182
﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾	الانفطار	1	236
﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾	الانشقاق	1	236
﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾	البروج	15	215
﴿وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا﴾	الشمس	1	182
﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾	الليل	15	127
﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾	البينة	1	215
﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾	الزلزلة	1	204
﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾	الماعون	4-5	127
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾	الإخلاص	1	93

كشاف الأحاديث النبويّة والآثار (ترتيب ألفبائي)

الصفحة	طرف الحديث
216	ارجعن مأزورات
98	أصدق كلمة قالها شاعر
152	إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم
171	إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها
97	أي رجل مات، وترك ذرية طيبة
42	قد أحسنتم وأجملتم، أرى فيه شيئاً من لحن
84	كاتب الحسنات على يمين الرجل
42	كنتُ عند عثمان وهم يعرضون المصاحفَ
42	لو كان المملي من هذيل، والكاتب من ثقف
127	ليتهين أناس عن ودعهم الجمعيات
127	ما بال أقوام
132	مثل المنافق كمثل الشاة العائرة
196	من توضع يوم الجمعة
174	من صام رمضان ثم أتبعه ستاً
29	نعم. أسمعُ صلاصلاً ثم أثبت عند ذلك
29	ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد
43	يا ابن أختي: هذا من عمل الكتاب الكتبة
64	يا بلال أقم الصلاة
86	يا عبادي! كلكم جائع

كشاف الأبيات الشعرية

البيت	الصفحة
أَلْخَيْرَ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ	94
أَتَهْجُرُ بَيْتًا بِالْحَجَارِ تَلَفَعْتُ	227
أَحَقًّا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ مَاشِيًا	231
إِذَا بَعْضُ السَّنِينَ تَعَرَّقَتْنا	193
إِذَا رَأَيْتَ أَنْجَمًا مِنَ الْأَسَدِ	111
إِذَا نُهِيَ السَّفِيهِ جَرَى إِلَيْهِ	103
أَرَى مَرَّ السَّنِينَ أَخَذَنَ مِنِّي	194
أَسِرْبَ الْقَطَا مَنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ	197
أَطُوفُ بِهَا لَا أَرَى غَيْرَهَا	214
أَعْلَمُهُ الرُّمَایَةَ كُلَّ يَوْمٍ	98
أَلَا عَمَّ صَبَاحًا أَثِيهَا الظَّلُلُ الْبَالِي	196
أَلَا فَارْحَمُونِي يَا إِلَهَ مُحَمَّدٍ	140
أَلَا مَنْ مَبْلَغٌ عَنِي خُفَافًا	145
أَلْكُنِّي إِلَيْهَا وَخَيْرَ الرَّسُولِ	84
أَكُلُّ عَامٍ نَعَمٌ تَحْوُونَهُ	111
أَلَمْ يَحْزُنْكَ أَنَّ حَبَالَ قَيْسٍ	131
أَلَمْ يَحْزُنْكَ أَنَّ حَبَالَ قَوْمِي	150
أَمَّا وَالَّذِي لَا يَعْلَمُ غَيْرُهُ	200
إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمَرْوَةَ ضُمْنَا قَبْرًا	112
إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمَرْوَةَ ضُمْنَا	180
أَنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ	165
أَمَ الشَّرِّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي	
بِهِ الْخَوْفُ وَالْأَعْدَاءُ أَمْ أَنْتَ زَائِرُهُ	
بِهَرْجَابٍ مَا دَامَ الْأَرَاكُ بِهِ خَضْرًا	
كَفَى الْأَيْتَامَ فَقْدَ أَبِي الْيُثْمِ	
جَبْهَتُهُ أَوْ الْخِرَافَةُ وَالْكَتْدُ	
وَخَالَفَ، وَالسَّفِيهِ إِلَى خِلَافٍ	
كَمَا أَخَذَ السَّرَارُ مِنَ الْهَلَالِ	
لَعَلِّي إِلَى مَنْ هَوَيْتُ أَطِيرُ	
كَمَا طَافَ بِالْبَيْعَةِ الرَّاهِبِ	
فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي	
وَهَلْ يَعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي؟	
فَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلًا فَأَنْتَ لَهُ أَهْلُ	
رَسُولًا بَيْتُ أَهْلِكَ مُنْتَهَايَا	
أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرِ	
يَلْقَحُهُ قَوْمٌ وَيَنْتَجُونَهُ	
وَتَغْلِبُ قَدْ تَبَايَنَتَا انْقِطَاعَا	
وَقَوْمِكَ قَدْ تَبَايَنَتَا انْقِطَاعَا	
وَيُخَيِّي الْعِظَامَ الْبَيْضَ وَهِيَ رَمِيمٌ	
بِمَرَوْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ	
قَبْرًا بِمَرَوْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ	
عُنُقُ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا	

البيت	الصفحة
إِنَّ الْمَنِيَّةَ وَالْحُثُوفَ كِلَاهُمَا	112، 131
إِنَّ أَمْرًا غَرَّهُ مِنْكَ وَاحِدَةٌ	180
إِنَّ شَرِّخَ الشَّبَابِ وَالشَّعْرَ الْأَسَدَ	65، 74
إِنِّي ضَمَنْتُ لِمَنْ أَتَانِي مَا جَنَى	85
بِالْ سُهَيْلِ فِي الْفَضِيخِ فَفَسَدَ	111
بَرْهَرَهُ، رَوْدَةً، رَخْصَةً	179
بِهَا جَيْفَ الْحَسَرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا	99
تَرَكْتَنِي فِي الدَّارِ ذَا غُرْبَةٍ	182
تَرَكْنَا الْخَيْلَ وَالنَّعَمَ الْمَفْدَى	112
تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعَبَانٍ مِنْ لَبَنٍ	186
تِلْكَ خَيْلِي مِنْهَا وَتِلْكَ رِكَابِي	126
ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ، وَثَلَاثُ ذَوْدٍ	176
حَمَامَةٌ بَطْنِ الْوَادِيَيْنِ تَرْتَمِي	153
دَعَوْتُ النَّوَى ثُمَّ ارْتَمَيْنَ قُلُوبَنَا	203
ذُمُّ الْمَنَازِلِ بَعْدَ مَنَزَلَةِ اللَّوَى	221
رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي	64، 85
شَرِبْتُ بِهَا وَالذِّيكُ يَدْعُو صَبَاحَهُ	222
طَرَقًا فَتِلْكَ هَمَاهِمِي أَقْرِبُهُمَا	130
طَوَّلُ اللَّيَالِي أَسْرَعَتْ فِي نَقْضِي	192
عَشِيَّةَ لَا عَفْرَاءَ مِنْكَ قَرِيبَةً	205
عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا	217
عَلَى هَظَالِهِمْ مِنْهُمْ بَيُوتٌ	199
فَأَبْلِغْ أَبَا بَكْرٍ رُسُولًا سَرِيعَةً	145
فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ	140
فَتَخَالَسَا نَفْسَيْهِمَا بِنَوَافِدٍ	153
يُوفِي الْمَخَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادِي	
بَعْدِي وَبَعْدُكَ فِي الدُّنْيَا لَمَعْرُورٌ	
وَدَّ مَا لَمْ يُعَاصَ كَانَ جُنُونًا	
وَأَبِي فَكَانَ وَكُنْتُ غَيْرَ غَدُورٍ	
وَطَابَ أَلْبَانُ اللَّقَاحِ فَبَرَدَ	
كَخُرْعُوبَةِ الْبَانَةِ الْمَنْفَطِرِ	
فَيُضُّ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبٌ	
قَدْ ذَلَّ مِنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرُ	
وَقَلْنَا لِلنِّسَاءِ بِهَا: أَقِيمِي	
شَيْبًا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا	
هَنْ صُفْرُ أَوْلَادُهَا كَالزَّبِيبِ	
لَقَدْ جَارَ الزَّمَانُ عَلَى عِيَالِي	
سَقَاكَ مِنَ الْغُرِّ الْغَوَادِي مَطِيرُهَا	
بِأَعْيُنٍ أَعْدَاءٍ وَهَنْ صَدِيقُ	
وَالْعَيْشَ بَعْدَ أَوْلَئِكَ الْآيَامِ	
بَرِيئًا وَمِنْ فَوْقِ الطَّوِيِّ رَمَانِي	
إِذَا مَا بَنُو نَعَشٍ دَانُوا فَتَصَوَّبُوا	
قُلُوصًا لَوَاقِحَ كَالْقَيْسِيِّ وَحَوْلَا	
طَوَيْنَ طَوِيلِي، وَطَوَيْنَ عَرْضِي	
فَتَدْنُوا، وَلَا عَفْرَاءَ مِنْكَ بَعِيدُ	
حَتَّى غَدَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا	
كَأَنَّ الْعَنْكَبُوتَ هُوَ ابْتَنَاهَا	
فَمَا لَكَ يَا ابْنَ الْحَضْرَمِيِّ وَمَا لِيَا؟	
وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاحًا وَلَا بَرْدًا	
كَنَوَافِدِ الْعُبُطِ الَّتِي لَا تُرْقِعُ	

البيت	الصفحة
فطافَتْ ثلاثاً بين يومٍ وليلةٍ	173
فلا مُزنةٌ ودَقَّتْ ودَقَّها	204
فللموت تغذو الوالداتُ سخالها	103
فلو رفع السَّماءُ إليه قومًا	236
فمن أَمسى بالمدينةِ رَحلهُ	66
فوقفتُ فيها ناقتي وكأنَّها	125
فيها اثنتان وأربعون حلوبةً	134
فيها خُطوطٌ من سوادٍ وبلقُ	101
قام أم الوليدِ بالقبرينِ	178
قامت تُبكيه على قبره	182
كانت نجائب منذرٍ ومحرق	221
كان نُسوعَ رَحلي حين ضمتُ	116
كلاهما حين جدَّ الجري بينهما	154
كلوا في بعضِ بطنكم تعفوا	116
لدوا للموتِ وابنوا للخراب	103
ثلاثة أنفُسٍ، وثلاثُ ذودٍ	176
لقد كَذَبَ الواشونَ ما فُهِتْ عندهم	145
لقد ولد الأَخِيطَلُ أمَّ سوءٍ	221
لقد ولد الأَخِيطَلُ أمَّ سوءٍ	178
لك الويل أن أَمسى ولا أم هاشم	204
لكلِّ همٍّ من الهمومِ سعةٌ	81
لو كان في قلبي كَقدرِ قلامٍ	145
متى تأتينا تلمم بنا في ديارنا	220
مشينَ كما اهتزَّت رماحُ تسفَّهتُ	193
مشينَ كما اهتزَّت رياحُ تسفَّهتُ	175
وكان النكيرُ أن تَضيفَ وتجارا	
ولا أرض أبقلَ إيقالها	
كما لخراب الدورِ تُبنى المساكن	
لحقنا بالسَّماءِ مع السَّحابِ	
فإني وقَّيارُ بها لغريب	
فَدَنُ لأقضي حاجَةَ المتلوم	
سوداً كخافية الغراب الأُصحم	
كأنه في الجلدِ توليعُ البَهق	
تندُبُ عبدَ الملك والضحاكا	
من لي بعدك يا عامرُ؟	
أماتهنَّ وطرقهنَّ فحिला	
حوالب غُرزا ومعى جياعا	
قد أقلعا وكلا أنقيهما رابي	
فإن زمانكم زمانٌ خَميصُ	
فكلُّكم يصيرُ إلى ذهاب	
لقد جارَ الزمانُ على عيالي	
بسرٍّ ولا أرسلتُهم برَسُول	
مقلدة من الأماتِ عارا	
على بابِ استيها ضُلب وشام	
قريبٌ ولا البسباسةُ ابنه يشكرا	
والصُّبح والمسيُّ لا فلاح معه	
فضلاً لغيرك قد أتاها أرُسلي	
تجدُ حطباً جزلاً وناراً تأججا	
أعاليها مرُّ الرياحِ النَّواسِمِ	
أعاليها مرُّ الربيعِ النَّواسِمِ	

البيت	الصفحة
مَنْ دُونَهُمْ إِنْ جِئْتُهُمْ سُمِرَا	عَزَفَ الْقِيَانُ وَمَجْلَسُ غَمْرٍ 118
نُبْتُ نَعْمَى عَلَى الْهَجْرَانِ زَارِيَةً	سَقِيَا وَرَعِيًّا لِذَاكَ الْغَائِبِ الزَّارِي 182
نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا	عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلَفٌ 76
هُمْ الْمَوْلَى وَإِنْ جَنَّقُوا عَلَيْنَا	وَإِنَّا مِنْ لِقَائِهِمْ لَزُورٌ 117
هُمَا سَيِّدَانِ يَزْعُمَانِ وَإِنَّمَا	يَسُودَانِنَا إِنْ يَسَرَتْ غَنَاهُمَا 132
هُمَا نَفْسًا فِي فَيٍّ مِنْ فَمَوِيَّهِمَا	عَلَى النَّابِجِ الْعَاوِي أَشَدَّ رَجَامٍ 154
وَإِذَا هُمْ طَعِمُوا فَأَلَامُ طَاعِمِ	وَإِذَا هُمْ جَاعُوا فَشَرُّ جِيَاعٍ 89
الْوَارِدُونَ وَتَيْمٌ فِي ذُرَا سَبِيلِ	قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ 108
وَاسْتَقْبَلْتُ قَمَرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا	فَارْتَنِي الْقَمَرَيْنِ فِي وَقْتِ مَعَا 218
وَالْأُفْسِيرِي مِثْلُ مَا سَارَ رَاكِبِ	تَيْمَمَ خَمْسًا لَيْسَ فِي سَيْرِهِ يَتَمُّ 174
وَإِنَّ كِلَابًا هَذِهِ عَشْرُ أَبْطُنِ	وَأَنْتَ بَرِيءٌ مِنْ قَبَائِلِهَا الْعَشْرِ 175
وَإِنَّ لَنَا شَيْخَيْنِ لَا يَنْفَعَانِنَا غَنِيَّيْنِ	لَا يَجْدِي عَلَيْنَا غِنَاهُمَا 132
وَتَشْرِقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَدْعَتْهُ	كَمَا شَرَقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ 165
وَدَّعْ هُرَيْرَةً إِنَّ الرِّكْبَ مَرْتَجِلِ	وَهَلْ تَطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ 172
وَسَوْفَ يَعْفِنِيهِ إِنْ ظَفِرْتُ بِهِ	رَبُّ غَفُورٍ وَبَيضُ ذَاتِ أَظْهَارِ 184
وَعَفْرَاءُ أَدْنَى النَّاسِ مَنِي مَوْدَّةٍ	وَعَفْرَاءُ عَنِّي الْمَعْرِضُ الْمَتَوَانِي 112
وَقَوْمٍ عَلَيَّ ذَوِي مِرَّةٍ	أَرَاهُمْ عَدُوًّا وَكَانُوا صَدِيقًا 88
وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ الْقَوَافِي	فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي 98
وَكُنَّا قَرِيبًا وَالذِّيَارُ بَعِيدَةٌ	فَلَمَّا وَصَلْنَا نُصَبَ أَعْيُنُهُمْ غِنَا 203
وَلَوْ حَلَفْتُ بَيْنَ الصِّفَا أَمْ عَامِرِ	وَمَرُوتَهَا بِاللَّهِ بَرَّتْ يَمِينُهَا 75
وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمُمْتُ أَرْضًا	أَرِيدُ الْخَيْرَ أَثَمًا يَلِينِي 94
مَهْمَهَيْنِ قَذْفَيْنِ مَرَّتَيْنِ	ظَهَرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التَّرْسَيْنِ 141
يَا صَاحِبِ بَلِّغْ ذَوِي الزَّوْجَاتِ كُلَّهُمْ	أَنْ لَيْسَ وَصَلٌ إِذَا انْحَلَّتْ غُرَى الذَّنْبِ 215
يَا عَاذِلَاتِي لَا تَرْدُنَ مَلَامَتِي	إِنَّ الْعَوَاذِلَ لَسَنَ لِي بِأَمِيرِ 120
يَلْحِينَنِي فِي حُبِّهَا وَيُلْمَنَنِي	إِنَّ الْعَوَاذِلَ لَسَنَ لِي بِأَمِيرِ 116

كشاف الأعلام

الاسم	الصفحة
آدم (عليه السلام)	63، 64، 78، 79، 99، 118، 170
إبليس	78، 88، 154
أبيّ بن كعب	42، 44
ابن الأثير	37
إجناز جولدتسيهر	9
الأخفش	68، 89، 96، 164، 203
الأزرق بن طرفة	85
إسماعيل (عليه السلام)	20، 200
إسماعيل الأكوع	22
الأسود بن يعفر	112، 131
أبو أسيدة الديبري	132
ابن أشته أحمد الأصبهاني	41
الأصمعي	227
الأعشى	126، 172، 182، 184، 194
عبد الأعلى بن عبد الله	42
إفرايم	18
ألفورد ويلش	27
الألوسي	47، 95، 152
ألويس سبرنجر	10

الاسم	الصفحة
الإمام الباقلاني	45
الإمام الطبري	74، 46، 44
امرئ القيس	204، 196، 179
ابن الأنباري	96، 55
أندرو ريبين	22، 10
باتريسيا كرون	10
البغوي	199، 134
أبو البقاء	216، 213، 138، 131
بولس	22
توز أندريه	17
ابن تيمية	59، 47، 46
ثيودور نولدكه	25، 21، 21، 18، 15، 14، 13، 12، 9
ج. برجستراسر	18، 16، 14، 13، 9
ج. وانسبرغ	18، 10
ج. أ. بيلامي	25، 23، 10
جاك بيرك	30
جبر	230
جبريل	29
جراف فون بوتمر	23
جرير	203، 178، 108
ابن الجزري شمس الدين	46
أبو جعفر النحاس	161، 150، 102، 68
ابن جني	227، 225، 207، 173، 118، 94

الاسم	الصفحة
جورج برنارد شو	39
ابن الجوزي	95، 57
جون وانسبرغ	37، 18، 10
جيرالد هاوتنغ	18
جيرد بوين	22، 9
أبو حاتم السجستاني	42
ابن الحاج	48
الحارث بن عبد الرحمن	42
الحجاج بن يوسف الثقفي	20
حسان	74، 65
حصين الحارثي	111
الخطيئة	176
أبا حفص الحنبلي	183
حفصة	152، 87
عبد الحلیم	36
حمزة	237، 138
الحوفي	134
أبو حيان	184، 150، 134
خطام المجاشعي	153، 141
الخطيب	81
الخليل بن أحمد	203، 141
داود (عليه السلام)	147
ابن أبي داود	42، 41

الاسم	الصفحة
درهم بن زيد	76
دوبلوا	19
دون إيدموند	18
أبي ذؤيب الهذلي	154، 153
ر. بيل	20
الراعي النميري	221، 129
الراغب	101
عبد الرحمن بن مهدي	42
عبد الرحمن دمشقية	38
رفيق الحق	33
رؤبة	105، 101
ريتشارد بيل	38، 20، 9
الزبير بن خريث	42
الزجاج	202، 198، 171، 59
الزركشي	238، 57
الزّمخشري	37، 69، 72، 77، 83، 95، 100، 108، 120، 122، 133، 134، 139، 162، 165، 183، 192، 200، 223، 238
س. هوبكينز	19
ستيفن هومبريس	20
أبو السعود	60
سعيد بن جبير	203
سيويه	235، 219، 194، 193، 172، 142
سيدني غريفيث	19

الاسم	الصفحة
السيرافي	214
الشُّيوطي	208، 79، 57، 48، 43، 41، 37
الشعراوي	109
شمس الدين الصائغ	79
الشوكاني	200، 59
الشيخ العبادي	41
صلاح الخالدي	160، 155
الصلتان العبدى	180
صمويل مرجليوث	9
الضحاك	178
الطبري	169، 75، 74، 73، 46، 44
أبي العالية	194
عامر الخصفي	117
عامر بن جوين	203
عائشة	47، 43، 42، 29، 15، 14
عبد بن الطبيب	233
عبيد بن عقيل	42
أبو عبيدة	209، 145
أبي عبيدة القاسم بن سلام	41
عثمان	47، 46، 45، 43، 42، 41، 35، 24، 15، 14
العرجي	147، 139
عروة بن حزام	205، 112
ابن عطية	101

الاسم	الصفحة
ابن عقيل	200
عكرمة الطائي	42
علقمة بن عبدة	98
عليّ بن أبي طالب	15
علي دشتي	33
ابن عمر	132
عمر بن أبي ربيعة	147
أبو عمرو الدّاني	47، 45، 41
أبو عمرو بن العلاء	227، 204
عمرو بن أحمر	64
عمرو بن شأس	174
عمرو بن لجاء	108
عيسى (عليه السلام)	200، 179، 95، 81، 80
أبي الغريب النصري	215
غوستاف فلوجل	21
الفراء	236، 189، 177، 161، 149، 95، 83
الفرزدق	236، 154، 85
فرعون	147، 146، 144، 135
ابن قتيبة	59، 45، 44، 43، 3
القرطبي	199، 170، 142، 79، 68، 63
القطامي	150، 131، 116
أبي قيس بن الأسلت	103
كارل فولرس	17
ابن كثير	95

الاسم	الصفحة
كريستوفر لوجسنبيرغ	16، 9
الكسائي	237، 208، 202، 162، 138
كلود جيلوت	19
كينيث كراج	10
ليبد	98
عبد الله الحرفي	220
عبد الله بن المبارك	42
عبد الله بن عمرو	29
عبد الله بن مسعود	128
لوط (عليه السلام)	167
لولنج	18، 17
لويس شيخو	16
ليون كائتاني	9
مايكل كوك	10
المبرد	173، 172، 85
المثقب العبدى	94
مجاهد	167، 165
مجنون ليلى	153
محمد الجزولي	32
محمد مهر علي	10
مريم (عليها السلام)	199، 186، 179، 166، 160، 159، 113، 95، 81، 80، 16
ابن مسعود	138
أبو معاوية الضَّير	47
معن بن أوس	98
عبد الملك	178

الاسم	الصفحة
موسى (عليه السلام)	200، 147، 146، 145، 144، 120، 22
النابغة الجعدي	222، 173
النابغة الذبياني	182
النضر بن شميل	204
النواح الكلابي	175
نيوتون	33
هاجر (عليها السلام)	20
هارون (عليه السلام)	146، 145، 144، 120، 42
هاني البربري	42
هشام بن عروة	42
وليم مونتغمري	21، 20، 9
وليم ميور	30، 9
يسار	230
يعقوب (عليه السلام)	164، 134
يقيم ريزفان	28
يهودا دي نيفو	9
يونس	145

المصادر والمراجع

- الأزهرى، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ط 1، 1964).
- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محمد عبد الحميد، (القاهرة: 1933).
- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، (بيروت: دار الفكر، ط 2، د.ت).
- الأعرجي، ستار جبر، الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2001م).
- ابن الأنباري، أبو البركات، البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتب دار الكتب، 1970م.
- الألوسي، محمود أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت).
- إميل، بديع يعقوب، المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992م).
- الأمين، شريف يحيى، معجم الألفاظ المثناة، (بيروت: دار العلم للملايين، ط 1، 1982).
- الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، (دمشق: دار الفكر، د. ت).
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير، ط 3، 1407-1987).
- بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، (القاهرة: دار العلوم، 1402هـ/ 1982).
- أبو البقاء، محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله، اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق: غازي مختار طليمات، (دمشق: دار الفكر، 1995).

- البيضاوي، عبد الله بن عمر أبو سعيد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت: دار صادر، د.ت).
- البيومي، محمد رجب، إعادة قراءة القرآن: محمد رجب يرد على جاك بيرك، (القاهرة: دار الهلال، د.ت).
- تمام حسان، العربية معناها ومبناها، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1985).
- التهانوي، محمد علي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، (بيروت: مكتبة لبنان، 1996).
- توفيق رفيق العجم، موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين، (بيروت: مكتبة لبنان، ط1، 1998).
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب، تحقيق: د.حسن هنداوي، (دمشق: دار القلم، 1985).
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، علل التثنية، تحقيق: د.صبح التميمي، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1992).
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، (بيروت: عالم الكتب، د.ت).
- الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط3، 1404).
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط3، 1404).
- الجيائي، شهاب الدين أحمد بن محمد المصري، التبيان في تفسير غريب القرآن، تحقيق: فتحي أنور الدابولي، (القاهرة: دار الصحابة للتراث بطنطا، 1992).
- ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي، المدخل، (مصر: دار التراث، د.ت).
- الحموي، ياقوت بن عبد الله أبو عبد الله، معجم البلدان، (بيروت: دار الفكر، د.ت).

- ابن حنبل، أحمد أبو عبد الله الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، (القاهرة: مؤسسة قرطبة، د. ت).
- أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي، تفسير البحر المحيط، عناية: صدقي محمد جميل، (بيروت: دار الفكر، 1412هـ/ 1992م).
- الخالدي، صلاح لطائف قرآنية، (دمشق: دار القلم، ط 1، 1412هـ/ 1992).
- ابن خالويه، الحسين بن أحمد أبو عبد الله، الحجة في القراءات السبع، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، (بيروت: دار الشروق، ط 4، 14109).
- ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد، الحجة في القراءات السبع، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، (بيروت: دار الشروق، بيروت، ط 4، 1401هـ/ 1981م).
- ابن خالويه، الحسين بن أحمد، ما ليس في كلام العرب، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (مكة المكرمة: ط 2، 1399هـ/ 1979م).
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد، سنن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1407).
- الدامغاني، أبو عبد الله الحسين بن محمد، الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، تحقيق: محمد حسن أبو العزم الزيتي، (القاهرة: 1316هـ/ 1996).
- دمشقية، عبد الرحمن، الرد على شبهات حول أخطاء إملائية في القرآن الكريم، (الرياض: دار المسلم للنشر والتوزيع، 1424هـ/ 2002م).
- ابن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني، كتاب المصاحف، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1985م).
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، طبعة جديدة، 1415 - 1995).
- الزبيدي، أبو الفيض المرتضى محمد بن محمد بن عبد الرزاق، تاج العروس من جواهر القاموس، القاهرة: المطبعة الخيرية، 1306هـ).
- الزركشي، محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، (بيروت: دار المعرفة، 1391هـ)، 1/ 15.

- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق: باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ / 1998م)، 1/ 168.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود، أساس البلاغة، تحقيق: باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ / 1998م)، 1/ 168.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود، المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق: د. علي بو ملحم، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1993).
- ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل النحوي البغدادي، الأصول في النحو، تحقيق: د. عبد الحسين الفتلي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 3، 1988).
- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت.).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، (القاهرة: 1278هـ).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال، الأشباه والنظائر، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1985م).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998)، 2/ 406.
- السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، الدر المنثور، (بيروت: دار الفكر، 1993).
- الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، (القاهرة: أخبار اليوم، د. ت.).
- صلاح الدين، أبو سعيد خليل الدمشقي الشافعي، الفصول المفيدة في الواو المزیدة، تحقيق: د. حسن موسى الشاعر، (عمان: دار البشير، 1990).
- صلاواتي، ياسين، الموسوعة العربية الميسرة والموسعة، (بيروت: مؤسسة التاريخ الإسلامي، 2001).
- الضباع، علي محمد، سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين، (مصر: المكتبة الأزهرية للتراث).

- الطبري، محمد بن جرير أبو جعفر، تفسير الطبري، (بيروت: دار الفكر، 1405هـ).
- طبق، عبد الجواد محمد، دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، (دار الأرقم، ط 1، 1413هـ/1993م).
- ابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ/1998).
- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية، 1984م).
- عبد الجواد، محمد طبق، دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، (دار الأرقم، ط 1، 1413هـ/1993).
- عبد الرحمن بن أبي الوفاء، محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد، أسرار العربية، تحقيق: د. فخر صالح قدارة، (بيروت: دار الجيل، 1995).
- العسكري، أبو هلال، كتاب جمهرة الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، (دمشق: دار الفكر، ط 2، 1988).
- ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري، شرح ابن عقيل، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (دمشق: دار الفكر، ط 2، 1985).
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين، اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق: غازي مختار طليمات، (دمشق: دار الفكر، 2001).
- العكبري، أبو البقاء محب الدين عبد الله بن أبي الحسين، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت).
- العكبري، أبو البقاء محب الدين عبد الله بن أبي عبد الله، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت).
- الغزالي، مشتاق بشير، القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، بيروت: دار النفائس، 1429هـ/2008م).

- ابن فارس، أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، (بيروت: دار الفكر، ط2، 1418هـ / 1998).
- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، بتصدير: محمد أبي الفضل إبراهيم، (بيروت: عالم الكتب، ط2، 1400هـ / 1980م).
- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب الجمل في النحو، تحقيق: فخر الدين قباوة، (دم، ط5، 1995).
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب الجمل في النحو، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، (دم: ط5، 1995).
- الفرماوي، عبد الحي حسين، رسم المصحف ونقطه، (مكة المكرمة: المكتبة المكية، ط1، 1425هـ / 2004م).
- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، (بيروت: دار الجيل).
- ابن القاسم، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، (القاهرة: دار المعارف).
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، بتحقيق السيد أحمد صقر (بيروت: المكتبة العلمية، ط3، 1981م).
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، (د. ت. م).
- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، (القاهرة: دار الشعب، ط2، 1372هـ).
- القزويني، محمد بن يزيد أبو عبد الله، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر، د. ت).
- القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن، تحقيق: حاتم صالح الضامن، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1405هـ / 1985م).
- مأمون محمود ياسين، من روائع البديع، (دبي: كلية الدراسات الإسلامية والعربية، ط1، 1418 / 1997).

- ابن مجاهد، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس التميمي، كتاب السبعة في القراءات، تحقيق: د. شوقي ضيف، (القاهرة: دار المعارف، ط 2، 1400).
- المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، (بيروت: دار الفكر المعاصر، 1410).
- المناوي، عبد الرؤوف، فيض القدير، (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، 1356هـ).
- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفرقي المصري، لسان العرب، (بيروت: دار صادر).
- النجدي، علي ناصف، مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة، (القاهرة: دار المعارف، د. ت).
- النحاس، أبو جعفر، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، (مكة: جامعة أم القرى، 1409).
- نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، نقله إلى العربية: جورج تامر، (بيروت: مؤسسة كونراد أدناور، 2004م).
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت).
- ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين الأنصاري، شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (القاهرة: ط 11، 1383).
- ابن هشام، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، (بيروت: دار الفكر، ط 6، 1985).
- ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق: عبد الغني الدقر، (دمشق: الشركة المتحدة للتوزيع، 1984).
- ابن هشام الأنصاري، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، (بيروت: دار الجيل، ط 5، 1979).

- ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري المصري، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (مصر: مطبعة السعادة، ط 10، 1385هـ / 1965م).

المراجع الأجنبية

- Abdullah, Saeed. The Quran: An Introduction, (New York & London: Routledge, 2012).
- Ali Dashti. Prophetic Career of Mohammad, (California: Mazda Publishers, Costa Mesa, 1994).
- Bell's Introduction To The Qur'an: Completely Revised & Enlarged By W. Montgomery Watt, Islamic Surveys, (Edinburgh University Press, 1970).
- Ch. Luxenberg, Die syro-aramäische Lesart des Koran: Ein Beitrag zur Entschlüsselung der Koransprache, Berlin: Das arabische Buch, 2000 (2nd edn Berlin: Schiler, 2004) (translation: The Syro-Aramaic Reading of the Koran, Berlin: Schiler, 2007).
- G. J. Oshay. Anatomy of the Qur'an. Ali Dashti. Twenty-Three years: A Study of the Prophetic Career of Mohammad, (London: George Allen & Unwin, 1985).
- Gerd, R. Puin. "Observation on Early Qur'an Manuscripts in San'a", in: Stefan Wilde (ed), The Qur'an as Text, E.J. Brill, Leiden, 1996, 107-111.
- Jacque Berques, En relisant le Coran, (Paris: Editions Albin Michel, 1995).
- M. A. S. Abdel Haleem. Grammatical Shift For The Rhetorical Purposes: Iltifât And Related Features In The Qur'an, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 1992, Vol. IV, part3.
- Mohammad al-Ghazoli, David Daniels (ed), Christ, Muhammad and I, (Chick Publications, 2007).
- Oliver, Leaman (ed). Encyclopedia of the Qur'an, (Routledge, 2005).
- P. Crone and M. Cook, Hagarism: The Making of the Islamic World, Cambridge: Cambridge University Press, 1977.
- Qur'anic Studies: Sources & Methods Of Scriptural Interpretation (Oxford 1977).
- Quranic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation (Oxford: Oxford University Press, 1977).
- R. Paret, The Cambridge History Of Arabic Literature, I (1983).
- Reynolds, Gabriel Said. et Al. The Quran and Its Historical Context, (Routledge, 2008).
- S. H. Griffith, "The Quran in Arab Christian Texts: The development of an Apologetical argument; About Qurran in the Maglis of al-Ma'mun", PAROLE DE L'ORIENT, 24, 1999.
- T. Andrae. Les Origines de l'Islam et le Christianisme (trans), J. R. Oche, (Paris: Adrien-Maisonneuve, 1955).

فهرس المحتويات

3 مقدمة
7 الفصل الأول: المستشرقون و«الأخطاء اللغوية» المزعومة في القرآن
9 المبحث الأول: المستشرقون والقول بالخطأ اللغوي في القرآن
36 المبحث الثاني: مواقف بعض الباحثين المسلمين
41 المبحث الثالث: عن خبر اللحن في المصحف العثماني
49 الفصل الثاني: مفهوم المطابقة والإشكال
51 المبحث الأول: المطابقة
55 المبحث الثاني: الإشكال
61 الفصل الثالث: إشكالات في العدد
63 المبحث الأول: المفرد في موضع التثنية
63	1 - ورود الضمير مفردًا في (فتاب عليه) بعد ذكر آدم وحواء
64	2 - ورود الضمير المفرد (وإنها) بعد ذكر الصبر والصلاة
67	3 - ورود الإشارة مفردًا في الفعل (يعلمه) بعد ذكر النفقة والنذر
69	4 - إيراد الضمير (به) بعد مذكورين
70	5 - الإشارة بـ (أكله) المفرد بعد النخل والزرع المثني

- 6 - الإشارة بالضمير المفرد (ليرضوه) بعد ذكر الله ورسوله 71
- 7 - الإشارة بالضمير (ينفقونها) المفرد بعد ذكر الذهب والفضة 73
- 8 - الإشارة بالضمير المفرد (قدره) بعد الشمس والقمر 76
- 9 - ورود كلمة (مثلاً) مفرداً بعد المثنى 77
- 10 - عود الضمير مفرداً في الفعل (فتشقى) بعد ذكر آدم وحواء 78
- 11 - وصف عيسى ومريم بأنهما (آية) بالإفراد 80
- 12 - الإشارة إلى الأموال والأولاد بـ(التي) المفرد 81
- 13 - الإخبار بـ(قعيد) عن (المتلقيان) المثنى 83
- المبحث الثاني: المفرد في موضع الجمع 86
- 14 - الإخبار بـ(عدو) عن (بعض) الجمع 86
- 15 - ورود (أول كافر) بالإفراد في خطاب الجمع (ولا تكونوا) 88
- 16 - وصف الأمة بـ(وسطا) 90
- 17 - مجيء (أحد) مفرداً في سياق الحديث عن الجماعة 92
- 18 - الإخبار بـ(أم) المفرد عن الجمع (آيات) 94
- 19 - وصف (الذرية) الجمع بـ(طيبة) المفرد 96
- 20 - ورود (الكلمة) مفردة في سياق الحديث عن (كلمات) 97
- 21 - الإشارة بـ(منه) بعد الصدقات 100
- 22 - الإشارة بـ(ذلك) المفرد بعد ذكر الرسل الجمع 102
- 23 - الإشارة بـ(به) بعد السمع والأبصار والختم على القلوب 105
- 24 - وصف (سور) الجمع بـ(مثله) المفرد المذكر 106

- 25 - عطف (الشَّمائل) الجمع على (اليمين) المفرد 107
- 26 - الإشارة إلى (الأنعام) الجمع بهاء التذكير المفرد (بطونه) 110
- 27 - الإخبار عن جماعة الأنبياء بـ(نبيًا) المفرد 113
- 28 - وصف الجماعة بـ(جسدًا) المفرد 115
- 29 - الوصف بـ(طفلاً) المفرد في سياق خطاب الجمع (نخرجكم) ... 115
- 30 - الإخبار عن جمع المؤمنين بـ(إماما) المفرد 119
- 31 - أفراد (الذَّنب) وذنوب ابن آدم كثيرة 121
- 32 - أفراد (منتصر) و(الدُّبر) وهما خبران عن جمع 122
- 33 - عطف (نهر) المفرد على (جنَّات) الجمع 123
- المبحث الثالث: التَّثنية في موضع المفرد أو الجمع 127
- 34 - الإشارة إلى الموعودين بـ(اللَّذان) المثنى، دون الجمع 127
- 35 - ورود (بهما) المثنى بعد (أو) الدَّال على التَّخيير بين شيئين 128
- 36 - الإشارة إلى السَّموات والأرض بالمثنى 129
- المبحث الرَّابع: الجمع في موضع المفرد 133
- 37 - التَّمييز الجمع (أسباطًا) بعد العدد اثنتي عشرة 133
- 38 - ضمير مجموع في (ملئهم) وضمير مستتر مفرد في (يفتنهم) 134
- 39 - المراد بضمير (كُم) في (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُم) أهو للنَّبِي أم للكفار؟ .. 135
- 40 - الإخبار بالفعل (بما كانوا يصنعون) بعد ذكر القرية الآمنة 136
- 41 - ورود التَّمييز (سنين) جمعًا بعد العدد مائة 137
- 42 - مجيء الفعل (ارجعُون) المسند إلى الجمع بعد خطاب المفرد .. 139

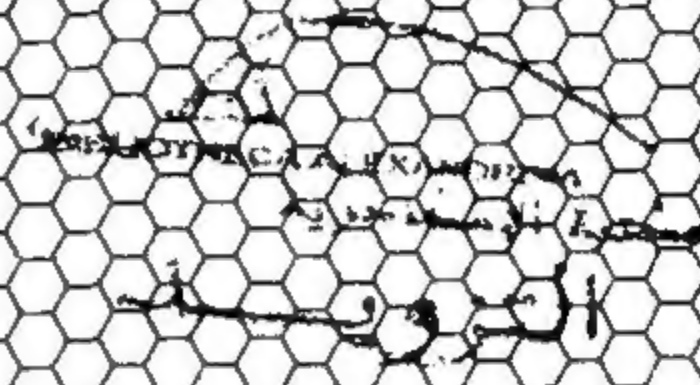
- المبحث الخامس: الجمع في موضع التثنية 141
- 43 - إضافة (الأيدي) بالجمع إلى السَّارِق والسَّارِقَة المثنى 141
- 44 - إسناد (يستوون) إلى الجمع، وهو مسبوق بمثلين لرجلين 142
- 45 - إسناد (معكم) إلى الجمع في خطاب موسى وهارون 144
- 46 - الإخبار عن (فريقان) بالفعل (يختصمون) المسند إلى الجمع 148
- 47 - إسناد الاسم (طائعين) جمعاً إلى السماء والأرض 149
- 48 - خطاب الثقلين بالجمع (لكم)، وخطاب الإنس والجن بالجمع .. 150
- 49 - إضافة القلوب الجمع إلى الضمير (كُما) المثنى 152
- الفصل الرابع: إشكالات في الجنس 157
- المبحث الأول: التذكير في موضع التأنيث 159
- 50 - ضمُّ مريم إلى الرَّاكعين المذكر المجموع 159
- 51 - وصف الكواكب والنَّجوم بـ(ساجدين) 160
- 52 - ضمُّ امرأة العزيز إلى (الخاطئين) المذكر المجموع 162
- 53 - الإخبار عن الأعناق بـ(خاضعين) 164
- 54 - ضمُّ امرأة لوط إلى (الغابرين) المذكر المجموع 166
- 55 - ضمُّ (النَّفس) المؤنث إلى (السَّاخرين) المذكر المجموع 167
- المبحث الثاني: متفرقات في التأنيث 169
- 56 - إيراد (مثله) بعد (سورة) المؤنث 169
- 57 - الإخبار عن الأسماء بـ(عَرَضَهُمْ) 170
- 58 - الإخبار عن البقر بالفعل (تشابهه) مذكراً 171

- 59 - إسناد الفعل المذكّر إلى (الوصيّة) المؤنّث 172
- 60 - موافقة العدد لمعدوده في الجنس 172
- 61 - إسناد الفعل جاءه إلى الفاعل المؤنّث (موعظة) 176
- 62 - إسناد الفعل المذكّر إلى الاسم المؤنّث (آية) 179
- 63 - الإشارة إلى السّماوات والأرض وما فيهنّ بـ(هذا) 180
- 64 - الإشارة إلى الشّمس المؤنّث بضمير الإشارة المذكّر (هذا) 181
- 65 - وصف الأسماء بـ(الحسنى) المفرد 184
- 66 - الإخبار عن القرى بـ(أهلكناهم) 185
- 67 - نفي مريم عن نفسها صفةً توهّم التّذكير 186
- 68 - وصف الرّيح المؤنّث بـ(عاصف) المذكّر 188
- 69 - وصف اللّيل والنّهار والشّمس والقمر بـ(يسبحون) 191
- 70 - مجيء الفعل (كان) وبعده ضمير (بها) 192
- 71 - الإشارة بـ(إنها) إلى اسم غير محدّد 195
- 72 - الإشارة إلى الدّواب بـ(منهم) 196
- 73 - وصف البلدة بـ(ميتا) مذكّرا 197
- 74 - إسناد الفعل (اتّخذت) بالتّاء إلى العنكبوت 198
- 75 - وصف العظام بأنّها (رميم) 199
- 76 - تأنيث الفعل المسند إلى (قوم) 200
- 77 - الإخبار عن السّاعة المؤنّث بـ(قريب) 201
- 78 - الإشارة إلى الفلّك والأنعام بضمائر المفرد المذكّر 205

207	79 - الإشارة إلى الفتنة بضمير المذكر (هذا)
208	80 - إسناد الفعل المذكر إلى الشمس والقمر
211	الفصل الخامس: الظواهر اللغوية المؤثرة في المطابقة
213	المبحث الأول: المجاورة
218	المبحث الثاني: التغليب
221	المبحث الثالث: العاقل وغير العاقل
224	المبحث الرابع: حمل اللفظ على لفظ آخر
229	المبحث الخامس: الجنس
232	المبحث السادس: الحقيقة والمجازية
238	المبحث السابع: مراعاة الانسجام بين فواصل الآي
241	كشاف الآيات القرآنية مرتبة بحسب السور وآياتها
259	كشاف الأحاديث النبوية والآثار (ترتيب ألبائي)
261	كشاف الأبيات الشعرية
265	كشاف الأعلام
273	المصادر والمراجع
281	فهرس المحتويات

Inv:4302

Date:16/2/2016





المُستشرقون

ودَعَوَى الأخطاء اللغوية في القرآن الكريم

لقد تصدى في عصرنا الحاضر، مجموعة كبيرة من المستشرقين للدراسات القرآنية، وهم يتصفون بصبر طويل، واستقصاء دقيق للمصادر؛ فأفادوا في بعض المجالات، وظلموا القرآن والإسلام في مجالات كثيرة.

وفي وجه هذه الهجمة المكثفة على القرآن، والسّبر الدقيق لأغوار المصادر الإسلامية من لدن المستشرقين، فإننا لا نكاد نجد عند العلماء المسلمين اهتماماً يذكر بالتصدي لتهجم المستشرقين على القرآن، خاصة في مجال اتهام لغة القرآن بالركاكة والخطأ.

وبناء على ذلك، فإن دراستنا الحالية محاولة متواضعة لبيان زيف ادعاءات الذين يتخذون من تهمة «الأخطاء النحوية» ميداناً للتحريش بالقرآن الكريم، والتشويش على المسلمين قليلي التبصر بالقواعد اللغوية العامة.

وإجمالاً، فإن هذه الدراسة وقوف عند بعض تلك الصور من التراخي بين الأساليب العربية في الآيات القرآنية.

Bibliotheca Alexandrina



1503610

ISBN-13: 978-2-7451-8417-7

90000



9 782745 184177

أسستها محمد باقر باقر سنة 1971 بيروت - لبنان

Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon

Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

ص.ب. 9424 - 11 بيروت - لبنان

ف.ب. 804813 - 961 5

info@al-ilmiyah.com

www.al-ilmiyah.com

DKI



دار الكتب العلمية

Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah